حرب العصابات

بين النظرية العلمية والتطبيق الفلسطيني

إعداد الأسير

محمد ناجي صبحة

تقديم

د. أحمد نوفل

أستاذ الشريعة الإسلامية
في الجامعة الأردنية

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



حَربُ العِصابات

بين النّظريَة العلميّـة والتطبيق الفلسطيني

حرب العصابات

بين النّظرية العلميّـة والتطبيق الفلسطيني

إعداد الأسير محمد ناجي صبحة

الطبعة الأولى – ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

توزيع: مؤسسة فلسطين للثقافة

سورية – دمشق – ص.ب: ١٣٠٢٩
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢
فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١
البريد الالكتروني: thaqafa@thaqafa.org
الموقع الالكتروني: www.thaqafa.org

حرب العصابات

بين النّظرية العلميّـة والتطبيق الفلسطيني

إعداد الأسير محمد ناجي صبحة

إهـــداء

إلى أسود كتائب الشهيد عز الدين القسام..

إلى الشهداء العظام..

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾

وإلى المرابطين المجاهدين..

﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾

وإلى الصابرين الثابتين؛ جرحى وأسرى..

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾

أُهدي كتابي هذا..

راجياً من الله القَبول..

من قَبسِ النُّبوّة

■ «لن تبرحَ هذه الأمةُ منصورين أينما توجّهوا، لا يضرّهم من خذلهم من الناس، حتى يأتيَ أمرُ الله وهم بالشّام».

■ «إذا فَسدَ أهلُ الشّامِ فلا خيرَ فيكم. لا تزالُ طائفةٌ من أمّتي منصورين، لا يضرُّهم مَن خذلَهم، حتى تقومَ السّاعة».

■ «عُقر دارِ المؤمنين الشّام».

■ «إنّي رأيتُ الملائكةَ في المنامِ أخَذوا عمودَ الكتاب فعمَدوا به إلى الشّام، فإذا وقعت الفتنُ فإنّ الإيمانَ بالشّام».

■ «عن عبد الله بن حوالة أنّه قال: يا رسولَ الله، اكتب لي بلداً أكون فيه، فلو أعلم أنّكَ تبقى لم أختر إلا قربَك. فقال عليه السلام: «عليك بالشّام، عليك بالشّام، عليك بالشّام». فلما رأى رسولُ الله كراهيتَه للشام، قال: «هل تدرون ما يقول الله عز وجل؟ يقول: أنتِ صَفْوَتي من بلادي، أُدخِلُ فيكِ خِيرتي من عبادي»

■ «ورأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي عموداً أبيضاً كأنه لؤلؤ، تحملُه الملائكة، فقلت: ما تحملون؟ قالوا: عمودَ الإسلامِ أُمرنا أنْ نضعَه بالشّام»

■ «عليكَ بالشّامِ فإنّها خِيرةُ الله من أرضه، تجبي إليها خيرته من عباده»

■ «ستجدون أجناداً: جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن. قال عبد الله: فقمتُ فقلتُ: اختر لي يا رسولَ الله. فقال: عليكم بالشّام، فمن أبى فليلحق بمنه، وليستعذ من غدره، فإنّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد تكفّلَ لي بالشّام وأهلِه»[1].

* * *

١ جميع ما تقدم مأخوذ من كتاب (فضائل الشام/ للربيعي)، تحقيق الشيخ الألباني، وجميع الأحاديث إما صحيحة أو حسنة.

تقديم

الدكتور أحمد نوفل

أستاذ الشريعة الإسلامية في الجامعة الأردنية

الصِّراع هو قانون الحياة، وسنّة التّدافع سنةٌ كونيّةٌ اجتماعية، وضعها الله في بُنية الكون والمجتمعات، بل جعلها صمّامَ أمان، وضمانَ سلامةٍ وعدمِ فسادٍ للأرض، وأمنِ أماكن العبادة، وقد كرّرها القرآن الكريم في موضعَينِ من سورتَينِ كريمتَين، هما سورة البقرة وسورة الحج، فقال: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ**﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا**﴾ [الحج: ٤٠].

والخِلاف بين بني البشر سنّةٌ أخرى، وسيلازمهم ذلك ما لازمتْهم الحياة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]. وكثيراً ما يحسم البشر خلافاتهم بالقوة والحروب.

وحتى إن لم يكن ثمّة خِلافات، فإن نظرية (فائض القوة) ستجد نفسَها متحقّقةً في الواقع؛ اعتداءً على الضعيف، وتمدّداً في أرضه، وتمتّعاً بثروته. إن الضَّعفَ لا يُغري الأقوياءَ إلا بالاعتداء على الطّرف الضعيف، ورائحة الضَّعْفِ تجذب الأقوياءَ كما تجذب رائحةُ الدّمِ أسماكَ القِرش في البحار والمحيطات نحو الفرائس.

هذه هي طبيعة الحياة، وهذه طبيعة الأشياء. وما السّلام إلا أماني عذابٍ وأحلام، يحلم بها الضّعفاء ويتعلَّلونَ بها، كما هو حال العالم العربي الرسميّ اليوم.

ما دام الأمر كذلك، وأن الأقوياءَ لا يرحمون الضعفاء، بل إن ضعفهم يُغري الأقوياءَ بالاعتداء، ويهدّد الضُّعفاء بالإنهاء والإفناء، أفلا ترى إلى مصير الهنود الحُمر؟ وألا ترى إلى مصير إفريقيا كيف تُفتَعل فيها الحروب وتُوزَّع الأسلحة «ليتفانى» الناس في حربٍ قذرةٍ لا مصلحةَ لهم فيها؟ ولكنّ الأقوياءَ يتصارعون من خلال الضُّعفاء، ففرنسا وأمريكا تتناطحان من خلال الأفارقة... وهكذا..

فهل بعد هذا التصوير السَّوداويِّ للواقع من أملٍ للضُّعفاء؟! أم أن النهايةَ الحتميّةَ باستئصالهم هي لهم بالمرصاد؟

الجواب نعم! إنّ لهم فسحةً وفرصةً للبقاء والانتصار، شرطَ أن يتغلّبوا على ضعفهم، ويقهروا سلبيّتَهم وخوفَهم وشعورَ الإحباط واليأس والتمزّق والتفرّق، ويجتمعوا على المقاومة وشنّ «حرب العصابات».

لقد غيّرت حربُ العصابات وجهَ التاريخ! وإن لنا فيها نحن المسلمين تجربةً عتيقةً قديمةً منذ فجر الإسلام، حين اتّخذ أبو جندل وأبو بصير من مواقعهما على طريق القوافل نقاطَ هجومٍ وانقضاضٍ على مصالح قريش، فقامت قريش ترجو النبي ﷺ أن يقبلَهم في المدينة، بعكس الاتفاقيّة الموقَّعة بين النّبي ﷺ وقريش، وقد كان.

على أنّ حرب العصابات، أو حرب الشعب، أو المقاومة، أو العمل الفدائي،

قد أصبحت عِلماً وممارسةً، وصار للشعوب، خاصّة الـمُستَعمرة منها، صار لها تجارب، تتبادلها الأمم والأقوام، وتتكامل الخبرات بين المستضعفين.

فكلُّ عالمنا الإسلامي خاض حرب تحرير ضد المستعمر، حتى حقّق لبلاده الاستقلال، واحدةً فواحدة.. ولعلَّ من أجمل صفحات النِّضال والجهاد والقتال؛ ما سطَّره الشعب الجزائريّ في مقاومةٍ شعبيةٍ قدّمت فيها الجزائر مليوناً ونصفاً من الشهداء.

وتجربة عبد الكريم الخطابي في حرب الرِّيف بالمغرب العربيّ غنيّةٌ قيّمةٌ كذلك. وتجربة عمر المختار مَعلمٌ مُشرِّف. والمقاومة المصريّة في قناة السُّويس عملٌ شجاعٌ متقدِّم. على أن من أعظم تجارب حروب العصابات تجربة الشّعب الفيتناميّ؛ فقد انخرطَ الشعبُ كلُّه في مقاومةٍ رائعةٍ ضدّ طغيانٍ أمريكيٍّ عاتٍ مدجَّجٍ لا يرحم، واستخدمَ كلَّ الأسلحة المحظورة والمحرَّمة، وحرقَ الغابات والبشر، وارتكب من المجازر ما تشيب له الولدان. ومن قبله فرنسا صنعت الصَّنيعَ نفسَه في ذات البلد، ومع ذات الشعب، وخرج الشعب الفيتناميُّ منتصراً على القوّتَينِ الاستعماريّتَينِ المستكبرتَينِ الطّاغِيَتين، ولقّنَهما درساً تعلّمت منه كلُّ شعوب الأرض.

وثورة غيفارا وحربه الفدائية مدرسةٌ في حرب العصابات، حتى غدا رمزاً للمقاومة. وخاض الشّعب اللبنانيّ مقاومةً عنيدةً باسلةً، وسطّر ملاحم من العِبر والبطولة والتضحية. وكذا الشّعبُ السُّوريُّ في مقارعة الاستعمار الفرنسي، سطَّرَ بطولاتٍ وتضحيات.

على أنّ بسالةَ ونبالةَ المقاومة في فلسطين، تظلُّ مَعلَماً متميّزا بين كلِّ

التّجارب، وخاصة تجربة (حماس).. ومن قبلها تجربة المقاومة الفلسطينية قبل أن تنحرفَ القياداتُ وتنجرف باتجاه تسوياتٍ غير سويّة، إنما تنخرط في مشروع مقاومةِ المقاومة.

لقد ابتدأت المقاومة الفلسطينيّة من الاستعمار البريطاني في أواسط العقد الثاني من القرن العشرين، أي منذ قرابة قرن من الآن.. إلا قليلاً.

ثم تطوّرت بمقاومة مشروع اليهود الصهاينة، بالهجرة إلى فلسطين والتوطّن فيها. وظهرت قياداتٌ فذّةٌ لهذه الأعمال البطوليّة، من أبرزها عزّ الدّين القسّام، وفرحان السَّعدي، وعبد القادر الحُسيني، وغيرهم... رحمهم الله وتقبّلَ جهادَهم.

ولقد سطّرت (فتح) بطولاتٍ لا تُنكر، إنْ في حرب الكرامة أو بعدها.. قبل أن يتسلّطَ عليها مجموعةٌ من التجّار والسّماسرة الّذين باعوا دماءَ الشُّهداء، واشتغلوا متعهِّدينَ مقاوِلينَ عن الأعداء.

ثم منذ نيّفٍ وعشرين سنة، ظهرت حركة (حماس)، مقاومةٌ فلسطينيةٌ منطلقةٌ من الإسلام العظيم ومبادئه في الحضِّ على الجهاد والمقاومة ومقارعة المحتل: ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾[البقرة: ١٩١]، وقد غدتْ في زمنٍ يسيرٍ واحدةً من رموز المقاومة على مدى العالم والتاريخ الإنساني، وقدّمت قوافلَ من الشهداء، في مقدّمتهم قادتُها العِظام والمؤسِّسون، ولم تفترْ عزيمتها وما لانت. ثم خاضت حروبَ مواجهةٍ مع أعتى قوةٍ عسكريةٍ في العالم، مع أنه ليس مطلوباً من حركات المقاومة أن تواجهَ جيوشاً في حروبٍ نظاميّة، ومع هذا أثبتتْ موجوديّةً وخرجت منتصرةً مرفوعةَ الرّأس وبهمّةٍ عليّة.

كانت حربُ غزّةَ منعطفاً تاريخياً أوقفَ فيه العدوُّ من طرفٍ واحدٍ إطلاق النار، واعترف العالَمُ كلُّه أنّ العدوَّ خسر في هذه الحرب، وإن كان آلَمَ بعضَ العربِ هذا الواقعُ الجديدُ والنّصرُ العتيد؛ فهم يعتبرون أنفسَهم وإسرائيل في خندقٍ واحد، يؤذيهم ما يؤذيها، ويقاتلون من تقاتلُه.

في هذا السِّياق، اطّلعتُ، سريعاً، على كتاب «حرب العصابات، بين النّظريّة العِلميّة والتّطبيق الفلسطيني». وكاتبُه ممن خاض الغَمَرات، ولبثَ في السّجن سنوات، وسجَّلَ من التّجارب والمشاهدات والمعايشات هذه الصّفحات. ونحن نرحّب بالكتاب لينضمَّ إلى مئات الكتب عن حرب العصابات، وإلى عشرات الكتب من التّجربة العربيّة الإسلامية في حرب العصابات.

أسأل الله لهذا الكتاب وكاتبه القبول، وأسأل الله لأمّتنا أن تستفيدَ من كلِّ تجربة، ومن كلِّ كلمةٍ مقاومة، وأن تجعلَ المقاومةَ لها نهجاً وخَياراً، فما جَنَيْنا من خدعة السّلام إلا العلقم والموت الزُّؤام. وخيارُ المقاومة أربحُ الخيارات والحلول، وخيارُ مسالمة العدوّ أسوأُ وأردأُ الخيارات.. والأحمق من لا تعلّمه الخبرة والتجربة.

يجب أن تصبحَ المقاومةُ ثقافةً شعبيّةً عامّة، وأن يكونَ الصّبرُ على النضال وتحمّل تبعاتِه وتكاليفِه بكلّ شجاعةٍ وأريحيّة وروحٍ مضحّيةٍ فدائيّة. هذا هو طريق الشَّرَف والنّصر والعزّة والتحرير.

وفعلاً وحقّاً، أنّ ما أُخِذَ بالقوة؛ لا يمكن أن يستردَّ إلا بالقوة، وما جاء

بالمفاوضات تبدّده أقلُّ التحدّيات. والأقصى أكرمُ على الله وأعزّ من أن يتحررَّ إلا بالدماء والشهداء، فهذا مسرى أعظم الأنبياء، ومَهرُه أكرم ما يُقدِّم الأحياء؛ الدّماء.. ولا نامت أعين الجبناء..

د.أحمد نوفل
أستاذ الشريعة الإسلامية
في الجامعة الأردنية
عمان ـ الأردن

مقدّمة

إنَّ الناظرَ إلى حال العمل الثوري والجهادي في فلسطين على مدار العقود السابقة، يجده قائماً على التطور العشوائي، معتمداً على الكثير من الجهود الفردية والمبادرات الذاتية، ما يجعله مفتقراً إلى النظرات التحليلية والتقييمية غالباً، فالتجارب الثورية ـ رغم غزارتها ـ تمر مرور الكرام من غير توثيق أو تحليل، فترى مئات بل آلاف العمليات العسكرية تُنفذ وتمر بإنجازاتها وأخطائها دون أن تجدَ من يتوقف عندها فيدرسها ويستخلص النتائج منها، ثم يضعها بين أيدي العاملين للاستفادة منها.

لذا، فإن كثيراً من السلبيات الّتي واجهت العمل الوطني الفلسطيني لا زالت متكرّرة، وما زال السقوط عند «العصافير» يشكل نسبة كبيرةً من الاعترافات، ولا زالت الاغتيالات تُنفَّذ بحق المقاومين بنفس الطريقة، ودونما يقظة أو مراجعة حقيقية متأنّية.

كذلك لا زال الاستهتار الأمني، والفشل المترتّب على استخدام الاتصالات الإلكترونية، والقافلة تسير، ولا زال.. ولا زال.. ولا من معتبر. وإن كنا قد بدأنا نشهد في المدة الأخيرة تطوراً ملحوظاً على العمل العسكري في قطاع غزة، واستفادة طيبة من التجارب السابقة، ونقلاً لتجارب وخبرات الشعوب الأخرى، التي عاشت الحياة الثورية ومارست حرب العصابات ضد عدوها.

إنَّ الخللَ الذي تعيشُه المقاومة الفلسطينية هو خلل في إدارة العمل المقاوم وتوجيهه والاستفادة منه، وتوجيه العاملين إلى الوجهة الصحيحة. أما إدارة السياسة، فهي خاضعة إلى فِكر الحركة التي تدير هذا العمل، فعندما أدارت حركة فتح والمنظمة العمل المقاوم كانت توجهه ليقطف حلولاً سلمية توصلها إلى ثمار (واهية) حددتها هي لنفسها، وعندما أدارت حركة حماس عملها المقاوم فإنها وجَّهته إلى وجهة أخرى ونحسبها قد أحسنت في إدارته إن شاء الله.

إنَّ الثورة الفلسطينية تحتاج إلى مفكرين يمتازون بعقول نيرة، لهم تجارب عملية ثرية يدعمونها بدراسات متعمقة لثورات العالم المشابهة، الأمر الذي يؤهّلهم إلى دراسة الكمّ الهائل من التجربة والتاريخ الثوري في فلسطين، وإنني أؤكّد أنّ وجود مثل هؤلاء المفكرين، يضمن تجاوزاً للكثير من السلبيات التي تكرَّرَ الوقوع فيها، ويسمح بالتخطيط المستقبلي البديل عن الاندفاع العشوائي الذي نشهده كثيراً للأسف.

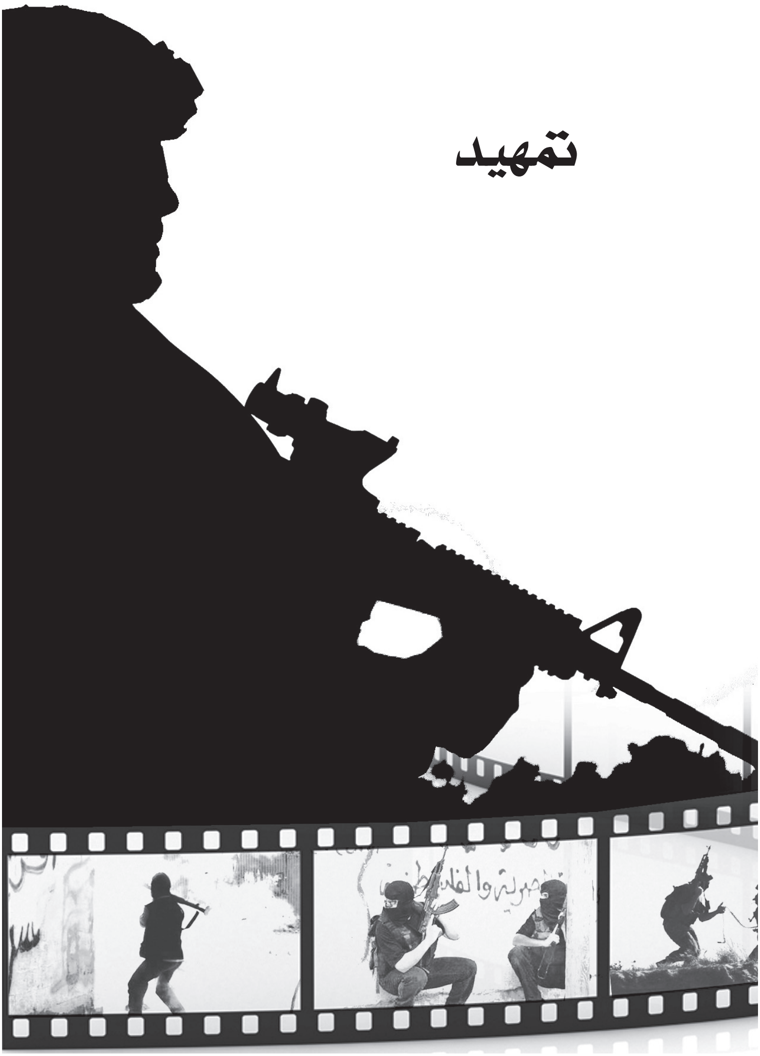
لن نجلد ذاتنا، فالمقاومة حقّقت من الإنجازات ما نفخر به، إلا أنّ الأمل معقود عليها لتكون أكثر قوة وأبلغ أثراً، وأدق تخطيطاً، وأكثر استفادة واستثماراً للخبرات.

هذه الدراسة جهد المقلّ، أسعى من خلالها إلى تسليط الضوء على أبرز تجارب (حرب العصابات) الحديثة، وإجراء مقارنة سريعة بين النظرية العملية لهذه الحروب والتطبيق الفلسطيني لقواعدها، وأخصِّصُ دراستي للتجربة القسامية التي عشناها وسمعناها وشاهدناها.

لقد استمعت في سجني إلى مئات التجارب الجهادية القسامية، فخَبِرتُ الكثير من الأخطاء التي تقع فيها، وللأسف فأغلبها متكرّرة ومستمرة، وقد استفدتُ من بعضها في هذه الدراسة، واستشهدتُ بها بما يتوافق مع الأبواب التي سنطرقها.

أسأل الله العظيم أن يكتب لهذا العمل القبول، ويجعل فيه الخير والنفع والفائدة، وأن يكتبه في ميزان حسناتنا يوم نلقاه، إنه سميع مجيب.

تمهيد



تمهيد

ما هي حرب العصابات؟

حرب العصابات هي حربٌ أقلُّ من محدودة، وغيرُ نظامية، بين طرفين غير متكافئين. وهي قد تكون حرباً وحدها، أو تشكِّلُ جزءاً من تكتيكاتِ حربٍ تقليدية، دوافعها تحرّرية، أو للتخلّص من دكتاتورية، أو انفصاميّة عرقيّة، وهي غالباً ما تستند إلى حركةٍ سياسيةٍ تتولّى إدارتَها.

إذن فهي حربٌ غير نظاميّة، لأنها لا تعتمد أسلوبَ الحرب النّظامية القائمة على المواجهة المباشرة، فحرب العصابات تقوم على العمل السرِّي، واستخدام أسلوب المجموعات الصغيرة المنفصلة، وانتهاج أسلوب الكر والفر والخديعة والكمائن وعدم الظهور، والاكتفاء باستخدام السلاح الخفيف لتحقيق هذا الغرض.

بينما الحروب النظامية (الكلاسيكية)، فإنها تقوم على تقابل جيشَينِ نظاميَّينِ أو أكثر، تدور بينهم معارك عسكرية كبيرة ذات طابع معلوم، وتعتمد هذه الحرب على نظام الجيوش في التعبئة والتنظيم والقتال، واستخدام السلاح الثقيل من المدفعية والدبابات والطائرات والسفن الحربية. فهي شكلٌ مختلفٌ من التكتيكات والخطط والآليات، تختلف في أهدافها ووسائلها وأساليبها وميزاتها ومبادئها التي تستند إليها.

وحرب العصابات تستند إلى حركة سياسية تقود العمل المقاوم وتوجّهه الوجهة التي رسمتها لنفسها، تقيّم أداءه، وتقطف ثماره. هذه الحركة تقوم بموازاة العمل المقاوم بخلقِ وعيٍ سياسيٍّ يرقى بوعيِ الشعب ليكون قادراً على حمل أعباء وتبعات الثورة. فحرب العصابات هي ذراع عسكري لحركة سياسية، وهذا ما أثبته (ماو) في مبادئ ثورته حين قال: «إنّ الشيوعيّة هي القائدةُ لحرب العصابات الصّينية»[١].

أما دوافع حرب العصابات فمتعدّدة: منها ما كان دافعه تحرّرياً طارداً للاحتلال؛ كما الثورة الفلسطينية والثورة الجزائرية، ومنها ما كان هدفه التخلص من الدكتاتورية؛ كالثورة الصينية والكوبية، ومنها ما كان لدوافع انفصالية؛ كثورة الأكراد على الحدود التركية العراقية الإيرانية، والثورة الباسكيّة الممثَّلة بحركة (إينا) الانفصالية.

وحرب العصابات كما ذكرنا تكون بين طرفين غير متكافئين، الأول جيشٌ نظاميٌّ يتبع لدولةٍ ذاتِ كيانٍ وسيادة، يملك عتاداً ثقيلاً وفِرَقاً وتشكيلات مقاتلة، أما الطرف الآخر فمجموعاتٌ مقاتلةٌ مكوَّنةٌ من أفراد لا يملكون إلا سلاحاً خفيفاً مدعوماً بالإيمان والإخلاص في الانتماء.

فحرب العصابات أسلوبٌ يستخدمه الطرف الضعيف عسكرياً، ليتّقي التفوّقَ الّذي يتمتع به خصمه، ويتجنبَ الفارقَ العددي والتكنولوجي، فيستخدم أساليب بدائية نسبياً، وأشكالاً في المواجهة لا تنفع معها كثرة عدد جيوش الخصم وثقل عدته، مما يضطر الخصمَ إلى ملاحقته ومواجهته بالطريقة

---

١ الحرب والاستراتيجية /يهوشيفت هركيف.

التي يفرضها الطرف الضعيف، وبالتالي يتخلّى هذا الخصم عن تفوقه الهائل، ولا يستطيع الاستفادة منه كثيراً.

ويلاحَظ أنّ حرب العصابات قد تكون (استراتيجية)، فتكون هي طريقة القتال الأساسية الوحيدة، كما هو الحال في التجارب الفيتنامية والصينية والكوبية والفلسطينية، والتي هي موضوع بحثنا هنا، وحينها تكون حرباً مفتوحة زمانياً، أهدافها أكثر شمولية وعمقاً وحيوية.

وقد تكون حرب العصابات تكتيكاً، فتكون إحدى طرق القتال المساندة للقتال التقليدي الدائر بين جيوش نظامية، فتستخدم هذه الجيوش أساليب قتالية محددة تخوضها وحدات خاصة مدربة على هذا اللون من القتال، تقوم بأغراض محددة؛ كوحدات من الكوماندوز. وفي ذات الإطار، قد تعمد بعض الدول المتحاربة إلى خلق عصابات غير نظامية كي تخدمَ أغراضها.

لقد أُطلق على حرب العصابات عالمياً اسم (جاريلا)، وهي كلمة لاتينية تعني (الحرب الصغيرة)، ولأنه مصطلح عالمي يعبر عن مصطلحات الجهاد والثورة والمقاومة والنضال والانتفاضة، فسنستخدمه نحن في دراستنا.

وقد تكون العصابة كلمة غير محبَّبة إلى النفس لارتباطها ببعض المعاني السلبيّة في الأذهان، إلا أنها ليست بالكلمة السلبيّة في حقيقتِها وجوهرها، فقد وردت في حديثٍ لرسول الله ﷺ في صحيح مسلم: «اللهمَّ إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام؛ لا تُعبد في الأرض».

لمحة تاريخية:

تُعدُّ حرب العصابات صورة قديمة من صور الصراع، سبقت الحرب النظامية في وجودها، ذلك أن النزاعات والصراعات بدأت بين قوات غير نظامية، ثم أخذت هذه القوات تُعِدُّ نفسها، وتزيد من قدرتها وترفع من كفاءتها، وتضاعف من قواتها لمواجهة الهجمات المضادة والرد عليها بسرعة وقوة، وتشن هجمات استباقية خاطفة، فبدأت تشكل القوات شبه النظامية، ومن ثم النظامية، لتتحول الصراعات إلى حرة نظامية تشبه واقع الحال هذه الأيام.

ولقد بدأت حرب العصابات على شكل غارات خاطفة ومتكررة بين مقاتلي القبائل المختلفة في مساع للسيطرة على الكلأ والماء، ولضمِّ أراضٍ جديدة إلى ممتلكات القبيلة وزعيمها، واستَخدمت هذه الغارات بعض الأساليب البدائية لحرب العصابات؛ كالكرِّ والفرّ، والتمويه والمباغتة، إلّا أن عناصرَها بقيت غير مكتملة، فلا تنطبق عليها مبادئ حرب العصابات المعاصرة بشكل فعلي. ومن أشهر حروب العصابات القديمة في تاريخنا العربي: (حرب البسوس)، و (داحس والغبراء). ثم جاءت تجارب حروب العصابات في عصر النبوة، ومن أبرزها تجربة الصحابي الجليل (أبو بصير).

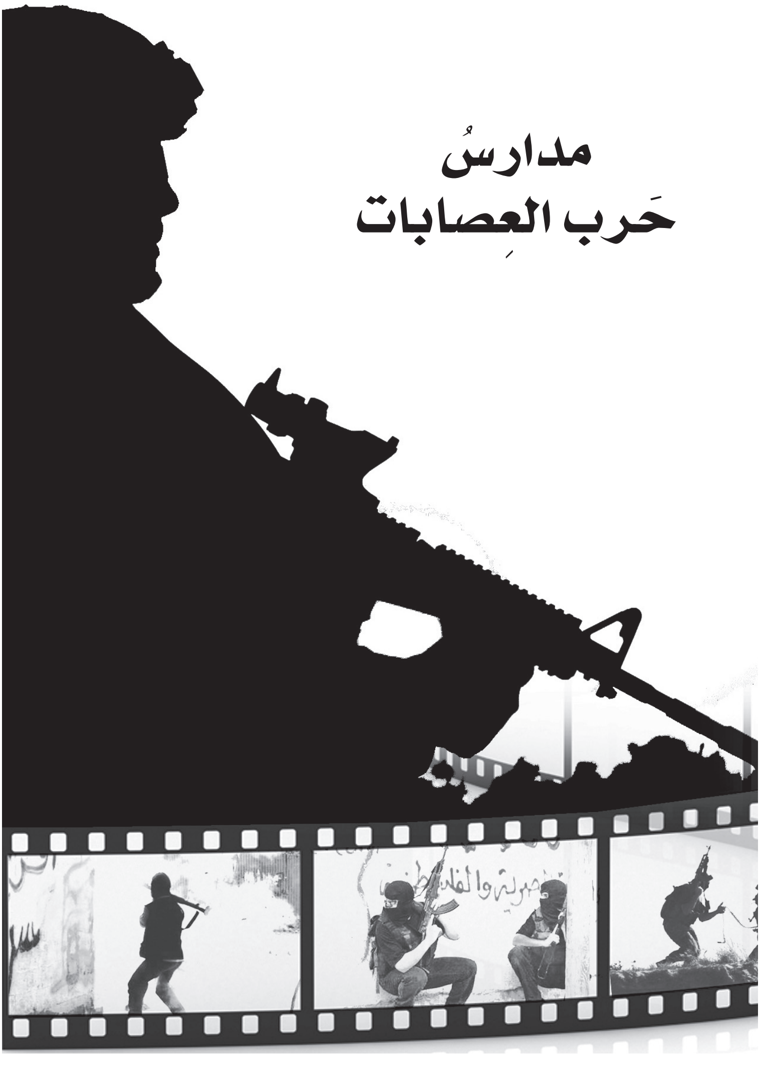
وتطورت حرب العصابات الأخيرة (الحديثة) شيئاً فشيئاً مع التجارب الثورية الناجحة التي خاضتها الشعوب ضد المستعمر والمستبد، ومع كل تجربة جديدة كانت (الجاريلا) تأخذ شكلاً أكثر وضوحاً، وتثبّت لها قواعد ومبادئ وسمات جديدة، حتى تشكلت مدارس ثورية تمثل الأشكال المختلفة لحرب العصابات المدنية والريفية.

ولقد استطاعت حرب العصابات عبر تاريخها تحقيق نجاحات وانتصارات وإنجازات؛ زادت من أهميتها، وقناعة المجتمع بها.. فقد تمكنت من طرد المستعمر مهما عظمت قوته، وتحرير البلاد المحتلة مهما طال احتلالها، وتحقيق الأهداف المرجوة والمرسومة، وتحقيق التقدم والتفوق، على الرغم من الفرق الشاسع في ميزان القوى لصالح عدوها.

ومن الأمثلة المعاصرة التي انتصرت فيها حرب العصابات على عدوها: الثورة الصينية في مواجهة الدكتاتورية الداخلية والاستعمار الياباني، والثورة الفيتنامية في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية، والثورة الجزائرية في وجه الاستعمار الفرنسي، والثورة الكوبيّة في وجه الدكتاتوريّة المدعومة خارجياً، والثورة الأفغانية في وجه السوفييت.

* * *

مدارسُ
حَرب العِصابات



مدارس حرب العصابات

وسعياً للانتفاع من تجارب الآخرين، ونقلاً لخبراتهم، فإننا سنعرض بإنصاف نماذج من حروب العصابات الحديثة التي شكلت مدارس يحتذى بها وتجارب تُدرَّس، وأبرزها (الصينية، الكوبية، الفيتنامية).. ونعرض معها (التجربة الجزائرية)، وقبلها جميعاً نعرض خير تجربة عرفتها الإنسانية، ألا وهي التجربة النبويّة المحمّديّة.. نعرض منها ومضاتٍ خاطفةً تبارك لنا مشروعَنا، ونغترف من معانيها في استنتاجاتنا إن شاء الله.

أولاً: حرب العصابات في عصر النُّبوّة:

استخدم الرسولُ ﷺ وصحابتُه الأطهار مبادئَ حرب العصابات بشكل كبير، بل وفي مرحلة مبكرة من الدعوة والجهاد.. ولعلّ ممارساتهم أصّلت وابتكرت بعضاً من تلك المبادئ، حتى أصبحت مدرسةً متكاملةً اقتدى بها قادةُ الفتح الإسلامي وجند الإسلام على مر العصور.

وسنتحدّث هنا عن هذه المدرسة باختصار، حيث سنطرق بعض العناوين والمواقف التي برزت فيها فنون حرب العصابات ومبادؤها.

◆ **مجموعات أبي بصير:**

كما نعلم، فقد عقدَ رسولُ الله ﷺ مع مشركي مكة صلح الحديبية، وقد تضمّن هذا الصلح بنداً اعتبره كبار الصحابة مجحفاً بحق المسلمين، بل رفضوه؛ لولا طاعتهم لرسول الله ﷺ.

وهذا النص هو: (من جاء إلى المدينة من أهل مكة مُسلِماً فعلى المسلمين ردّه إلى أهله، أما من جاء إلى مكة من أهل المدينة مشركاً فليس على أهل مكة رده)..

ولقد استطاع الصحابي المجاهد عتبة بن أسيد (أبو بصير) أن يفرَّ من قيده الذي كبّله به خالُه، الأخنس بن شريف، وفرَّ إلى مدينة رسول الله ﷺ، وأقام فيها أياماً بين إخوانه مسروراً بدينه سعيداً بإيمانه، ولما علمت قريش بذلك أرسلت من المشركين من يردّه إليهم، وحدّثوا رسول الله بذلك، فما كان من رسول الله ﷺ وفاءً للعهد إلا أنْ ردّه إليهم على كَرهٍ من الصحابة.

وفي طريق العودة، احتال أبو بصير على حُرّاسه، فقتل أحدهما، بينما تمكّن الثاني من الفرار إلى المدينة، فتبعه أبو بصير.. وهناك لم يجرؤ المشرك على اصطحاب أبي بصير معه ثانيةً، بعد ما رأى ما حصل بصاحبه، وعندها أومأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بإيمائة خفية التقطها أبو بصير وسارع إلى تنفيذها، فقال عليه السلام «ويح أمِّه! يُسعر حرباً لو كان معه رجال».. فانطلق أبو بصير إلى أرض محايدة يجمع الرجالَ وكلَّ فارٍّ بدينه من أرض الكفر، حتى تجمّع لديه مجموعات مقاتلة، واتخذت لنفسها قاعدة عسكرية قريبة من ساحل البحر.

ثم بدأ بالإغارة على قوافل المشركين وسلبها، حتى تضررت جميع قوافلهم، وفقدوا الأمان حتى على أنفسهم، فما كان من مشركي مكة إلا أن بعثوا بوفدٍ إلى رسول الله ﷺ في المدينة يطلبون منه أن يتنازل عن الشرط الذي وضعوه هم، وهو الشرط الذي ذكرناه آنفاً. وبذاك حقّقَ أبو بصير هدفه، وعاد جند الإسلام إلى معسكرهم وإلى مدينة رسول الله ﷺ والنصر يسير بركبهم[١].

◆ **الاغتيالات:**

ولقد استخدم رسول الله ﷺ مبدأ الاغتيالات في العديد من المرات التي رأى فيها أنه الحل الأمثل، فيحقن بذلك دماء المسلمين ويفتّ من عضد المشركين ويفرّق شملَهم ويدبُّ الهلَعَ في قلوبهم، وقد حققت عمليات الاغتيال في مجملها أهدافَها بنجاح، ومن أمثلة الاغتيالات في عهد النبوة؛ اغتيال (كعب بن الأشرف)، و (سلام بن أبي حقيق)، و (أبو عقل)، و (أبو رافع)، و (ابن سنينة).. وجميعهم يهود. و (سفيان بن خالد الهندلي) و (عصماء بنت مروان).. وغيرهم.

ونقف مع أحد هذه الأمثلة، وهي عملية اغتيال رأس الكفر اليهودي: (سلام بن أبي حقيق).. فقد جمعَ عدو الله (ابن أبي حقيق) اليهودَ من حوله، وأخذ يحرّض على المسلمين، وتمادى في التعريض بهم وبأعراضهم، وفي إيذائهم بكل وسيلة ممكنة.. ولذا كان قرار قتله.

١الرحيق المختوم، المباركفوري.

اختار رسول الله ﷺ أمير المجموعة بمواصفات خاصة تجعله قادراً على إنفاذ المهمة بنجاح، فهو (عبد الله بن عتيك)، مجاهد صادق مخلص في دينه، شجاع ومقدام، لا يساوره التردد في أصعب المواقف، ويتقن اللغة العبرية ـ لغة اليهود، وبالتالي يمكنه التعامل معهم والفهم عليهم وإفهامهم إن لزم الأمر. ثم إن أمه بالرضاعة يهودية، مما يوفر له مبرراً كافياً لدخول حصن اليهود، ويوفر له ملجأ في حال اقتضت الحاجة. وترك رسول الله ﷺ لعبد الله أن يختار مجموعته، وذلك كي يختارهم ضمن مواصفاته، فيطمئن إليهم وإلى قدراتهم، ويكونوا على توافق كامل يسهل عليهم إنجاح مهمتهم.

انطلق عبد الله وإخوانه الثلاثة صوب حصن خيبر، حيث يقيم (سلام)، بعد أن جمعوا ما توفر من معلومات عن عدوهم. وكان همهم الأول دخول الحصن، وإيجاد ملجأ آمن بداخله يسمح لهم برصد الهدف عن قرب والقيام بعمليتهم على بصيرة كاملة، فكان اتصال عبد الله بأمّه التي سمحت لهم بالإقامة في بيتها، وبالتالي استطاعوا دخول الحصن بصحبتها، ومن ثم إيجاد ملجأ قضوا فيه مدةَ الاستعداد والرصد ثم الانطلاق. ولما تجمعت لديهم المعلومات اللازمة والكافية لتنفيذ المهمة، والمتوفرة عبر الرصد والمراقبة، وضع المجاهدون خطتهم، وانطلقوا للعمل متوكلين على الله، مستفيدين من قدرات أميرهم، وتحديداً في الحديث باللغة العبرية، حيث كانت مفتاحهم للوصول إلى داخل قصر عدو الله (سلام بن أبي حقيق)، وهناك استطاعوا قتله والانسحاب بأمان، دون أن يُمسَّ أحدُهم بسوء[1].

---

١ نور اليقين.

◆ **السـرايا والبعـوث :**

بعثَ رسولُ الله ﷺ عشرات السرايا والبعوث المجاهدة لتحقيق أهداف عسكرية مدروسة، سواء كانت دفاعية لصد خطر قادم، أو هجومية لتحقيق إنجاز وتقدم.

هذه السرايا عملت على طريقة حرب العصابات في معظمها؛ فقد اعتمدت بشكل أساسي على مبدأ المباغتة والسِّرية. ولذا كان الأمر النبوي لقادتها بأن يسيروا ليلاً ويكمنوا نهاراً، وأن لا يحدّثوا عن وجهتهم. بل إنه استخدم أول رسالة مغلقة لا يعلم بنودَها وفحواها حاملُها، فقد أرسل (عبدَ الله بن جحش) على رأس سرية، ولم يخبره عن وجهته، بل أعطاه رسالة مغلقة، وطلب منه أن لا يفتحها إلا بعد مسير يومين، وأن يقوم بقراءتها على جنده، ومن ثم يخيّره في الاستمرار أو الانسحاب، وبذلك تكون وجهة السّرِيّة مجهولة حتى على جندها.

ناهيك عن أن عدداً من المسلمين لم يكونوا يعلمون بوصول قوات المسلمين إلا في اللحظات الأخيرة، فها هم عشرة آلاف مقاتل يَصِلُون مكة لفتحها، ولا يعلم أهلها بذلك إلا والمسلمون على أبوابها. ويكفي في هذا المجال الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ لم يعلن عن وجهة سريةٍ أو غزوةٍ طوال حياته إلا غزوة تبوك، وذلك لبُعد المكان وقسوة الطريق ومحنة القحط والجوع التي كانت؛ فيستعد المسلمون لها.

* * *

ثانياً: المدرسة الصِّينيّة (الماويّـة):

هي جاريلا ريفية كبيرة، رافقَها أنشطةٌ متعدّدة الأشكال، موجهة لخلقِ وعيٍ سياسيٍّ لدى أفراد الشعب، قادها الحزب الشيوعي الصيني، وكان هدفها السيطرة على الحكم.. فحاربت العدو الخارجي، والاستبداد الداخلي.

بدأت الثورة الصينية بالاحتجاجات الشعبيّة التي قادها الحزب الشيوعي الصيني في العقد الثاني من القرن العشرين، ثم بدأت هذه الاحتجاجات تتنظّم شيئاً فشيئاً، إذ أنشأ الحزب ٢٠ نقابة عمّالية من عمال المناجم وعمال سكك الحديد، ثم دخلت هذه النقابات في إضراب قوي عام ١٩٢٢م، قاده الزعيم الصيني (**ماوتسي تونغ**)، الذي أصبح الأب الروحي للثورة الصينية.

أطلق (ماو) شرارة الثورة في الأرياف، بعكس تعاليم الماركسية، فقد تحرك من (هوتان) حين ترأّس قاعدة أول نواة ثورية، وحرّكَ الاتحادات الفلّاحية لتحقيق هدفه، وأطلق عليها اسم: (**الحرب الأهلية الثورية الأولى**).

بادر (ماو) في سنة (١٩٢٧م) إلى بناء جيش ثوري، بهدف تحرير مناطق يصعب مهاجمتها، وذلك لإقامة قاعدة انطلاق على أرضها، معتمداً في ذلك على عمال المناجم والفلاحين، إضافة إلى بعض الجنود الثائرين الفارّين من قيادة (الكومنتانغ).

بدأ (ماو) بتنظيم (انتفاضة حصاد الخريف) من خلال فرقته الأولى، إلا أنّ محاولته تلك مُـنِيَـت بالفشل، وتكبّدت قواته خسائر فادحة، وأُلقيَ القبض عليه، غير أنه تمكن من الفرار.

لجأ (ماو) إلى الجبال، حيث أنشأ قواعد سوڤياتية، ومناطق حكم تدير كل

الأمور الحياتية والعسكرية، ثم عمد إلى إنشاء (قواعد حمراء) أخرى، فاتسعت رقعة سيطرته.. مما أثار ردّة فعلٍ عنيفة لدى (تشيانغ كاي تسك) الذي حاولت قواته تطويق قوات (ماو) وجيشه، إلا أن (ماو) بادر بالانسحاب بقواته إلى الشمال الغربي، وذلك ما بات يعرف باسم (المسيرة الكبرى) التي استغرقت عاماً كاملاً، عبر فيها ١٠ آلاف كيلو متر، وكانت قوّاته قد بدأت بـ (١٠٠) ألف ثائر، وانتهت بـ (٢٠) ألف ثائر فقط، حتى وصل إقليم (شان سي).

وفي العام (١٩٣٧م) كانت اليابان قد شنت هجوماً على الصين، فتحالف (ماو) مع (تشيانغ كاي) في صدِّ العدوان الياباني، واستمر الحال على ذلك حتى العام ١٩٤٥م، حتى وضعت الحرب أوزارها باستسلام اليابان. وعندئذ تجدّدَ القتال بين الطرفين؛ الشيوعي بقيادة (ماو)، واليميني بقيادة (تشيانغ)، واستمر القتال دائراً بين الطرفين حتى العام ١٩٤٩م، حيث استطاع الشيوعيون الانتصار، والتجأ (تشيانغ) إلى جزيرة تايوان وأقام حكومة الصين الوطنية.

هذا وقد اعتُبِرَ (ماوتسي تونغ)، مفكرَ الثورة الصينية، وواضعَ أُسسِها، حتى سُمِّيت منظومة أفكار الثورة الصينية بـ (الماوية) نسبةً له، ومن الكتب التي وضعها في هذا المجال: «المشكلات الاستراتيجية للحروب الثورية في الصين» و «في الحرب طويلة الأمد»، و «المشكلات الاستراتيجية لحرب الأنصار ضد اليابان». إضافةً إلى عدد آخر من المؤلَّفات التي أصبحت مدرسةً أساسيةً من مدارس حرب العصابات الحديثة[1].

---

١ الموسوعة السياسية، د. عبد الوهاب الكيالي.

◆ **من رؤى (ماو) في حرب العصابات:**

– يرى ماو أن حرب العصابات تتألف من ثلاث مراحل:

١– الانسحاب الاستراتيجي: يكون العدو فيه هو الأقوى، والثورة تشاغله وتضربه رغم ضعفها.

٢– التساوي الاستراتيجي: يضعف العدو ويُستنزف، وتقوى الثورة وتبدأ بالتحول إلى قوات نظامية.

٣– الضربة الاستراتجية: تتغير الثورة لتصبح جيشاً نظامياً وتُنزل بالعدو ضربة قوية لتحقِّق النصر.

ولهذه المراحل أثران:

أ– عسكرياً ومنهجياً: العمليات التكتيكية تأخذ بعداً استراتيجياً، والمراحل تعطي الجاريلا القدرة على زيادة خلق المبادرة والزيادة التدريجية في حجم العمليات.

ب– نفسياً وأيدولوجياً: الجاريلا تبث روح الأمل في نفوس الشعب والمقاتلين، فتُرِيهم الضوء في نهاية النفق، فيفهمون أن الألم والمعاناة والتضحية سيكون لها ثمار ونتائج[١].

ويرى (ماو) أن حرب العصابات تتناسب مع الدول الواسعة كالصين، التي حررت مقاطعة (ينالدا) فأصبحت مركزاً لها.

١الحرب والاستراتيجية، يهوشيفت هركيف.

كما يرى ضرورة الاعتماد على الذات من الناحية اللوجستية، بحيث يكون سلاح الثورة غنيمةً من عدوها، حيث يقول: «معسكر دعمنا في واشنطن، وضابط التوريد الذي ينقله لنا هو تشانغ كاي شك».

وأخيراً، فإن من المبادئ التي أكد عليها (ماو) كذلك، هو أنه لا نجاح للثورة إلا بالاعتماد على الفلاحين.

* * *

ثالثاً: المدرسة الكوبيّـة:

يمكننا اعتبار الثورة الكوبية (جاريلا) ريفيّة صغيرة، ارتبطت بشخصِ قائدِها (**فيدل كاسترو**)، والذي لا زال على رأسها. فقد قام هذا المحامي الشاب بجمع (١٢٠) ثائراً من النّاقمين على حكم (باتستا)، وهاجموا ثكنة (فونكادا) العسكرية، في (١٩٥٣/٧/٢٦م)، إلا أن هذا الهجوم عُدَّ انتحاراً من قِبَله.. حيث كان عدد جنود الثكنة ضخماً، يزيد على (١٠٠٠) جندي، فباء الهجوم بالفشل الذريع، وقُتِلَ معظم المناضلين، وتمَّ أسْرُ مجموعةٍ منهم، على رأسهم كاسترو نفسه، وحكم عليه بالسجن (١٥) عاماً، إلا أنه أُفرج عنه بعد عامين.

وفور خروج كاسترو من السجن، توجه إلى المكسيك، وهناك جمع بعض أنصاره، وأسّسَ معهم حركةَ (٢٦ تموز)، ثم أعد عدّته، ودرّب أتباعه، وعاد بهم على ظهر سفينة (غرانا)، يصحبه (٨١) مناضلاً، أبرزُهم المناضل المعروف (تشي جيفارا).

وقد أطلق الثُّوار الشرارةَ الأولى لثورتهم من جبال (سيرا مايسترا)، تحت شعار

(**سنعيش هذه السنة أحراراً أو نموت شهداء**). وفي نهاية العام كان الفلاحون قد استجابوا للثورة، ثم استجابت جبهات أخرى في جبال (دوليكاميراي) وفي شمال (سانتياغو)... وهكذا اشتعلت البلاد، وهبّت الثورةُ في كامل القطاعات والمناطق.

بدأت الثورة في أيامها القاسية بالزحف إلى الجبال صوب المدن، وشرعت في دخول المدن وفتحها دونما عناد كبير، بدءاً من مدينة (سانتاكلارا) التي فتحها (تشي جيفارا)، وانتهاءً بالعاصمة (هافانا) التي فُتحت على يد(فيدل كاسترو) في مطلع عام (١٩٥٩م).

يُذكر أن تشي جيفارا حاول نقل التجربة إلى (بوليفيا)، فانتقل إليها بصحبة مجموعة من الثوار، إلا أنه فشل في ذلك لعدم قدرته على جمع السكان حوله، فانتهت ثورته بعد (١١) شهراً بمقتله في أكتوبر عام ١٩٦٧[١].

◆ **من سمات الثورة الكوبية:**

- اعتمدت على الشخصانيّة أكثر من العقلانية، فقد طرح كاسترو ورفاقه الثورة والعمل المسلح دون أن يطرحوا أو يناقشوا مسألة طبيعة السلطة القادمة والأيدولوجية التي تتبنّاها، بل إنها لم تتبنَّ الماركسيّة إلا بعد عامين من انطلاقها.
- اعتمدت الثورة على الجبال والأرياف مقراً لها، واعتبرتها التربة الخصبة والمكان الأمثل لها، وليس المدينة والتجمعات السكنية الضخمة، وهناك

١ الموسوعة السياسية، د. عبد الوهاب الكيالي.

كوّنت القواعد المتحركة التي تعمل على نشر الأفكار وتوجيه المقاتلين الذين ينتشرون بين السكان.

- اعتمدت الثورة على تنفيذ عمليات تشكل الدعاية المسلحة التي تُعرض أمام العامة كأداةِ تَسيِيسٍ تخلق أجواءً وظروفاً سياسيةً وإعلامية، وتحشد الأنصار والثوار، فكان الفلاحون البُسطاء أكثر تأثراً بالبطولات والأعمال من الأفكار والأقوال.
- لم تعتمد على وجود مراحل محددة وواضحة لانتصارها.
- يعتبر البعض أنها لا تقيم وزناً حقيقيّاً لمشقّات الثورة، فهي ضربٌ من المغامرة غير المحسوبة، والتي تقود أصحابها إلى النهاية المأساوية، كما حدث مع تجربة ٢٦ تموز.
- نادى (كاسترو) بإمكانية بدء الثورة في كل زمان ومكان بمجرد وجود ثوريّين مستعدّين للقتال، سمّاهم هو باسم (بؤرة الثورة)، ودون الحاجة لانتظار ظروف ثوريّة مواتية.

رابعاً: الثورة الفيتنامية (المدرسة الفيتنامية):

بدأت الثورة الفيتنامية كثورة شعبية في العام (١٩٥٦م)، وبدأت الثورة تتصاعد حتى بلغت ذروتها في العام (١٩٦٠م) بتأسيس (جبهة التحرير الوطنية ـ فيت كنغ) وزعيمها (هوشي من).

في العام (١٩٦٣م) عملت أمريكا على إسقاط نظام (نغودين يام)، ووضعت قوتها في الميزان، ثم تبع ذلك سلسلة انقلابات عسكرية زعزعت

كيان الدولة، فوجدت أمريكا نفسَها مضطرةً لدخول حرب حقيقية، تدفع فيها قواتها وترمي بثقلها، نظراً للدعم الكبير الذي قدمته جمهورية فيتنام الديمقراطية الشمالية لثوار (ألفيت كنغ).

وامتد مسرح العمليات ليشمل كامل (الهند الصينية)، وكانت الأسلحة والمؤن والعتاد والجنود ومختلف أشكال الدعم اللوجيستي تدخل فيتنام عبر طريق (اللاوحس). كما كانت تتواجد في كمبوديا بموافقة أميرها في مخيمات ومعسكرات ومستشفيات ومدارس ثورية تابعة لـ (ألفيت كنغ)، وفي العام (١٩٦٨م) قامت الجبهة بهجمات شاملة، سُمّيت (هجوم التيت)، أذهلت العالم بأسره.. وعُـدَّ هذا العام عامَ المنعطف التاريخي في حرب فيتنام، حيث وافقت أمريكا التي تملك قوةً تصلُ إلى نصف مليون جندي بعدتهم وعتادهم على إجراء مفاوضات سلام في باريس، إلا أن الحربَ بَقِيت مشتعلةً طوال مدة المفاوضات التي استمرت طويلاً تحت وطأة الهجمات التي لم تهدأ.

وفي العام ١٩٧٠م أعلن الرئيس الأمريكي (نكسون) عن انسحاب شكلي من إدارة الحرب في فيتنام، مع سحب جزء من القوات العسكرية المتواجدة هناك، إلا أنّ ذلك لم يُوقف الاستعمار، وبقيت الحرب في اشتعالها. حتى كان العام ١٩٧٢م، حيث حدث هجوم الربيع الكبير، والذي ساهم في ترجيح الكفة لصالح (ألفيت كنغ).. وفي مطلع عام ١٩٧٣م، وبعد مفاوضات شاقة، وُقِّعت معاهدة باريس بين أطرافها: الولايات المتحدة الأمريكية، وجمهورية فيتنام الديمقراطية، وجمهورية فيتنام (سايفون)، والحكومة الثورية المؤقتة لجمهورية فيتنام الجنوبية.

ولكن بسبب الصعوبات وتباطؤ أمريكا في سحب مستشاريها، قامت

الحكومة الثورية المؤقتة بهجوم عسكري كبير وواسع النطاق على طول الحدود الكمبودية الفيتنامية في نهاية عام ١٩٧٤م، ولم يأت شهر نيسان من العام (١٩٧٥م) حتى وقعت المدن الرئيسية في فيتنام بيد الثوار، وكان الحدث الأهم سقوط العاصمة سايغون بيد الثوار، فغيّروا اسمها إلى (هوشي من)[1].

* * *

خامساً: حرب التحرير الجزائرية (ثورة المليون شهيد):

كانت ثورةً عظيمةً في وجه الاستعمار الفرنسي الاستيطاني، قام بها الشعبُ الجزائريُّ بقيادة جبهة التحرير الوطني، واستطاعت انتزاع استقلال الجزائر بعد استعمار دام (١٣٠) عاماً.

انطلقت شرارة الثورة في ١٩٥٤/١١/٣٠م، والذي يصادف عيد القوميِّين القدِّيسين عند الأوروبيين، حيث بدأت بمجموعات مسلحة صغيرة، تملك بعض الأسلحة البدائية، ثم أعلنت عبر بيانٍ للشعب الجزائري عن هدفها، ودعت أبناء الشعب للانضمام إليها.

وقد دخلت الثورة الجزائرية أربع مراحل حتى وصلت إلى التحرير:

◆ **المرحلة الأولى**: وكانت عبر البداية التي قدّمنا لها، تخلّلها عقدُ المؤتمر الأول لجبهة التحرير الوطني في منتصف عام ١٩٥٦م، الذي عُرِفَ باسم (مؤتمر الصومام)، والذي عُقِدَ في إحدى وديان الجزائر النائية، وأسفر عن إقرار الميثاق التاريخي للجبهة، وإنشاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية، ولجنة

---

١ الموسوعة السياسية، د. عبد الوهاب الكيالي.

التنسيق والتنفيذ المكونة من خمسة أعضاء يمارسون السلطة التنفيذية للثورة. وفيه تمَّ تقسيم الجزائر إلى خمس مناطق عسكرية، تولّى كل منطقة منها عقيد في الجبهة، وقرر المؤتمر تصعيد الكفاح المسلح. وقد أصبح (٢٠ آب) بعد الاستقلال: (اليومَ الوطنيَّ للمجاهد).

◆ **المرحلة الثانية (١٩٥٦ـ١٩٥٨م)**: شهدت هذه المرحلة ارتفاعاً في حِدّة الهجوم الفرنسي المضاد للثورة في محاولة للقضاء عليها، إلا أن الثورة ازدادت اشتعالاً خلال هذه المدة، وبدأت معركة الجزائر العاصمة، واستمرت قرابة عام، أعلنت خلالها الجبهةُ الإضرابَ العام في كافة أنحاء الجزائر ثمانيةَ أيام، كما حصل خلال هذه الفترة أطول إضراب طلابي دعا إليه الاتحادُ العام للطلبة المسلمين الجزائريِّين، واستمر حتى الاستقلال. كما بنت الحكومة الفرنسية خلالها خط (مورس) المكهرب بين الجزائر وتونس، وخط (شال) بين الجزائر والمغرب.

◆ **المرحلة الثالثة (١٩٥٨ـ ١٩٦٠م)**: وهي من أصعب المراحل التي مرت بها الثورة، إذ نفَّذَ الجيش الفرنسي عمليات عسكرية هجومية شرسة، مثل (كودرن)، (إيتانسيل)، (الأحجار الكريمة)، كما أُقيمت العديد من معسكرات الاعتقال في الجزائر.

وفي المقابل، اعتمد جيش التحرير فتحَ جبهات متعددة، وحاول قطع خطوط إمداد الجيش الفرنسي، وقد أعلن الثوار في هذه المرحلة عن حكومة مؤقتة برئاسة (فرحات عباس).

كما أعلن (ديغول) خلال ذلك عن اعتراف فرنسا بحق الجزائر في تقرير مصيرها، وكان التفاوض وقتها يتمُّ بين الحكومة الفرنسية والحكومة الجزائرية المؤقتة.

◆ **المرحلة الرابعة (١٩٦٠ ـ ١٩٦٢م)**: وهي التي شكّلت المرحلةَ الحاسمةَ في حرب التحرير وتقرير المصير، حيث حاولت فرنسا خلالها حسم الأمور بالحل العسكري، إلا أنها فشلت مرةً تلوَ مرة، إلى أن وصلت إلى قناعة تامة بأن التفاوض هو الحل الوحيد والكفيل بإنهاء الصراع، ما أجبرها على الدخول في مرحلة تفاوضية ساخنة مع الحكومة المؤقتة، طرحت خلالها حلولاً مؤقتة وجزئية؛ حاولت من خلالها اقتطاع أجزاء من الجزائر، أو أن تأخذ حقوقاً وامتيازات ما، إلا أن الجبهة رفضت ذلك بشكل قاطع.

وفي تلك الأثناء، تشكّلت أول هيئة أركان للجيش الجزائري الذي بدأ يأخذ الشكل النظامي، وأصبح العقيد (هواري بومدين) أول رئيس أركان للجيش.

وفعلاً، توقّف القتال في ١٩/٣/١٩٦٢م. وكان الأول من تموز يومَ استفتاء شعبي، فصوّتَ الشعبُ الجزائريُّ لصالح الاستقلال، وكان انسحاب الجيش الفرنسي في ٥/١١/١٩٦٢م، وهو ذات التاريخ الذي دخلت فيه فرنسا الجزائر قبل (١٣٠) عاماً.

نعم! لقد خرج الجيش الفرنسي بعد أنْ قدَّمَ الشعب الجزائري قرابة ١,٥ مليون شهيد، وبعد أن نظَّمَ ثورات عديدة سبقت ثورة الاستقلال، وتعرّض لمجازر بشعة دموية، أكثرها بشاعةً وفظاعةً كانت في (٨/٥/١٩٤٥م) أثناء مسيرة شعبية رافضة للاستعمار، قُتل فيها على يد الجيش الفرنسي أكثر من ٤٥ ألف شهيد في يوم واحد، إضافة إلى مئة جندي فرنسي[١].

* * *

١ الموسوعة السياسية، د. عبد الوهاب الكيالي.

سادساً: التجربة الفلسطينية:

عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وانتصار الحلفاء على دول المحور، تمَّ تقسيم البلاد العربية حسب اتفاق (سايكس بيكو)، فكانت فلسطين من نصيب بريطانيا، ودخلت حالة استعمار تحت مسمى الانتداب.

أحسَّ الشعب الفلسطيني أن المهاجرين اليهود بدؤوا مشروع استيلاء على الأرض، خصوصاً بعد صدور (وعد بلفور) المشؤوم، الذي قدّمت فيه بريطانيا تعهداً بإقامة (وطن قومي) لليهود في فلسطين، فبدأ الشعب عمليات احتجاج ورفض للهجرة والوجود اليهودي في فلسطين، وتمَّ تقديم شكوى للباب العالي ثم إلى المندوب السامي، إلا أن ذلك لم يضع حداً للهجرة اليهودية أو الممارسات الاستعمارية المتمثلة باغتصاب الأرض وبناء المستوطنات والإفساد والتحرش بالسكان.. لتبدأ بعدها الهبّات الشعبية العفوية، كثورة (النبي موسى)، و(ثورة يافا) و(ثورة البراق)، والتي جاءت بغالبها كردّات فعل غير منسقة على الممارسات البريطانية واليهودية.

وقد تخلّل ذلك تشكيل جمعيات إسلامية ومسيحية ووطنية تهدف إلى الاستقلال، وطرد الاستعمار البريطاني، ومواجهة الزحف اليهودي (الكولونيالي).. وعُقد خلال ذلك سبعة مؤتمرات وطنية وإسلامية، دعت الشعبَ إلى عدم بيع أي قطعة أرض لليهود، ورفض (وعد بلفور)، كما دعت الشعب إلى مواجهة الاحتلال بكل السبل، وتشكلت أحزاب فلسطينية كحزب (الاستقلال)، و(الدفاع الوطني)، و(مؤتمر الشباب)، و(حزب الإصلاح)، و(الحزب الشيوعي الفلسطيني)، و(الإخوان المسلمون)، وغيرهم...

وفي العام (١٩٣٦م) دخلت البلاد حالة إضراب وعصيان استمر ستة أشهر، كان له أثر كبير في تحريك الشارع وتحشيده، وبُعيدَ انتهائه دخلت الجماهير ثورة (١٩٣٦) الشهيرة، والتي استمرت ثلاث سنوات، خاضت خلالها المقاومة الفلسطينية حرب عصابات شرسة، وقدمت التضحيات والجراحات، وأثخنت في عدوها، إلا أن الخيانة العربية حالت دون نجاحها[١].

دخلت فلسطين الحرب عام (١٩٤٨م)، وتقدمت الجيوش العربية ـ شكلياً ـ نحو فلسطين، واشتبكت مع القوات الصهيونية في عدة مواقع، وتقدمت كتائب المتطوعين من الإخوان المسلمين وغيرهم، فقاتلوا ببسالة وضراوة، وأبلوا بلاءً حسناً، واستخدموا فنون حرب العصابات بنجاح، إلا أن الخيانة العربية أطلّت من جديد؛ حيث انسحبت الجيوش العربية من أرض المعركة، واعتقلت المتطوعين، وزجّت بهم في السجون[٢]، فسقط (٧٨٪) من الأراضي الفلسطينية بيد الاحتلال الإسرائيلي، والذي أعلن قيام دولته في ١٥/٥/١٩٤٨م.

عاش الشعب الفلسطيني بعدها حالةً من الضياع والتشريد، ولم يجد من الدول العربية الاهتمام الكافي بقضيته، وفكّر العرب بتشكيل جسم يمثل الشعب الفلسطيني فيلقون على كاهله مسؤولية القضية، فكان تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية عام (١٩٦٤) برئاسة (أحمد الشقيري)، وتشكلت حركة فتح التي قادت المقاومة في ذلك الحين، تبعها تأسيس الجبهتين الشعبية والديمقراطية، وأحزاب أخرى، شكلّت بمجموعها منظومة المقاومة الفلسطينية المسلحة في ذلك الحين، ونفذت مئات العمليات العسكرية من داخل الأراضي المحتلة،

---

١ تاريخ القضية الفلسطينية.
٢ الحقيقة الغائبة.

ومن الأردن ولبنان ومصر، خصوصاً بعد العام (١٩٦٧م)، حيث أصبحت فلسطينُ محتلةً كلُّها.

وقد استمرت العمليات العسكرية منذ منتصف الستينات وطوال عقد السبعينات ومطلع الثمانينات من القرن الماضي، حيث بدأ التيار الإسلامي بالانخراط في العمل العسكري والجهادي، بدءاً من معسكرات الشيوخ في الأردن.. وظهرت مجموعات نفذت العديد من العمليات، تخلل ذلك ثورات شعبية صغيرة، كثورة المساجد، ثم تُـوِّجت هذه الحركات الشعبية وحالة الغليان العام بالانتفاضة الكبرى في (١٩٨٧/١٢/٨م)، والتي بدأت بثورة شعبية جماهيرية، وتطورت إلى عدة مراحل، بدءاً بثورة السكاكين، مروراً بالعمل العسكري الناري، وصولاً إلى العمل التفجيري.

بعد ذلك، دخلت المنظمة مرحلة (أوسلو) التفاوضية، والتي خاضت حركة فتح من خلالها عملية تفاوضية طويلة، تمخضت عن اتفاق هزيل، استرجعت فيه جزئيات من الأرض، واعترفت بحق (إسرائيل) بباقي الأراضي الفلسطينية، وبذلك تنازل من لا يملك، لمن لا يستحق.

لكنّ المقاومة بقيت مستمرة بوتيرة معتدلة، قادتْها حركة حماس، التي أصبحت كبرى الحركات الوطنية المقاوِمة، إلى أن اندلعت انتفاضة الأقصى في العام (٢٠٠٠م)، والتي تُعدُّ أعنف الثورات الفلسطينية، وأكثرها عسكريةً، واستمرت لسنواتٍ قدّم خلالها الشعب الفلسطيني آلاف الشهداء، إضافة إلى عشرات الآلاف من الجرحى والأسرى والبيوت المهدَّمة، وأصابت من العدو أكثر من ألف قتيل، عدا عن عدد كبير من الإصابات والأضرار التي تكبّدها العدو، ما دفع الاحتلال الصهيوني للانسحاب من قطاع غزة.

ولقد استطاعت المقاومة تطوير أدائها، ورفع كفاءة مقاوميها، فبالإضافة إلى عمليات إطلاق النار وعمليات التفجير التقليدية التي تميزت بقوتها وشراستها؛ استطاعت المقاومة إنتاج سلاح صاروخي فلسطيني، عُرف باسم (صاروخ القسّام)، والذي دبَّ الرعب في قلب الكيان الصهيوني بكافة قطاعاته.

كذلك فقد ابتكرت المقاومة ما عُرف باسم (حرب الأنفاق)، التي امتاز بها قطاع غزة، وغير ذلك من الأساليب التي أظهرتها بقوة غير معهودة سابقاً، وقد شكّل (قطاع غزة) بعد الانسحاب الصهيوني منه قاعدةً ثوريةً أنتجت قوةً ثوريةً منظَّمة، استطاعت تصنيع السلاح، وإعداد الرجال، وتوجيه الضربات المؤلمة إلى عدوها، فكانت قفزةً نوعيةً في العمل الفلسطيني المقاوم.

مقارنة:

ولاستفادةٍ أعمق من تجارب ومدارس العالم في حروب العصابات؛ نجري هذه المقارنةَ بينها وبين الحالة الفلسطينية:

وجه المقارنة	الثورة الصينية	الثورة الكوبية	الثورة الفيتنامية
ـ مساحة الأرض وقاعدة الانطلاق:	ـ المساحة شاسعة، وقاعدة الانطلاق من مقاطعة داخل الأرض.	ـ المساحة صغيرة، والعمل من الأرياف والأحراش دون وجود مكان محدد.	ـ قاعدة الانطلاق من دولة مجاورة هي فيتنام الشمالية.
ـ تعدّد المراحل:	ـ لها مراحل محددة.	ـ ليست لها مراحل (عشوائية)	ـ ليس لها مراحل.
ـ رجالها:	ـ اعتمدت على مقاتلي الشعب.	ـ اعتمدت على مقاتلي الشعب.	ـ (نظام مختلط): تعتمد على المقاتلين وجيش الدولة.
ـ التسليح:	ـ الاعتماد على الذات في التسليح.	ـ الاعتماد على الذات في التسليح.	ـ الاعتماد على الخارج في التسليح.
ـ طبيعتها:	ـ احتاجت إلى نفس طويل.	ـ خاطفة وسريعة وسهلة.	ـ صعبة وقاسية.
ـ موجِّه الثورة:	ـ الحزب هو الموجِّه «صانع الثورة».	ـ البؤرة الثورية هي الموجه دون وجود حزب.	ـ الحزب هو الموجه.

وبالنظر إلى ما أسلفنا من تجارب لحروب العصابات العالمية، وتحديداً المدارس الثلاثة الأبرز: (الصينية، والكوبية، والفيتنامية)، يمكننا القول بأن النموذج الفلسطيني لحرب العصابات يختلف بشكل كبير عنها، مع وجود بعض أوجه التشابه المحدودة. فهو نموذج خليط بين هذه النماذج، كما أنه يتميز بوجود ظروف خاصة غير موجودة ولا متكررة في أي نموذج عالمي آخر:

- فالتجربة الصينية اعتمدت بشكل أساس على سعة الرقعة الجغرافية التي تمتاز بها الصين، مما مكّن الثورة هناك من الابتعاد عن مركز قوة النظام، وإقامة معسكرات تدريب وإعداد، وتشكيل جبهة خلفية داعمة لصفوف المقاومة المتقدمة، وكان ذلك في مقاطعة (نيان).. بل إن الثورة بقيادة (ماو) عندما تعرضت لهزيمة نكراء في بادئ الأمر؛ فرَّ (ماو) ومعه جيش قوامه عشرات الألوف من المقاومين، وقاموا بالانسحاب الذي عُرف باسم (الهروب الكبير)، مسافةً تصل إلى عشرة آلاف كيلو متر مبتعداً عن خصمه.

وهذا لا يطابق التجربة الفلسطينية بحال، والتي لا تشكل الأرض فيها مساحة جزئية من مقاطعة (نيان)، فنحن والاحتلال نعيش بأرض متلاصقة لا يكاد يفصل بينها فاصل.

وبالتالي فالأرض كلها تحت عين الاحتلال ويده، خصوصاً مع التقدم العلمي الذي لم يكن في ذلك الحين، وحتى قطاع غزة الذي تحرر من الاحتلال، غير أنه بقي في مرمى النيران الإسرائيلية، وتحت سمع وبصر أجهزته الإلكترونية وطائراته الاستطلاعية التي لا تفارق سماءه.

– والتجربة الكوبية واجهت عدواً ضعيفاً (باتستا) وحكومته الهشة، فانطلق (فيديل كاسترو) ومعه (٨١) مناضلاً من رفاقه، بدؤوا الثورة وأشعلوا أوارها، ثم قادوها وانتصروا بها في مدة لا تتجاوز العامَين، لم يحتاجوا خلالها إلى عمل الكثير من داخل المدن، بل اكتفوا بالتحرك في الجبال والعمل من خلالها، وتوجيه بعض المقاومين هنا وهناك.. ولم يشترك في كبرى المعارك الحاسمة إلا (٢٢٠) مقاتلاً، بل إن الحكومة الأمريكية التي كانت بمثابة الداعم والمساند لحكومة (باتستا) لم تقدم المعونة اللازمة وتخلّت عنه مع أول محنة تعرّض لها.

وهذا ما لا يشبه عدوَّنا بحال، فنحن نواجه أعتى قوى الشر على وجه الأرض، دولةٌ قائمة، يترتّب مصيرُها ووجودُها على نتيجة هذه الحرب، وليس لها أرضٌ بديلة تعود إليها، وما من خيار أمامها إلا القتال حتى آخر رمق، هذه القوة المتمثّلة بالاحتلال الإسرائيلي، واجهتها المقاومة الفلسطينية منذ ستّين عاماً، إلا أنها لم تكل ولم تمل، ولم تتورع خلالها عن ارتكاب المجازر بحق الشعب الفلسطيني الصابر، بل إن مواجهة الشعب الفلسطيني لم تقتصر على الاحتلال الإسرائيلي وحده، بل إن شعبنا يواجه - وإن بصورة غير مباشرة - رأس الكفر والإفساد في الأرض (أمريكا)، التي تقف مع الاحتلال قلباً وقالباً، وتدعمه بالمال والسلاح، وتناصره بالموقف السياسي والإعلامي، وتغطي عليه جرائمه وممارساته، فهي لم تتخلَّ عنه يوماً، ولم تتوانَ عن إخراجه من مأزقه المرةَ تلو الأخرى.

– وعملت الثورة الفيتنامية من خلال دولة مجاورة، هي (فيتنام الشمالية)، فانطلقت من أرضها، بل إن الجيش الفيتنامي الشمالي نفسه شارك بقواته في

الحرب إلى جانب قوات الثورة (ألفيت كونغ). فكانت الحرب في الكثير من الأحيان حرباً نظامية، تدعمها حرب عصابات من الداخل، استُخدمت فيها الأسلحة الثقيلة والمواجهات الشرسة الواسعة، بالإضافة إلى (القرصات) الصغيرة هنا وهناك.. وقد ذكرنا أن هجوم (تت) الشهير سقط فيه من الثوار والجيش الفيتنامي الشمالي حوالي (٢٣ألف) مقاتل، ومن الجيش الأمريكي والفيتنامي الجنوبي ثلاثة آلاف جندي، فكم سيكون حجم القوات المشاركة في ذلك الهجوم؟ وما هي الأسلحة المستخدمة فيه من كلا الطرفين؟!

ثم أين شعبنا الفلسطيني من ذلك، ففي الوقت الذي حاول فيه الشعب الفلسطيني العمل من خارج أرضه تعرض للمؤامرات، فقد أنهى النظام الأردني الوجود الفلسطيني المسلح من الأرض الأردنية التي تشكل الامتداد الطبيعي لفلسطين وصاحبة أطول حدود معها، متذرعاً بالأخطاء التي وقعت فيها فصائل المقاومة الفلسطينية، وتم طردها بعد حرب دامية قُتل فيها الآلاف من الطرفين، هي حرب (أيلول).

ثم انتهى الوجود الفلسطيني في لبنان بعد حصار بيروت عام (١٩٨٢م)، ولم يقف أي جيش عربي مع المقاومة الفلسطينية ليقاتل معها أو يحتضنها لتشكل أرضه نقطة انطلاق لها، ولم تلقَ المقاومةُ من هذه الجيوش سوى المؤامرات والخذلان.

إضافة إلى ما سبق فإن المقاومة الفلسطينية اختلفت عن باقي الثورات والمقاومات بضعف الإمكانات العسكرية، وقلة السلاح المستخدم، ففي الوقت الذي لم تتمكن فيه المقاومة الفلسطينية من توفير أكثر من السلاح الشخصي الخفيف كالمسدس والعبوة والرشاش، كانت الثورات الأخرى تتمتع بترسانة

ضخمة من السلاح والعتاد والذخيرة، وبنوعيات متطوّرة نسبياً؛ كالثورة الصينية والفيتنامية والأفغانية.

– كذلك شكل التطور العلمي والتقني والتكنولوجي الذي تواجهه المقاومة الفلسطينية وتتمتع به الدولة العبرية يُعدُّ عقبة كأداء في وجه نجاح العمل المقاوم، وخصوصاً أجهزة الرصد والاستطلاع والمراقبة التي جعلت المقاومة غير قادرة على اتخاذ مواقع تمركز مخفية عن عيون عدوها، وكذا تطور السلاح الهجومي الذي يمتلكه الاحتلال؛ حيث أصبح أكثر فتكاً بالمقاومة ومقاتليها، وقد عبَّر (إنجلز)، أحد مفكري حرب العصابات، عن هذه الفكرة بقوله: «بسبب التطور العلمي والتكنولوجي؛ تضاءلت فرص نجاح المقاومة بصورةِ فيالق»، أي أن ظهور قوات منظمة مقاتلة يعني الإجهاز عليها وإبادتها.

– ملاحظة أخرى ذكرناها عرَضاً بين السطور، وهي الفرق في (الميزان الحيوي) بين التجربة الفلسطينية والثورات الأخرى، والتي ترجح لصالح تلك الثورات بشكل كبير. والميزان الحيوي يعني الدافعية إلى القتال والصمود ومقارنته بين المقاومة وعدوها، فعلى الرغم من أن الميزان الحيوي يميل لصالح المقاومة الفلسطينية في وجه الاحتلال الإسرائيلي، إلا أن هذا الاحتلال بما يمثله من كولونيالية إحلالية يملك الرغبة والحرص والحاجة لأن يحافظ على كيانه، لأنه لا يملك خطوطاً خلفية ينسحب إليها كما انسحبت أمريكا إلى ولاياتها من فيتنام، وكما تراجعت روسيا من أفغانستان إلى اتّحادها، وكذلك تركت فرنسا أرض الجزائر وعادت إلى بلدها...

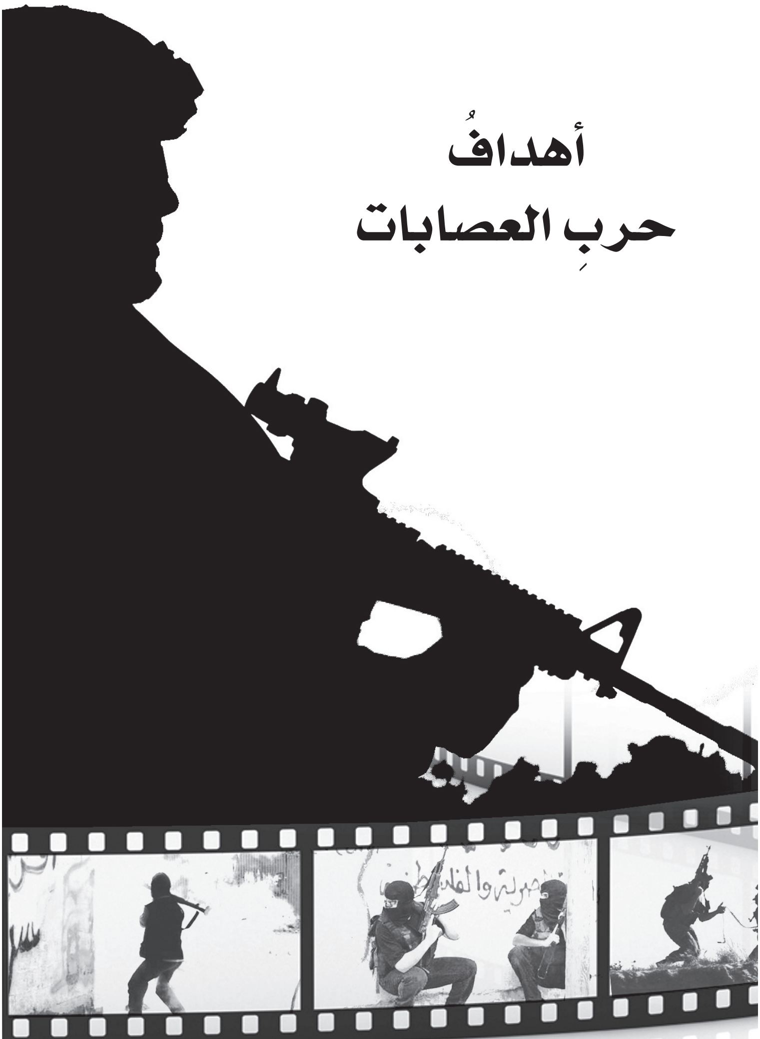
لقد انسحب الجيش الإسرائيلي من أرض سيناء ومن جنوب لبنان إلى الأرض التي يدعي أنها أرضه، ثم انسحب جزئياً من الضفة الغربية وقطاع غزة إلى

مربعه الأخير، و لم يعد يملك الكثير من الخيارات، ولذا فإن صراعه الآن صراع وجود، ونحن على ثقة بأنه سيزول بإذن الله.

هذه الفروق وغيرها تشكل الاختلاف بين التجربة الفلسطينية وغيرها من التجارب والثورات، ولكن بلا شكّ فإن هناك سمات وميزات كثيرة تمثل قواسم مشتركة بين جميع الثورات وبين الثورة الفلسطينية.

* * *

أهدافُ
حربِ العصابات



أهداف حرب العصابات (الجاريلا)

تَشرع الشعوب في حرب العصابات عندما تُسلب حقوقها، وتُنتهك أرضها، وتنعدم السبُل السلميّة في استرجاعها، فتنتقل من العمل السِّلمي والسياسيّ البحت، إلى استخدام القوة المتوفّرة[1]. وتكون قوة الشعب غير متكافئة مع عدوها؛ فتبحث عن وسيلة تتجاوز فيها البَون الشاسع بين القوّتين، فتلجأ إلى (الجاريلا)، التي تقود الشعوب المقهورة إلى تفوّق تكتيكي في وجه تفوّق الخصم الاستراتيجي.

والمتتبّع للتاريخ يجد أن الشعوب التي لجأت إلى هذا الأسلوب، عادةً ما تكون شعوباً محتلةً سُلبت أرضها، أو عِرقياتٌ مضطهدةٌ مهضومٌ حقُّها، أو أقاليم صغيرة تبحث عن الاستقلال أو الانفصال... وإنّ هذه الشعوب ممثَّلة بمقاومتها وقادتها تسعى إلى أهداف عامة تحققها عبر أعمالها العسكرية التي تنفذها ضد عدوها، ونجمل هذه الأهداف بالآتي:

- **استنزاف العدو اقتصادياً وإرهاقه مادياً**، سواء كان ذلك بضرب منشآته الاقتصادية، أو زعزعة موارده السياحية، أو تكبيده الخسائر المادية، أو جعله مضطراً لإنفاق مبالغ طائلة في مساعيه لحفظ أمنه والقضاء على المقاومة.

لقد كان الاقتصاد الصهيوني مرهوناً بارتفاع وانخفاض وتيرة العمل المقاوم،

١ يقول كلاوفيتر: «إن حرب العصابات استمرارٌ للسّياسة بواسطة صراع مسلَّح». من كتاب (حرب المستضعفين)، روبرت تابر.

وقد اعترف المحتلُّ الإسرائيليُّ بأن اقتصاده وصل إلى أدنى مستوى له منذ عَقدٍ، وذلك في العام(٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣م)، وذلك عندما كانت المقاومة تنال منه ومن مدنه ومغتصباته ومنشآته، فقد بلغت نسبة نمو اقتصاده في العام (١٩٩٩م)، أي قبل انتفاضة الأقصى بعام، نسبة (٨٪)، وهي من أكثر النسب ارتفاعاً في العالم، أما في العام (٢٠٠٣م)، فقد بلغت نسبة التضخّم (٧,٥٪)، أي بتراجع مقداره (١٥,٥٪) عن سنواته السابقة[١].

وقد تأثر الاقتصاد الإسرائيلي على محاور عدة:

- فقد كلّفته الأنشطة العسكرية لجيشه موازنات ضخمة، وصلت إلى بضعة ملايين من الشواكل يومياً، وخصوصاً بعد استدعاء آلاف الجنود الاحتياطيّين، إضافة إلى ما يلزمه من سلاح وعتاد ومصاريف.
- الأضرار المادية الضخمة التي تكبدها الاحتلال جراء الهجمات العسكرية الاستشهادية والتفجيرية والنارية والصاروخية التي نظمتها المقاومة ضد مُدُن الاحتلال وقطعان مستوطنيه، إضافة إلى عمليات الاستنزاف الاقتصادي المختلفة.

فقد أعلنت قناة إسرائيل الثانية بتاريخ ٢٢/٢/٢٠٠٥م أن سيارة تُسرق كل (١٧) دقيقة، أي بمعدل (٣٠) ألف سيارة سنوياً[٢]، ويمكننا أن نتخيل كم سيكون مجموع خسائره إذا ما قيس بمثل هذا البند.

---

١ صحيفة (يديعوت أحرنوت)، العدد الصادر في ٢٣/٢/٢٠٠٧م: «تحصل إسرائيل على مساعدات سنوية من أمريكا بقيمةٍ (٢,٤) مليار دولار، لكنها قبل أربع سنوات بسبب الانتفاضة وموجة الأعمال الإرهابية طلبت من أمريكا قرضاً بقيمة (٩) مليار دولار، إضافة إلى مليار واحد غير مسترد».
٢ قناة إسرائيل الثانية، في ٢٢/٢/٢٠٠٥م.

– الخسائر في قطاع السياحة، وفي هجرة الاستثمارات، فضلاً عن إحجام العديد من رجال الأعمال الذين كانوا يستثمرون أموالهم في الأراضي المحتلة في مشاريع اقتصادية عن ذلك، وتلك الأموال كانت تصب في النهاية في جيب الاحتلال.

لقد كانت وزارة السياحة الصهيونية تدرّ على خزينة الدولة مبالغ طائلة، ومع اشتداد حدّة الانتفاضة تحول الفائض إلى عجز حاد، حتى باتت تتلقّى دعماً سنوياً بلغ مئة مليون دولار. وقد أخبرني الإخوة منفّذو عملية «سبارو» في القدس؛ أنهم زرعوا عبوةً صغيرةً على شكل «علبة بيرة» في سوبر ماركت يهودي في القدس، وبعد أنفجارها الذي لم يصب أحداً، أعلن تلفاز العدوّ أن التسوّق في القدس انخفض في الأيام الأولى التي تلت العملية إلى النصف، قبل أن يتعافى من جديد.

إضافةً إلى ذلك، فهناك أشكال عديدة أخرى من الاستنزاف الاقتصادي الذي تسبّبت به المقاومة الفلسطينية، وفي التجربة العراقية مثال آخر غاية في الوضوح، فقد تكلّف الجيش الأمريكي في ملاحقته للمقاومة التي أثخنت فيه أموالاً طائلةً جعلت كُلفة الاحتلال فوق الطاقة.

◆ **استنزاف العدو سياسياً، وكشف الوجه الحقيقي للاستعمار وتعريته أمام العالم:** ففي الوقت الذي يقوم فيه الثوار بضرب العدو والإثخان به، فإنه سيردّ على ذلك بوحشية وهمجية؛ فيرتكب المجازر، وينتهك الحقوق، ويقترف المحرمات، وبهذا يضع نفسه في المكان الحقيقي الذي يقفه، ويكشف القناع المزيّف الذي يلبسه مدعياً الديمقراطية والعدالة.

ولقد استطاعت المقاومة العراقية أن تمارس مع الجيش الأمريكي هذا الدور، فكلما نجحت المقاومة في ضرب خطوط الجيش ووحداته، كانت طائراته وقواته ترد بقوة ضد المدنيين الآمنين، فتقتل النساء والأطفال، وتفتح السجون لتزج بعشرات الألوف من الأبرياء بها، ثم تبدأ فضائحها بالظهور على وسائل الإعلام، كفضيحة سجن (أبو غريب) و(غوانتانامو) وغيرهما...

وما أحدثته الثورة الفلسطينية ومقاومتها لا يقل عن ذلك، وإن حدَثاً مثل بناء جدار العزل الصهيوني، والذي جاء ردّاً على عمليات المقاومة الجريئة التي هزت قلب الاحتلال، جعلت العالم يتنادى في محكمة (لاهاي) ليخرج بقرار تاريخي يرفض هذا السور، ويحرك عشرات المظاهرات في العالم الغربي المناهِضة للدولة العبرية، والداعية إلى المقاطعة، رغم أن هذا القرار بقي بعيداً عن التنفيذ، إلا أنه يُعَدّ جولة سياسية وإعلامية رابحة للقضية الفلسطينية.

◆ **سلب العدو أمنه، وجعله يعيش حالة من التوتر والقلق والاضطراب واللّااستقرار الدائم**، وهذا ما يفقده صوابه، ويحدّ من تقدمه وازدهاره، ويجعله مشغول التفكير بكيفية حماية نفسه، واتقاء الضربات الموجهة إليه. كما أن ذلك يُشعر كل عنصر في كيان العدو بأنه مستهدف ومعرَّض للقتل، ومهدد بالملاحقة، مما يجعله يفكر بالبحث عن أمنه خارج الأرض المحتلة؛ وهذا ما خلق ظاهرة الهجرة العكسية من أرض فلسطين، وقد تناسب الرسم البياني لهجرة اليهود إلى فلسطين تناسباً عكسياً مع ارتفاع وتيرة الأحداث والمواجهات، كما تناسب الرسم البياني لهجرتهم المعاكسة (إلى خارج أرض فلسطين) طردياً مع حِدّة الأحداث[١]. بل إن الهجرة الداخلية ظهرت لأول مرة في الكيان الصهيوني مع

---

١ «٢٠ ألف يهودي يتركون البلاد سنوياً، وهو أكثر من الهجرة إلى البلاد في هذا العام بـ (٥٠٠٠) شخص». يديعوت أحرنوت، العدد الصادر في ٢٠/٤/٢٠٠٧م.

تعرض الشمال الفلسطيني لصواريخ الكتيوشا اللبنانية، ثم مع تعرّض الجنوب لصواريخ القسام الفلسطينية.

وقد أورد الرئيس السابق لجهاز الشاباك الإسرائيلي (يعقوب بيري) في كتابه (مهنتي كرجل مخابرات) قصة تاجر الذهب الإسرائيلي الذي تم خطفه من مدينة (طولكرم) على يد مقاومين من حركة (فتح)، وكيف أنه فور إطلاق سراحه اصطحب عائلته وأقاربه وهاجر بهم إلى مسقط رأسه من حيث أتى[1].

ولقد دبّ الرعب في أوصال الكيان الصهيوني جرّاء قنابل الاستشهاديِّين التي لم تفتأ تنفجر بهم فتثخن فيهم، حتى لم يعودوا يجدون وسيلة لمنعها، وقد عبّـرَ عن حالة اليأس هذه رئيس وزرائهم الأسبق (إسحاق رابين) بقوله: «ماذا أستطيع أن أفعل لرجل يريد أن يموت؟!».

وبهذا أصبح الصهاينة لا يأمنون على أنفسهم ركوب الحافلات أو السير في الشوارع العامة والأسواق المكتظة، ما دفعَ شركة الحافلات الرئيسية (إيغد) إلى تنظيم حفلات غنائية داخل الحافلات، لتشجيع الناس على ركوبها، وذلك إثر عمليات الثأر التي قامت بها كتائب القسام رداً على اغتيال المهندس القائد (يحيى عياش). ولقد صرّحت أجهزة إعلام الاحتلال أكثر من مرةّ بحقيقة ما يعاني منه المجتمع الصهيوني نتيجة الفعل المقاوم، ومن ذلك أن الإقبال على العيادات النفسية تضاعف مع أحداث التفجير، وأنه كلما كان انفجار صاروخ أو هجوم يقع مصابون في نفوسهم أكثر مما يقع مصابون في أجسادهم.

◆ **خلق ظرف متأزم لا مخرج منه**، وترسيخ قناعة لدى قادة الاحتلال وساسته أن حلاً عسكرياً للقضية لن يكون، وأن الشعب والمقاومة لن تنكسر مهما

---

١ (مهنتي كرجل مخابرات)، يعقوب بري؛ رئيس جهاز الشّاباك الإسرائيلي السّابق.

اشتدت الضربات، وأنه على الرغم من إمكانية إضعاف (الجاريلا) حيناً، إلا أنها لن تلبث أن تنهض من جديد؛ لأنها تمثّل الشعب بأسره، ولا يمكن القضاء عليها إلا بالقضاء على الشعب بأكمله، وبالتالي إيجاد قناعة لدى العدو بأن مخرجه الوحيد من أزمته هو اللجوء إلى التفاوض الذي يفضي إلى الانسحاب والرحيل. وكذلك حتى يعلم العدو بأن تكلفة تمسكه بالاحتلال أو بكرسي الحكم باهظة الثمن، تفوق ما يمكن أن يحققه استمرار الاستعمار من مكاسب.

هذا ما استطاعت الثورات التي انتصرت أن تحقّقه، وهذا ما أقنعت به الثورة الجزائرية فرنسا، وهو ما وصل إليه الأمريكيون في فيتنام دون أن تُهزم جيوشهم في أرض المعركة، وكذا الحال مع الجيش السوفييتي في أفغانستان.

إن الهجوم الشهير (TET) في (فيتنام)، والذي قُتل فيه أكثر من ٣٢ ألف مقاتل فيتنامي شمالي وثائر من قوات الثورة (فيتكونغ)، مقابل (ألف) جندي أمريكي و(ألفي) مقاتل فيتنامي جنوبي موالي، وعلى الرغم من خسارة الثورة الكبيرة للأرواح، إلا أنه ترك انطباعاً كبيراً وأثراً عميقاً لدى الشارع الأمريكي، وذلك لبسالة الشعب الفيتنامي واستعداد ثواره للتضحية بمثل هذا العدد الكبير من الأرواح، فخرج الشعب الأمريكي في مظاهرات كبيرة تدعو حكومتها إلى الانسحاب من فيتنام، بل إن الرئيس الأمريكي (ليندون جونسن) أعلن عن قراره بعدم ترشيح نفسه، فكان هذا الهجوم نقطة انعطاف وتحول لصالح الشعب الفيتنامي الثائر.

ويلاحظ أنه في اللحظة التي يصل فيها الاحتلال إلى هذه القناعة، فإن المقاومة تكون قد حقّقت هدفاً آخر، هو وقف توسّع الاحتلال على الأرض، وإيقافه عند الحدود التي وصلها، ثم محاولة استخلاص أي أرض أو موقع من بين يديه.

فها هو الاحتلال الإسرائيلي، كان يحلم بأرض (إسرائيل الكبرى) من النيل إلى الفرات، وكان ينقش خارطتها على عُملته المعدنيّة، وشرع بممارسة ذلك عملياً، فاحتلّ سيناء المصرية، وجنوب لبنان، والجولان السوري، وبعضاً من الأرض الأردنية، إلا أن المقاومة العسكرية حطّمت حلمه، فردّته حرب (رمضان) عن أرض سيناء، ودحرته المقاومة الإسلامية عن أرض لبنان، ثم جاءت المقاومة الفلسطينية لترغمه على التخلي عن قطاع غزة الصامد وبعض من أراضي الضفة الغربية، ولا زلنا على ذات الطريق حتى النصر بإذن الله.

◆ **إبراز عدالة القضية عالمياً**: إن التزام أصحاب الحق بالمطالبة بحقهم، واستماتتهم في سبيل تحصيله، وتضحيتهم اللّامحدودة في سبيله؛ يجعل الأنظار تتوجّه إليهم، والعقول تؤمن بعدالة مطلبهم. وكذا فإن وجود صراع في أي بقعة في العالم يلفت النظر إليها، ويثير الاهتمام بقضيتها، ويجبر الإعلام على متابعتها، فتكون الفرصة مهيأة لشرح أبعاد القضية والمظلمة الواقعة عليها، وعدالة مطلبها...

لقد عملت جميع حركات المقاومة وتجارب (الجاريلا) على بسط قضيتها عبر المقاومة، وكذا كانت القضية الفلسطينية عندما وقف الأخ (ياسر عرفات) لأول مرة في العام (١٩٩٤م) على منبر الأمم المتحدة عارضاً قضيته.

وقد قامت الانتفاضة الفلسطينية بالدور خير قيام، ودخل الإعلام بقوة في دعم هذا الهدف وتعظيمه وإنجاحه، وإنّ صورة واحدة من صور المقاومة الشعبية لأطفال فلسطين بحجارتهم أغنت عن ألف بيان وإعلان، ومثلها من الكتب والمؤلفات، فصورة الطفل الشهيد (فارس عودة) مثّلت الشعبَ الفلسطيني الشجاع المقاوم، وصورة الطفل الشهيد (محمد الدرة) مثّلت الشعبَ

الفلسطيني المقهور والمظلوم، وأمثالها كثير من الصور التي عبّرت عن حال الشعب الفلسطيني للعالم كله، واستدرّت عطفه من جهة أخرى، واستحوذت على اهتمامه.

◆ **إضافةً لما سبق، فإن (الجاريلا) تحقّق جملة من الأهداف الآنية التي تخدم الهدف الأسمى:**

– كأن تحقِّقَ نهضةً عامة لدى الشعب وصحوة في نفوس أبنائه؛ فتوقظهم من السبات، وتصرفهم عن سفاسف الأمور، وتؤدّي بهم إلى رفض الاستعمار ومقاومته، والمسارعة إلى الانضمام والالتحاق بصفوف الثورة مقاتلينَ أو داعمينَ أو مؤيّدين.

– ولعل الثورة تحقق يقظة أشمل في إطار قطرها، فتساهم في إحياء الأمة وتوجيه طاقاتها وشبابها نحو وجهة أكثر جدية وعملية، وتبصّرها بالمصائب الواقعة فيها، والأخطار المحدقة حولها، كما فعلت المقاومة الفلسطينية في نفوس عشرات آلاف الشباب العربي والإسلامي.

– كما تسعى (الجاريلا) إلى الاستيلاء على السلاح من عدوها واستخدامه في ضربه ومحاربته، فمن المعلوم أن سلاح الثورة عادة ما يكون خفيفاً وقليلاً ومصادره شحيحة، ولذا فإن غنيمة أي سلاح من العدو هو انتصار مزدوج، فهو إرهاق للعدو واستنزاف له، وهو دعم للمقاومة وتمويل لها، ورفعٌ لمعنويات المقاتلين يقابله ضربٌ لمعنويات العدو.

ومن الثورات التي اعتمدت على سلاح عدوها: الثورة الصينية، حيث يصف زعيمها (ماو) الاستيلاء على السلاح القادم من أمريكا إلى الحكومة

المتعاونة عبر رئيسها (تشانغ كاي تشك) فيقول: «معسكرُ دعمِنا موجودٌ في واشنطن، وضابط التوريد الذي ينقله لنا هو تشانغ كاي تشك!». أما في المقاومة الفلسطينية، فهناك العشرات من العمليات القسامية التي نفّذها أبطالُها بسلاح عدوّهم الذي غنموه من أرض المعركة، ومنها عمليات خلية القدس، وعمليات خلايا الشهيد (عماد عقل)[١]، وكذا فعلت فصائل المقاومة الأخرى في عدد من عملياتها.

– كذلك فإن المقاومة **تحقِّقُ خسائر بشرية وقتلى في صفوف العدو**[٢]، الأمر الذي يضعفه ويفتّ من عَضُدِه، على الرغم من أن القتل ليس هدفاً بذاته، إلا أنه أقصر الطرق إلى إقناع العدو بالعدول عن مواقفه، والانسحاب من الأراضي التي يحتلّها.

– وتحقّق (الجاريلا) بمقاومتها خلقَ حالةٍ من توازن الردع والرعب، الذي يمنع المحتل من الاجتراء على الشعب، وتوسيع قتله للناس، والاستهانة بقدراتهم وقدرات المقاومة، فهو يعلم أن كل مجزرة يرتكبها ستعرّضه لضربة قوية وجريئة ومؤلمة، ومع كل إقدام على اغتيال كادر من كوادر الثورة سيدفع ثمناً مماثلاً، وهكذا فإنه يعلم أن كل جريمة يمارسها قد تعود عليه بالوبال.

---

١ تمكنت خلية القدس من قتل الجندي (نسيم طوليدانو) واستخدام سلاحه في علميّاتهم التالية. واستطاع القائد (عماد عقل) وإخوانه غنيمة سلاح الجنود في الجيب العسكري بعد قتلهم في عملية (مصعب بن عمير)، ثم اِستخدموا السلاح في جهادهم. ونفّذ المجاهد (إبراهيم سلامة) عملية (غاني تال) في هجوم (دير بلوط) برشّاش غَنمه المجاهدون من عملية (عمارة العنبتاوي).

٢ لأول مرة في تاريخ المقاومة الفلسطينية تصل نسبة القتلى ثلاثة شهداء مقابل قتيل صهيوني واحد، وذلك في انتفاضة الأقصى.

◆ **ويبقى الهدف الأسمى للجاريلا الثائرة هو تحرير الأرض المغتصبة واستعادة الحقوق المسلوبة.** هذا الهدف الأسمى يمكن تحقيقه بإحدى الطرق التالية:

١ـ **الوصول إلى المرحلة الحاسمة** بحيث تصبح (الجاريلا) مع الزمن جيشاً قوياً منظماً، فينقضّ على عدوه ويجهز عليه بالضربة القاضية بعد أن يكون قد أنهكه، وهذا عين ما حصل في الثورة الصينية والثورة الكوبية، وهي المرحلة الثالثة التي حددها (ماوتسي تونغ) في استراتيجيّته الثورية ذات المراحل الثلاثة.

ويمكن أن يُضاف إلى هذه الطريقة طريقةٌ أخرى، يصفُها البعض بأنها أسلوبٌ منفصل، وهي طريقة (حرب الشعلة)، وذلك بأن تعمد (الجاريلا) إلى ضرب العدو بشكل متلاحق، حتى يضطر إلى الرد بضربات عشوائية انتقامية تطال دولاً أخرى يتواجد فيها عناصر (الجاريلا)، فتدخل هذه الدول حلبة الصراع، فيتوسّع القتال، وتكون نهاية العدو على يد هذه الدول بالتعاون مع (الجاريلا)، وهذا ما حاولته الثورة الفلسطينية لكنها لم تنجح في الوصول إليه.

والحسم بهذه الطريقة يكون عسكريّاً، بجيش (الجاريلا) ودعم غيرها، فيكون القضاء على قوة العدو وإسقاط حكمه وطرده من الأرض.

٢ـ **فرض وضع لا مخرج منه**، يصل إليه الاحتلال بعد أن يمارس مع رجال (الجاريلا) والشعب كل ما يملكه من أساليب ووسائل مشروعة وغير مشروعة، فيثخن بهم قتلاً وتشريداً وتنكيلاً لكن دون جدوى.

في المقابل، تُظهر (الجاريلا) جلَداً وصبراً وإصراراً، فتقاوم التنكيل، وتثبت في وجه العاصفة، وتحاول أن تردّ الصاع إلى عدوّها عبر قرصاتٍ متفرّقة، وضرباتٍ هنا وهناك.

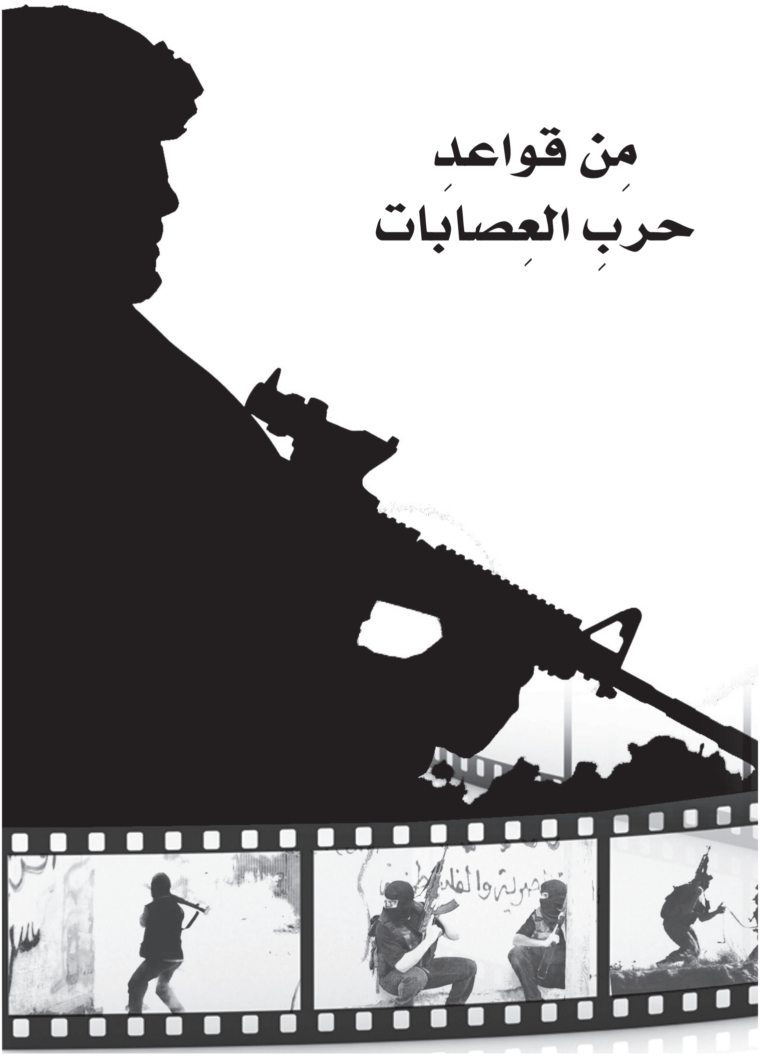
هذه المرحلة تحتاج إلى نفسٍ طويل وتضحياتٍ كبيرة، لكنها الحل الأمثل في مواجهة قوى الاستكبار العظمى التي لا يمكن هزمها بالضربة القاضية الحاسمة، أو استئصال جيوشها وإبادتها.

ولقد قدمت الثورة الجزائرية في مسيرة التحرير الطويلة مليون ونصف المليون شهيد؛ سعياً لإيصال فرنسا إلى هذه القناعة، وكانت كلما قدمت مزيداً من التضحيات حاول الاحتلال الفرنسي أن يتمسك ويضغط حتى الرمق الأخير، حتى أن الأشهر الأخيرة من الثورات كانت الأكثر ضراوة وقسوة بين الثُّوار وجلّاديهم، إذ حاول الجيش الغاضب أن يلعب بأوراقه الأخيرة، ويضرب الضربات الأشد فتكاً، علّها تكون الحاسمة، لكن دون جدوى، فكان عضُّ الأصابع الذي صمدَ فيه الشعب، وانتصر على المحتل، واضطرّت فرنسا إلى الاعتراف والتفاوض، ومن ثم الانسحاب. وقدّم الشعب الفيتنامي مئات آلاف القتلى حتى استطاع أن يصل بالشعب والحكومة الأمريكية إلى ذات القناعة.

إن العامل الأساسي الذي يفرض هذا الحل، هو معادلة (الميزان الحيوي)، التي تميل لصالح المقاومة، فترجح على ميزان القُوى المختل، والراجح لصالح المحتلّ، فحِرْصُ الشعب الجزائري على نيل حريته وطردِ المستعمر يفوق حاجة الفرنسيّين إلى إيجاد مستعمرات إضافية والبقاء في الجزائر كاحتلال، ورغبةُ الشعب الفيتنامي بالتخلص من الاستبداد والانعتاق من الدكتاتوريّة يفوق حرصَ الأمريكيّين على دعم نظام استبداديٍّ لا يقدّم لهم الكثير.

* * *

مِن قواعدِ
حربِ العِصابَات



من قواعد حرب العصابات

هي مبادئ عامة، وقواعد ثابتة، انتهجَتْها الجماعاتُ الثائرةُ والفِرَقُ المقاتلةُ في شتّى الأصقاع والأزمان، فشكّلت بمجموعها سماتٍ وقوالبَ ميّزت حرب العصابات، بعضَها تشترك به الجاريلا مع الحروب الكلاسيكية، وبعضَها تختصّ به دون غيرها.

الكَرُّ والفَرّ:

وهي من سياسات حرب العصابات على مدار تاريخها، فالحركة الثورية المقاتلة لا تتخذ شكلاً واحداً من الهجوم والكر والاختفاء والفر، أي أنها لا تهجم هجوماً شاملاً متواصلاً بحيث تضع نفسها أمام مواقف حاسمة ومصيريّة، وكذلك لا تختفي عن الساحة بشكل كامل لا محدود فتكون بلا حضور ولا تأثير، بل هي دائمة الحركة بما تقتضيه الحاجة والضرورة، تهاجم في اللحظة المناسبة، وتنسحب دون حرج عندما يكون الانسحاب ضرورياً.

وهي بذلك كله تحقِّق مبدأ المباغتة والمفاجأة، وبذلك تحقّق أهدافاً مرحلية ضمن ما يعرف بـِ (القرصات الموضوعية)، يقول (ماو): «دفاعٌ من أجل

الهجوم، وانسحابٌ من أجل التقدّم، وانحناءٌ من أجل مواجهةٍ وسيطرة، مشيٌ متعرِّجٌ لأجل الذهاب المستقيم»[١].

إذاً فالكرُّ والفرُّ وظيفةٌ لتحصيل الهدف الأساسي وهو الانتصار، وبالتالي فهو اختيارٌ للأسلوب الأمثل الذي يتناسب والحالة الراهنة للجاريلا. يقول لورانس: «على المقاتلين أن يختفوا كالبخار»، ويقول كلوزيست: «على المقاتل أن يختفي كالغيم». إذن هو إجماعٌ لدى مدارس حرب العصابات على تبنّي العمل بهذا المبدأ.

وبالعودة إلى عمليات المقاومة الفلسطينية، فإننا نلاحظ أنها بجملها تخضع لهذا المبدأ، باستثناء العمليات الاستشهاديّة بأشكالها، أما الأساليب الأخرى من المقاومة، فقد اعتمدت الكرَّ على أهداف محدّدة، والضرب بقوة وسرعة، ثم الانسحاب بأقل وقت ممكن؛ قبل أن يجدَ العدو وقتاً لاستدعاء فرق مساعدة ودعم. وحين لم يستطع المقاومون الانسحاب بسرعة من موقع الهجوم، كان مصيرهم الاستشهاد أو الاعتقال أو الوقوع في مآزق صعبة، كما حصل مع مجاهدي الخلية الأردنية على الحدود الفلسطينية في إحدى عمليات الدوريات، وقد أوردناها في هذا البحث.

اعتماد الخديعة في الحرب:

يقول عليه الصلاة والسلام: «الحرب خدعة»(٢)، ويُشرع للقوى المقاتلة استخدام الخديعة والمكر والدهاء في ضرب العدو، أو في أثناء ضرباته، مما يجنّب

١ الحرب والاستراتيجية)، يهوشيفت هركيف.
٢ متَّفق عليه.

الثُّوار شيئاً من التفوّق في القوة التي يتمتّع بها عدوهم.. وقد أكثرَ مقاتلو حرب العصابات من استخدام أساليب خداعية في ضرب الخصوم، ومن أشهر ما تناقلتْه كتبُ التاريخ في هذا الباب؛ قصة (حصان طروادة) الشهيرة، والذي استخدمه الجيش الروماني في احتلال مدينة طروادة، فقد استعصت المدينة عليهم شهوراً طويلة، وصمدت في وجه قوّاتهم لمناعة أسوارها وصمود أهلها واستبسال مقاتليها، فعمدَ الرّومان إلى الخديعة، إذ أعدّوا مجسّماً خشبيّاً لحصانٍ كبير، وهم يعلمون أن أهل طروادة يعشقون الخيل لدرجة التقديس، وقد أعدّوا هذا المجسّم بشكل أجوف، حيث كمنَ بداخله بعضُ الجنود، ثم تظاهرَ الجيشُ بالانسحاب ليلاً من محيط المدينة، حتى طلعَ الصباح وليس أمام أسوار المدينة إلا مجسَّم الحصان، فأدخلَ السكانُ المجسّمَ داخل المدينة، واحتفلوا بالنصر، وعند المساء خرج الجنود من مكمنهم داخل الحصان، وتوجّهوا إلى الحرّاس فقتلوهم، وفي ذات الوقت كان الجيش الروماني قد عاد أدراجه، فوجدَ الأسوارَ قد فُتِحت، وسقطت المدينة في أيديهم بالخداع والحيلة، لا بالقوة وشدة البأس!

والناظر في سيرة (عمرو بن العاص) رَضِيَ الله عنه، يجد عشرات القصص الخداعيّة التي مكّنته من الخروج من المآزق والانتصار في المعارك، وهذا حال قادة الحروب المميّزين، فكلما كانت القيادة للعمل المقاوم تمتلك عقليّةً خلّاقةً مبتكرةً فَطِنة، وتبتدع الأساليب تبعاً للمواقف والأحداث ومقتضياتها، كان العمل الثوري أكثر نجاحاً وقدرةً على الاستمرار والإنجاز والإثخان بالعدو.

أما في تجربتنا الفلسطينية، فقد استخدم المقاتلون أساليب (المخادعة) بصُوَرٍ متعددة، فتارةً يظهر مقاتل القسام على طريق (رام الله) بلباس (قمباز) أو لباس امرأة، فلا يَأبه المستوطنون المارّون في الموقع به، وفي اللحظة المناسبة ينقضُّ عليهم

بسلاحه المخبّأ تحت ثيابه. وتارةً يزرع المقاومون عبوة صغيرة في أحد المواقع تهدف إلى حمل الصهاينة على الفرار إلى الاتجاه المعاكس، وهناك تكون العبوة الكبيرة بانتظارهم. وتارةً يفجّر الاستشهادي نفسَه داخل مقهى صهيوني، بينما ينتظر صاحبه الاستشهادي الآخر في الخارج، ومع تدافع الناس يتظاهر بأنه من رجال الأمن، فيبدأ بجمع الناس من حوله متظاهراً أنه سينقذهم، حتى إذا تجمّعوا حوله فجّر نفسه بهم، (كما فعل الاستشهاديّان: بحر وحلبيّة). ورابعةً وخامسةً وسادسة، وكلما أتقن المقاومون حِيَلهم، كان النجاح حليفهم(١).

المباغتة والمفاجأة:

وذاك خير سلاح يملكه رجل العصابات. والمباغتة تقتضي أن لا يعرف العدو أو يتوقع مكان وزمان وآلية تنفيذ المقاتلين لهجمتهم القادمة، مما يعني عدم قدرته على التهيّؤ والاستعداد لها، أو إحباطها أو اتّقاء نتائجها.

إن عنصر المباغتة كفيلٌ بردم الهوّة السّحيقة بين إمكانات الثوار الضعيفة المهاجِمة، وبين قوة العدو الكبيرة المتمركزة، فتكون المباغتة مقابل الكثرة، فتخلق بعضاً من التوازن. ولتحقيق هذا المبدأ، فقد اعتمدت (الجاريلا) في قتالها على الضرب بطريقة (الكمائن)، وبطريقة (الاستدراج)، لما تحقّقه من مفاجأة لقوّات العدو، ولذات السبب حفرت الأنفاقَ لكي تخرج إليه من حيث لا يحتسب.

١ التفاصيل في كتاب (صفحات من جهاد أبناء القسام)، لمؤلّفه: أبو مؤمن.

لقد تمكن رسول الله ﷺ وقادة الفتح الإسلامي من بعده من استخدام عنصر المباغتة على أكمل وجه، وتوظيفه بالقدر الذي مكّنهم من جنْيِ الانتصارات التي تخطّت الحسابات المادية والمنطقية، فقد تمكّن عليه السلام من مباغتة مشركي مكة بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل يقف على رؤوس الجبال المحيطة بهم، وكذا تكرّر الحال عشرات المرات في السَّرايا والبعوث والمعارك والغزوات على مدار تاريخنا. وهو ما فعله رسول الله ﷺ أيضاً مع يهود (خبير) عندما خرج بجيشه نحو (غطفان)، فأوهمهم أنه يقصدهم فاستعدوا له، بينما اطمأنّت خبير، ولم تقم بأيِّ استعداد، فانعطف عليه الصلاة والسلام بالجيش عليهم، ففاجأهم وهو يقف على أعتاب حصونهم.

ومن القصص الجميلة التي تُروى عن القائد الجليل (خالد بن الوليد) رَضِيَ الله عنه، ما قام به من حركةٍ أُحاديّةٍ جريئةٍ مفاجئة، زعزعَ بها صفوف جيش عدوّه الذي يفوقُه عدداً وعتاداً، فبعد أن اصطفَّ الجيشان للمواجهة؛ المسلمون بقيادة خالد، والفُرس ومن والاهم من العرب بقيادة عقّة، وفي غفلة من الجيشَيْن، انطلق خالدُ على فَرسِه صوب عدوّه، والجميع في ذهول، ولم يصحوا من ذهولهم إلا بعد أن وصلَ خالدُ إلى قائد جيشهم (عقّة)، وانتزعه وهو على فرسه، وعاد به أسيراً، فدبَّ الاضطراب في صفوف الكفَرة، وهجم الجيش الإسلامي يقتل منهم ويأسر، فلم يجدوا إلا الفرار سبيلاً، وحقّقَ المسلمون نصراً مؤزّراً بغير خسائر[١].

ومن نماذج المباغتة في العصر الحديث، تمكّنُ الجيش الصهيوني من مباغتة الجيش المصري الذي كان قادتُه في غفلتهم ولهوهم، فدمَّرَ سلاح الطيران

---

١ (فرسان النّهار من الصّحابة الأخيار)، د. سيّد حسين العفاني.

المصري وهو على أرضه دون أن يحرِّكَ ساكناً، فانتهت الحرب في ست ساعات فقط!

أما في تجربتنا الفلسطينية، فقد حقّقَ المجاهدون المباغتة في مئات الضربات، ومنها عملية (الحرم الإبراهيمي)، عندما تمكّنَ المجاهدان: عماد عقل، وهارون ناصر الدين، من قتل حارس المنطقة وإصابة زميله رغم حصانة الموقع. فقد تصرّفَ الأخَوان بصورةٍ غير متوقّعة، وعلى الرغم من أن المسافة المكشوفة أمامهم للوصول إلى النقطة طويلة، إلا أنهما تمكّنا من مفاجأة الجنود بالعَدْوِ نحوهم بسرعةٍ وقوة، بينما عُقدت الصدمة على تفكير الجنود، فلم يملكوا إلا النظر إلى المجاهدَينِ اللّذَينِ أفرغا سلاحيهما نحوهم، ثم انسحبا بسلام.

ولتحقيق المباغتة، لابد من استخدام القدر الأكبر من (السِّرّية) في الزمان والمكان والكيفية، وكلما كانت عوامل (المكان والزمان والكيفيّة) بغير ما يتوقع العدو؛ كان النجاح حليف المقاومة بإذن الله.

توسيع دائرة الضرب:

ويكون ذلك بزيادة عدد المواقع المستهدفة، وعدم التركيز على منطقة دون غيرها، مما يعرّضها للضغط والتركيز، أو يُخضعها للمراقبة والمتابعة. وقد ذكرنا أن المباغتة تحتاج إلى ضرب مواقع لا يتوقّعها العدو، وهذا لا يتأتّى إلا بتوسيع رقعة العمل المقاوم، وزيادة كمّ ونوع أهدافه، خصوصاً في واقعنا الفلسطيني الذي يعاني أصلاً من ضيق البقعة الجغرافية التي نعيش فيها، والتي تُعَدّ ساحة المواجهة.

ويلاحظ أن تحييد أيّ بقعة جغرافية، واستثناءها من ساحة المواجهة دون مبرر، يعطي العدو أماناً فيها، ويجعله يركّز اهتمامه باتجاه البقع الساخنة، وينقل قواته واستخباراته إليها، فتقل حاجته لاستخدام كامل قوّاته، وتزداد قوته في ضرب المقاومة.

وبنظرة إلى واقع الاحتلال، فإننا نجد أن المواقع المستهدفة تنقسم مكانياً إلى قسمين:

الأول: يتمثّل بالضفة الغربية ومحيط قطاع غزة، ويشمل كذلك المستوطنات والمعسكرات والحواجز والطرق الالتفافية والآليات العسكرية والاستيطانية، كما يشمل الدفاع عن المدن أثناء الاجتياحات. والثاني: هو الأراضي المحتلة عام (١٩٤٨م)، ويشمل جميع المواقع العسكرية، والمواقع المسمّاة (مدنية واقتصادية)، والمواصلات، مع تجنّب المواقع ذات الخصوصية، كدُور العبادة والمراكز الطبية وحتى التعليمية، وما من مرة ضُربت فيه هذه المواقع إلا لمبرِّر، كإقدام الاحتلال على ارتكاب مجازر كبيرة، أو اغتيال قادة، أو ضرب مواقع فلسطينية مشابهة، فكانت محاولةً لتحقيق (توازن الردع)، كما حصل في عملية الجامعة العبرية في القدس، والتي نفّذها مجاهدو خلية سلوان؛ ردّاً على مجزرة (حي الدّرَج) في غزة، والتي استُشهد فيها القائد العام لكتائب القسام الشيخ صلاح شحادة، وسبعة عشر فلسطينياً آخر، وذلك بإلقاء قنبلة عليهم تَـزِنُ (طنّـاً).

تجنُّب المواجهات الواسعة:

حيث أنه كلما كانت المواجهة أقرب إلى مبدأ (الكر والفر) والهجمات الخاطفة التي لا تصل بحال إلى المواجهة المباشرة، والتي لا يطول زمنها أو يتسع مكانها، كان العمل أكثر نجاحاً.. وذلك من أساسيات حرب العصابات.

يقول قائد الثورة الصينية (ماو): «يجب الامتناع عن المعارك الحاسمة وبشكل قاطع»، ويقول أيضاً: «قاتِلْ فقط عندما تكون قادراً على النصر، وانصرف عندما لا تكون قادراً»، وسبب ذلك أن ميزان القوى مختلٌّ لدرجةٍ لا يجوز معها المقارنة، فالعدو يمتلك السلاح والعتاد والإمكانات بالحجم الذي لا يمكن أنْ تواجهَه مجموعةٌ صغيرةٌ تملك بعض الأسلحة الخفيفة. فإذا كانت المواجهة طويلة فإن ذلك يُفقد المقاومة أهم امتيازاتها، وهو عنصر المباغتة والكر والفر والمناورة والاختفاء، وعندئذ ترجح كفة الأقوى، إذ أن كل عناصر القوة معه.

ونشير إلى أن المجاهد قد يضطر إلى المواجهة والصمود حتى النهاية، لكن ذلك في حالات خاصة جداً، وتحديداً إذا تمكّنَ العدو من محاصرة خليةٍ أو مطارَدٍ في موقع ما، بحيث لا يمكن الانسحاب منه، فالمواجهة هي الأصل هنا، مع الإدراك شبه اليقيني أن الشهادة هي نهاية هذه المواجهة.

إن من عوامل نجاح (الجاريلا) أن تفرض هي شكل المواجهة، وعندما يستطيع العدو فرض شكل المواجهة فإنه يكون أقرب للانتصار، وتجنُّب المواجهات الواسعة شكلاً وزماناً يعطي المقاومة فرصةً أكبر للنجاح.

البعد عن النمطية :

الخروج عن المألوف، وتجنُّب الرّوتين والتكرار؛ مما يحقّق المفاجأة، وتجنُّب النمطيّة، يعني ألا تعتمد (الجاريلا) شكلاً معيناً في الأداء والمقاومة والحركة زماناً ومكاناً وأسلوباً، حتى لا يسهل على الاحتلال دراسة حركة المقاومة وتتبّع خطواتها، ومن ثم التنبؤ بحركتها القادمة، وما يُمكِن أن تُقدمَ عليه مستقبلاً، ومن ثمّ يأخذ حِذره، ويتسلّم زمام المبادرة، ويفاجئ المقاومة بدلاً من أن تفاجئه، وقد قيل: «خير عادة، أن لا يكون لك عادة».

نعم! إن البعد عن الروتين يجعل الزمان مفتوحاً للعمل بليله ونهاره، صيفه وشتائه، هدوئه واشتعاله، ويجعل المكان كله ساحة مقاومة، لا تستثنى منه بقعة، ولا يحدُّه ميدان؛ سهله وجبله، بَـرُّه و ماؤه، مُدنه وأريافه، جوّه وباطن أرضه... وإن من شأن ذلك أيضاً، أن يجعل من الوسائل المتاحة مستخدمةً على الدوام بحسب الحاجة والإمكان، إطلاق نار أو تفجير أو صواريخ أو اغتيال وقنص، ويجعل من الوسائل المتوفرة أرضيّةً جيدةً للتطوير، فلا يكون التوقف عند وسيلة استُخدمت، بل يستخدم السابق، ويطوّر الحالي، ويبتكر الجديد، ويستجلب ما استخدمه الغير....

كلّ ذلك يجعل الاحتلال في حيرة من أمره، ويحجزه عن توقّع القادم، ويُفشله في مقاومته، ويُعدم قدرته على مواكبة ما تستحدثه المقاومة من أساليب، بينما ذلك يضع المقاومة في موقع المبادرة وصناعة الحدث.

التطوير الدائم لأساليب العمل، وعدم الاكتفاء بما سبق:

فهي حربٌ طويلةٌ لا ينفع معها الاستمرار بروتين معين من المواجهة، أو استخدام سلاح واحد فيها، أو العمل بوسائل وطرق تقليدية محددة، ذلك أن العدو سيفهم أسلوب القُوى المقاوِمة في عملها، وسيجد العلاج الناجع الذي يحدّ من فاعليّتها، وتوقّي ضرباتها، بل من المحتوم أنه سيعمد إلى الابتكار وإبداع الوسائل والطرق والأدوات الجديدة في حربه وضربه للثورات، وعندئذ ستجد (الجاريلا) نفسها قد تخلّفت وتقدّمَ عدوُّها. ففي الوقت الذي كان فيه مقاتلو (ألفيت كونغ) في (فيتنام) يحتمون بالغابات وخضرائها للاختفاء من الطيران الأمريكي، قامت أمريكا بتطوير سلاح جديد يتناسب وهذه المعضلة، فاخترعوا (القنابل المسمارية)[1] التي تحوي آلاف المسامير القاتلة التي تنتشر حال إطلاقها على مساحات شاسعة، فتؤدّي إلى قتل الثوار دون أن يحتاجوا لرؤيتهم، فلم يكن أمام المقاتلين إلا إيجاد الحلول المناسبة التي تسمح لهم بالتمترس خلف حاجز يقيهم من المسامير، ومن ثم كان حفر المزيد من الخنادق والأنفاق التي تسمح لهم بالاختفاء والاحتماء.

وقد كان النموذج الفلسطيني متميزاً في تطوره وتنوع أساليبه ودخوله في مراحل إبداعية متعاقبة، خرجت به من دائرة العمل الشعبي الأعزل، إلى دائرة الإبداع والابتكار في إيجاد الأسلحة المناسبة لطريقته في مقاومة عدوّه، فبعد أن بدأَ العمل الفلسطيني بالمقاومة السلميّة الاحتجاجيّة والاستنكاريّة، ثم الانتفاضة الشعبيّة المسلَّحة بالحجر والزجاجة الحارقة؛ تطوّرَ العملُ ليدخل مرحلة (ثورة السكاكين) التي استَخدمت أبسط أنواع السلاح الأبيض المتوفّر في المنازل،

---

١ القنابل المسماريّة تُطلق على شكل دفعات، كلّ دفعة تحوي عدّة قنابل، كل قنبلة تحوي آلاف المسامير الفولاذيّة بطول (١٠) سنتيمتراً، تنطلق بقوة فتنتشر مسامير كلّ قنبلة على مساحة طولها (٣٠٠) متر، وعرضها (٩٠) متراً تقريباً.

ثم كانت مرحلة العمل المسلّح باستخدام الكمّ القليل من السلاح الناري الذي يتوفر بيد المقاومين مما غنموه من أيدي الاحتلال الإسرائيلي، أو مما تمَّ تهريبه من الخارج، أو مما ورثوه من الأجيال...

ثم كانت مرحلة التفجير التي استخدم فيها المجاهدون الموادَّ المتفجرة الموجودة في الألغام القديمة وكحل البارود وغيره، وعندما عجزوا عن توفير المواد الكافية بدؤوا بالبحث عن مواد أوّلية يُصنِّعون من خلالها متفجراتهم، فاستخدموا الأسمدة النباتية، والمواد الطبية، ومواد التنظيف الكيماوية، فكانت مادة (أم العبد) المتفجرة التي أثبتت نجاعتَها في عمليات التفجير، ثم تطور هذا السلاح حتى دخلت فيه قضية التكنولوجيا في التوجيه، فكان التفجير عن بُعد وغيره من الوسائل... وفي هذه المرحلة، دخلت المقاومة الفلسطينية حرب الاستشهاديّين، الذين أصبحوا سلاح المقاومة الأقوى. ثم كانت حربُ الأنفاق، التي استطاعت فيها المقاومة تجاوز الحدود المُصطنعة المحصَّنة بالألغام والأسلاك الشائكة والأبراج وأجهزة الرصد الإلكترونية.

وأخيراً، كانت القفزة الابتكارية، والتي تمثّلت بإنتاج الصاروخ الفلسطيني (قسّام)، وما تَبِعَه من صواريخ مثّلت بمجملها أفضل ما توصّل إليه المقاتل الفلسطيني من ابتكارات تزيد من كفاءة السلاح الذي تملكه المقاومة...

وهكذا، فإنه لا استمرار للمقاومة، ولا بقاء لمقاتليها، ولا إنجاز أو تحقيق لأهدافها دون أن تتمكن من تطوير أدائها، ومضاعفة دفاعاتها ومناعتها، وإيجاد الحلول للمعضلات التي تعترضها[1].

---

١ يروي المجاهدون المتطوِّعون من الإخوان المسلمين في حرب عام (١٩٤٨م) أنهم غنموا كمّيةً من قذائف المورتر، ولم يكونوا يملكون قاذفات لها، فلم يستطيعوا الاستفادة منها، إلا أنهم فوجئوا في اليوم التالي بالمجاهد (يوسف طلعت) قد ابتكر قاذفاً بدائيّاً يدويّاً سَهِرَ على إعداده طوال الليل، وهكذا استفادوا مما غنموه. ومن القصص التاريخيّة على تجاوز العقبات؛ ما كان من (القعقاع بن عمرو) رَضِيَ اللهُ عنه في معركة القادسية، عندما وجدَ الخيلَ تنفر من الفيَلة، فصنعَ فيلاً (تمثالاً) ودرّبَ فرسَه عليه حتى أَلِفَه وأصبحَ لا يخشى الفِيَلة، واستطاع أن يهاجم به الفِيَلةَ الحقيقيّة في اليوم التالي، وأن يُثخنَ فيها.

المركزية واللامركزية:

تحتاج الحركات الثورية إلى استخدام المركزية في بعض جوانب العمل المقاوم حفاظاً على المسار ونجاح العمل، وتحديداً في القرارات الاستراتيجية والسياسية، فليس من الحكمة ترك قرارات وقف أو إنهاء الصراع، أو تغيير أسس ومبادئ العمل، أو قطع أو وصل علاقات خارجية، أو دخول مواجهات داخلية أهلية، بقرارات لا مركزية، تتحكّم بها الخلايا العاملة هنا وهناك.

بينما من الصواب ترك حرية العمل والاجتهاد لهذه الخلايا في القضايا الميدانية واليومية والروتينية، والتي تقع ضمن السياسة العامة والإطار العريض الذي حدّدته القيادة، فإنْ كان القرار السياسي بدخول ثورة مسلحة، يُترك للخلايا العاملة أنْ تحدّد المكان والزمان والكيفية التي تنفذ من خلالها هجماتها.

بل إن على القيادة أنْ تشجّع المبادرات الذاتية والفردية المضبوطة، والتي تنمّي العمل وترتقي به وتزيد من فاعليّته وإنجازاته ونجاحاته.. ومن هنا، فإننا نلاحظ أنّ كمّاً كبيراً من العمل الفلسطيني المقاوم يقع ضمن دائرة الجهود الفردية التي نفّذها أبطالُها بمفردهم، أو تلك التي نفّذها أو ابتدأها الأفراد، ثم كان الاتصال بالتنظيم الذي ساعد ووفّرَ وقدَّم، ومن ثم كان الانخراط العسكري في الإطار الحركي.

إن اللامركزية في الأعمال اليومية يُعطي العمل حيويّةً وتحرُّراً من القيود البيروقراطية المعقّدة التي تُعيقه عن التقدّم والإنجاز. وفي ذات الوقت، فإن هذه الّلامركزية لا تعني بحال أن يُترك للأطراف والخلايا المتناثرة والمنتشرة أنْ تحدّدَ مسار العمل الثوري وآلية إنفاذه.. وكلما كانت تلك اللامركزيّة متوافقةً مع

قياداتها، متناغمةً مع ما يصدر عن القيادة من قرارات، فإن ذلك يساهم قطعاً في سرعة الإنجاز، وتجنّب الوقوع في الأخطاء والأخطار.

إذاً، فالمقاومة تحتاج إلى المركزية على المستوى الاستراتيجي السياسي، وإلى اللامركزية على المستوى التكتيكي والإجرائي، وهذا ما امتازت به (حركة حماس) وذراعها العسكري (كتائب القسام)، ففي الوقت الذي كانت تعلن فيه الحركة عن قبول هدنة مشروطة مع العدو، كان عناصرها ومقاتلوها هم الأكثر انضباطاً والتزاماً، فإذا انتهت الهدنة انطلقوا إلى ميادين البطولة، وقد شهد لهم الاحتلال ذاته على ذلك.

ضرب العدو في نقاط ضعفه:

فلا بدّ من ضربِ العدوِّ في نقاط ضعفه، والتركيز على أطرافه ووحداته المنفصلة، ومراكزه النائية، وخطوط إمداده واتصاله، والابتعاد عن تجمّعاته الكبيرة، ومواقعه الحصينة، ومراكزه التي يصعب الوصول إليه فيها، إلا في عملياتٍ تندرج تحت إطار العمل الاستشهادي، أو في حالة امتلاك أدوات توفِّرُ للمقاومة النجاح في ذلك.

وفي التجارب المعاصرة، كان الفشل الأول للثورة الكوبية في (٢٦ تموز)، لمحاولتها ضرب معسكر ضخم يحوي بداخله أكثر من ألف جندي بعتادهم، إضافة إلى ما يمتلكه المعسكر من دُشَمٍ ومتاريس وسلاح ثقيل، بينما لا تملك الثورة (القوة الثائرة المهاجِمة) سوى عشرات الرجال الذين لا يملكون من السلاح إلا أخفّه وأضعفه، فانتهت الثورة عند ذلك الهجوم، واعتُقل قائدها،

وقُتِلَ العديد من رجالها. يقول (ماو): «اضرب الضعيف دون خجل، واهرب من القوي دون خجل!».

وفي ثورتنا الفلسطينية، كانت هذه القاعدة دافعاً لاختيار الأهداف المتحرِّكة، والمتمثّلة بالدّوريّات والآليّات والراجلة، والأهداف الثابتة المتمثّلة بالحواجز العسكرية النائية، وبقيت عمليات اقتحام المعسكرات الضخمة الحصينة مقتصرةً على نطاق ضيّق، وتحديداً في قطاع غزة، لندرة الأهداف الأخرى هناك. أما الضفة الغربية فهي محكومة بظروف خاصة، مع السعي الدائم لاختيار الموقع الأقل تحصيناً والأضعف أمناً بلا شك.

وليُعلمَ أنّ العدوّ يحافظ على تفوّقه في حرب العصابات، ما دام محافظاً على مبدأ (تركيز القُوى)، فإذا توزّعت قوّاته بدأت تضعف وتفقد تفوّقها، ولذا فإن من أهداف (الجاريلا) أن تجعل العدو ينتشر، فتتفرّق قوّاته، ليَسهُلَ على رجال العصابات استهداف تلك القوات واصطيادها دون أن تتمكّن من الدفاع عن نفسها.

وفي أرضنا الفلسطينية، اضطر جيش الاحتلال ورغم صِغَرِ مساحة الأرض إلى الانتشار على مساحات واسعة، في محاولة منه لحماية مستوطنيه وطرقه الالتفافيّة، ولملاحقة مطاردي ومجاهدي المقاومة، فبالعودة إلى إحصائية في (حزيران ٢٠٠٧م)، فإن أراضي الضفة الغربية وحدها تحوي: (٢١٧) بؤرة استيطانية، و(٢١٠) قاعدة عسكرية، و(٥٧٦) حاجزاً عسكرياً، و(٨٠٠) كم من الطرق الالتفافية[١]. الأمرُ الذي يشير إلى توفر عدد كبير جداً من الأهداف

١ صحيفة القدس، إحصائيّة معهد الأبحاث التطبيقيّة ـ أرع، العدد الصادر في ٢٠٠٧/٦/٥م.

التي يمكن ضربها، وخصوصاً أن الكثير من هذه الأهداف ضعيف أمنياً ويسهل الوصول إليه، وهذا ما جعل عدداً من الضباط العسكريِّين في الجيش الصهيوني يقدّم احتجاجاته على سياسة الحواجز، فقد نشرَ الجيش عشرات الحواجز في مواقع (ساقطة أمنيّاً)، فأصبحت صيداً سهلاً لرجال المقاومة الذين استهدفوها عشرات المرات.

الاهتمام بالقاعدة الشعبية:

حيث يُعدّ من أبرز عوامل النجاح في الحركات الثورية على اختلاف منطلقاتها وتوجّهاتها، قدرتُها على تكوين قاعدة شعبيّة عريضة داعمة، تتبنّى موقفها، وتأتمر بأمرها، وتساند مسيرتَها، وتوفّر لها ما يلزمها من خدمات ومساهمات.

فالقاعدة الشعبية هي مصدر الإمداد البشري، وذلك أكثر ما يُهِمّ الثورة ويلزمها، فكلما كانت القاعدة المؤمنة بالثورة ومنهجيّتها أعرض وأوسع؛ زادَ عدد المتطوّعين في العمل الثوري والمنضوينَ تحت لوائه والعاملين في صفوفه.

والقاعدة الشعبية هي الستار الذي تتّقي به الحركات الثورية في اللحظات الحَرِجة، وتحتمي به في حالات التراجع.. ففي (الجاريلا)، كان رجال الثورة في النهار فلّاحين، وفي الليل مقاتلين، وفي (الجاريلا المدنية) يختفون في صفوف الشعب فيصعب ضبطهم.

والقاعدة الشعبية هي قاعدة الإمدادِ اللوجستيِّ الذي تحتاجه جميع القوى المقاتلة، من إيواءٍ للمطاردين، وتمويلٍ لهم بالطعام والاحتياجات، وتزويدهم بالمعلومات والتقارير...

ولذا، فإن اعتماد الجاريلا على القاعدة الشعبية يمنحها فرصةً أطول للصمود في وجه التضييق والقمع والتنكيل. ففي الوقت الذي يكون فيه الشعب على قناعة بحركات المقاومة ودورها وأدائها وأشخاصها، فإنه يحتمل في سبيلها الكثير، وهذا ما جعل الشعب في قطاع غزة يصبر مع حركة (حماس)، رغم الحصار والتجويع وانقطاع الرواتب وقلة ذات اليد.

وعليه، فإن واجب المقاومة تجاه الشعب أنْ تُحسِنَ إليه لا أن تجترئَ عليه، عليها أن تشعر بشعوره، وأن تسعى لحلّ إشكالاته، وأن توفر له احتياجاته، وأن تنقذه من أزماته، وأن لا تتعرّضَ له بالأذى والترهيب والتنكيل والإساءة، فينظر إليها بكراهية ونفور.

إن من قواعد العمل الثوري أن تشكِّلَ القُوى الثائرةُ الدّاعمَ والمموِّلَ للشعب، لا أن تعتمد عليه بالتمويل المادي، فالمطلوب منها أن توفّرَ له المال الذي يعوّضه عن الخسائر التي يتكبّدها في الدفاع عن المقاومة؛ مِن قتلٍ وهدمٍ للمنازل والسجن ومصادرة الأراضي والأموال والتضييق في أبواب الرزق، وإلا فإن الشعب لا يمكنه الصمود..

لقد أقدم الاحتلال الإسرائيلي في السنوات الستّ الأولى من انتفاضة الأقصى على قتلِ أكثر من خمسة آلاف فلسطيني، وهدمِ (٤٦٠٠) منزل، واقتلاع (مليون ونصف مليون) شجرة، ومصادرة (٦٠٠) ألف دونم، إضافة إلى صنوف أخرى من الاعتداءات... فكيف سيصمد أمامها الشعب بدون وجود داعم خلفه يعينه على الصمود؟[١]

---

١ نفس المصدر السابق.

نعم، إن علينا أن ندرك أن هناك فرقاً بين جماعةٍ أو تنظيمٍ شعبيٍّ قد يعيش على الاشتراكات، وبين عملٍ مقاوِمٍ مسلَّحٍ يحتاج إلى مصروفاتٍ وله تَبِعات.

كذلك، فإن من واجب الجاريلا تجاه الشعب أن تسعى إلى تثقيفه وإعداده وتأهيله وتوريثه الفكرة الثّوريّة والقناعة بها، لكي يبدي الاستعداد للتضحية بها، وبدون هذا التثقيف فإن الجماعات المقاتلة لا تلبث أنْ تضمحلَّ وتتلاشى، فلا تجد المنابعَ الّتي تغذّيها بالرجال الذين يضمنون لها الحياة.

إن من أهم الأمور التي يجب على قُوى المقاومة أن تغرسَها في نفوس الشعب؛ هو كراهية الاحتلال، والقناعة بضرورة إزالته، فهي أهم أسباب النجاح.. ولقد انتفضَ الشعب الفلسطيني بهبّاتٍ متلاحقةٍ تبعاً لهذه القناعة، فلم تكن هذه القناعة شديدةَ الرّسوخ في مطلع عقد الثمانينات، وعندما قرّرَ المجاهدون غرسَها في نفوس الشعب، بدأت معاني الجهاد والوطنية وحب الأوطان تتجذّر في نفوس المواطنين، وتدعّمت هذه المعاني بعشرات المجازر الصهيونية والجرائم المتنوعة من قتلٍ وإبعادٍ واعتقالٍ ومصادَرة، فانتفض الشعب على جلّاده، ووقفَ الكفُّ الفلسطينيُّ الطاهر في وجه مخرز العدوّ النّجس، واستمرّت الانتفاضة سنوات طويلة رغم ما مرّ به شعبنا من ظروفٍ غاية في القسوة والشدة والألم.

ومن الأمثلة العالمية على نجاح الثورات بفضل الالتفاف الجماهيري حولها: (الثورة الإسلامية في إيران)، فقد انتظم الشعب في مسيرات ومظاهرات حاشدة ومتواصلة، بطلبٍ من قائد الثورة (الخُميني) من منفاه في بريطانيا، عبر كاسيتات مُسجَّلة بصوته، حتى عُرفت الثورة الإيرانية بـ(ثورة الكاسيت).. ولقد بلغت هذه الطاعة والانضباط حدّاً عجيباً، وكانت سبباً رئيساً في النصر.

وفي المقابل، فَشِلَ المناضل البولوفي (تشي جيفارا) في نقل الثورة من (كوبا) إلى (بوليفيا)، فقد انتقل مع بعض رفاقه إلى جبال (بوليفيا)، وبدأَ العمل الثوري، إلا أنه لم يستطع كسب ثقة وتأييد الشعب، فاستطاعت القوات الحكومية النيل منه وقتله بعد أقل من عام على إعلان الثورة التي انتهت بمقتله.

الفشل لا يعني اليأس:

لابد للثائر من الإيمان المطلق بأن حرب العصابات هي حرب النّفَس الطويل والعضّ على الأصابع، ينجح فيها الطرف الذي يُبدي صبراً وصموداً وجلَداً أكبر. وعلى الثائر أن يؤمن بأن هذا الهدف السامي الذي يبغي بلوغَه لا يمكن أن يتحقّقَ بلمح البصر، أو بضربةٍ واحدة، بل هو نتاج أعمالٍ تراكميّةٍ تحقّقُ الهدف المنشود، فإذا تعرّضت القوى الثائرة لنكسةٍ أو ضربة، فإن ذلك لا يعني النهاية، ولا يعني اليأس والقنوط أو الشعور بالعجز وعدم القدرة على الفعل، بل يجب أن تعني تجديد الهمة، والانطلاق بخبرة جديدة مستقاة من عصارة تلك التجربة، والعمل بحرص شديد، وهذا ناجمٌ عن وعيٍ إضافي، يهدف إلى عدم السقوط فيما سبق.

وإذا سمحت القوى الثائرة لنفسها أو لعناصرها بأن تدخل مرحلةَ إحباطٍ أو يأسٍ أو ضغطٍ ناتجٍ عن هزيمةٍ موضعيّةٍ أو فشلٍ جزئيٍّ أو تقهقرٍ في ميدانٍ أو تقدُّمٍ للعدو، فتلك إذاً هي بداية النهاية.. أما إذا انطلقت الثورة بعزيمةٍ متقدّمةٍ وإصرارٍ وتصميم؛ فإنها تثبّت المبدأ القائل: «الضربة التي لا تُميتُنا تزيدُنا قوة».

هذا المبدأ ينطبق على كل مهمة وعمل، حتى إن العالِـم المشهور (توماس

أديسون) أجرى ألف تجربة لإنتاج مصباحه الكهربائي، وكانت نتيجتها جميعاً الفشل، حتى استطاع في النهاية إنتاج هذا الاختراع الرائع الذي خلَّدَ اسمه في التاريخ.

أما في الثورات العالمية؛ ففي المدرسة الكوبية، فَشِلَ القائد (فيدل كاسترو) في هجوم (٢٢تموز)، لسوء تقدير حصَل، واعتُقل هو وعدد من رفاقه، وقُتل آخرون، وانتهت الثورة.. إلا أن القائد (كاسترو) لم ييأس، بل سارع فور خروجه من السجن إلى جمع فلوله ومؤيّدي فِكره ليعودَ فاتحاً بلدَه، طارداً الحكومة العميلة من أرضه.

هذه القاعدة تمثّل إجابةً وتجسيداً لمبدأ أساسي تخضع له جميع أشكال حروب العصابات، وهو مبدأ (استراتيجية الاستنزاف)، والتأثير التراكمي للهجمات الناجحة المحدودة، فلا يمكن للجاريلا أن تهزم عدوّها بضربة واحدة، أو حتى بسلسلة ضربات ومعارك محدودة، بل إنّ زمناً طويلاً من العمل الدؤوب، والضربات المتوالية، والجهود المركَّزة، والصبر دون يأس، وتجاوز العقبات، هذا هو الكفيل بالنصر على الاحتلال، وحسمِ الحرب لصالح المقاومة.

وفي الميدان، مارسَ المجاهدون المثابرة وعدم اليأس كثيراً، فخرَّجَ أبطالُ خلية (صوريف) عشرات الطلعات الجهادية بحثاً، حتى تمكّنوا من خطف الجندي (شارون أدري)، وصنّعَ مهندسو كتائب القسام عشرات النماذج من الصواريخ، وأجروا عليها عشرات التجارب، حتى خرج الصاروخ إلى حيز الوجود.

التفريق بين الاستراتيجية والتكتيك:

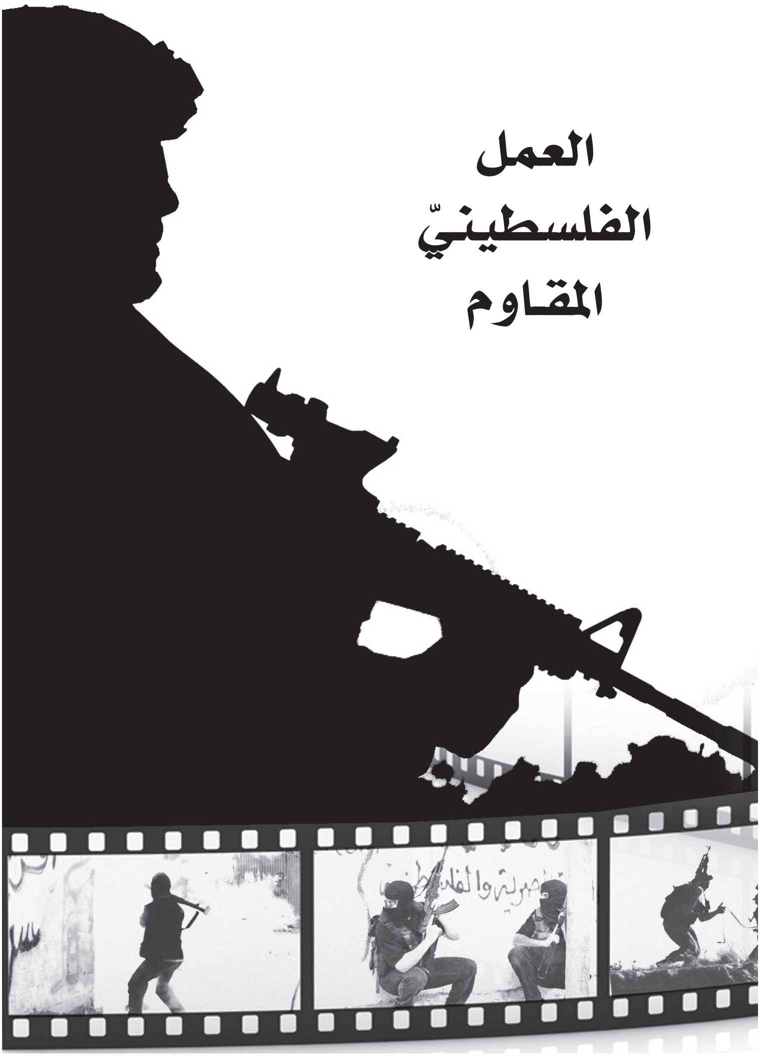
لا بدّ من أن تميّـزَ (الجاريلا) بين الأهداف الاستراتيجية العامة، والتكتيكية المتَّبعة، هذا التفريق يتيح لها التمسك بحقوقها والارتباط بثوابتها، وفي ذات الوقت، فإنه يعطيها القدرة على التفاعل مع الأحداث والتجارب، والتأقلم مع المتغيرات، والسير في حقل الأشواك الذي يعترضها، ويجنّبها الكثير من الإشكالات، ويجيب على التساؤلات، ويسمح لها باستخدام كل ما هو ممكن.

ففي مقاومتنا الفلسطينية، تميِّـزُ حركة (حماس) بين استراتيجيّة تحرير فلسطين كلها من بحرها إلى نهرها، وبين مرحليّة التحرير والجاهزيّة لتسلّم أي شبر يخرج منه الاحتلال، كما في (غزة).. وفرّقت حماس بين استراتيجيّة الحق في المقاومة بكل أشكالها، ومشروعيّة العمل لطرد الاحتلال، وبين تكتيك اختيار الأسلوب الأمثل للمقاومة الذي تواجه به الاحتلال، والذي يتناسب مع المرحلة وظروفها.

وبصيغةٍ أخرى، هو تفريق وتوفيق بين الثابت والمتغير؛ ثابت المقاومة ومتغير الأسلوب، ثابت السعي في التحرير ومتغير القبول بالهدنة المؤقّتة ذات الأهداف المحدَّدة.

* * *

العمل الفلسطينيّ المقاوم



العمل الفلسطيني المقاوم

تعتمد القوى الثائرة في عملها على أساليب تُـجنِّـبُ مقاتليها المواجهة المباشرة والواسعة، مما يحقّق لها مبدأ المباغتة الذي تحتاجه..

فهي تعتمد خيار الكمائن، والتي تُعِدُّها محاطةً بكل السرّية، لتنقضَّ من خلالها على عدوها بصورة تُفقده القدرة على رد الفعل، فتمتلك هي حينها زمام المبادرة، وتُثخن فيه، ثم تنسحب إلى مأمنها. والشكل الذي يتناسب مع الكمائن، هو الضرب من موقع ثابت نحو هدف متحرك.

وهي تعتمد الهجوم المباغت، فتُعِـدُّ مقاتليها بما يلزم، وبما يناسب المهمة من سلاح وعتاد، لينفّذوا هجوماً مباغتاً على الهدف الذي سبق أن تمّ رصده؛ ثابتاً كان أم متحركاً. ويُشترط في مثل هذا الهجوم السرعة وقِصَر مدّة التنفيذ، وأن تكون طريقة الانسحاب مرسومة، فتنجز الخلية مهمّتها، ثم تعود أدراجها إلى مكمنها.

وهي تعتمد الاستدراج، والذي يخدم طريقة الكمائن. سواء كان الاستدراج مباشراً؛ عبر إيصال معلومات استخباريّة مغلوطة إلى العدو يتحرّك بناء عليها إلى نقطة تحدّدها المقاومة، فيكون الكمين جاهزاً للانقضاض على الهدف. أو استدراجاً غير مباشر، وذلك بتوجيه ضربات تكتيكية تهدف إلى إغرائه بتتبّع أثر

المجاهدين، ومحاولة الّلحاق بهم، وعندئذ يكون المقاتلون بالمرصاد.

وقد مارس الشعب الفلسطيني جميع أشكال المقاومة التي ملكَ أدواتها، وتوفرت إمكاناتها، بدءاً من المقاومة السلبيّة وتعريض صدره العاري لنيران عدوه، وصولاً إلى تحويل جسمه إلى قنبلة استشهادية، تنفجر بعدوها فتقتله. أما سلاح هذا الشعب، فهو كل ما وقعت عليه يده؛ من سلاح أبيض أو ناري أو صاروخي أو متفجّر، وكل ما تفتّـقَ عنه ذهن المقاومة من عمل استخباري أو استشهادي، وكل جهد وجهاد؛ سواء كان من تحت الأرض بالأنفاق، أو فوق الأرض بالهجمات، أو في الجو بالمقذوفات، حتى غطّى العمل المقاوم مساحةً واسعةً من أساليب حرب العصابات الحديثة.

* * *

أشكال هجمات المقاومة

أولاً: المقاومة الشعبية:

فقد انطلقت الجماهير الفلسطينية وقواها المقاومة في ثورة شعبية عارمة نهاية عام (١٩٨٧م)، كان هذا الانفجار قوياً لدرجة أن كافة قطاعات الشعب شاركت فيه، فلم يملك الاحتلال أن ينهيه أو يحسمه على الرغم من الجهود التي بذلها جيشه في قمع الشعب والانتفاضة.

لقد انطلق الشعب بما يملكه من إمكانات بدائية بسيطة؛ بدءاً بالحجر الذي مثّل رمز الشعب والمرحلة، وما رافقه من مسيراتٍ ومظاهراتٍ واعتصاماتٍ وإضراباتٍ ومؤتمراتٍ ومهرجانات... ثم اضطرّته الحاجةُ إلى إيلام عدوّه إلى أن يبحث عن أدوات أكبر أثَراً، فدخلَ مرحلة حرب السكاكين التي أعلنت عنها حركة حماس في (١٥/١٠/١٩٩٥م)، وكان أول المنتسبين إليها المجاهد (عامر أبو سرحان)، وتبعته القافلة تترى.

ثم واصل الشعب الفلسطيني عطاءه ومسيرته؛ فاستخدم الزّجاجات الحارقة، واستخدم أسلوب حوادث السيارات، كما فعل المناضل (عبد الهادي غنيم)، والمجاهد (راتب زيدان)، والمجاهد (خليل أبو علبة)، وغيرهم[1].

---

١ المناضل (عبد الهادي غنيم) من حركة فتح، قام بعمل حادث في حافلة يقودها ويستقلّها عددٌ من اليهود، فقتلَ منهم (١٥) صهيونيّاً. والمجاهد (راتب زيدان) من حركة حماس قام بدهس عدد من الصهاينة المتوقّفين على حافّة الطريق بسيّارته فقتلَ منهم ثلاثة. والمجاهد (خليل أبو علبة) قام بدهس جنود صهاينة على جانب الطريق، فقتلَ منهم ثمانية، وهو من حركة الجهاد الإسلامي.

كذلك فقد استخدم الشعب الفلسطيني أسلوب (التخريب المنظَّم)، وذلك بسرقة السيارات، وإحراق وإتلاف بعض المزروعات والممتلكات، والمثل الذي سبقَ ذكره وأشار إلى اعتراف الاحتلال بأن ٣٠ ألف سيارة إسرائيلية تُسرق سنوياً، يؤكّد على انتهاج هذا الأسلوب على نطاق واسع[١].

ولقد أحدثت هذه الأشكال المقاوِمةُ وغيرُها حالةً من الذُّعر والاضطراب في صفوف الاحتلال وقطعان مستوطنيه، فقد أفقدَتْه أمنَه وقطعت خطوط مستوطناته، وأنزلت به خسائر مادّية كبيرة، إضافةً إلى بعض الخسائر البشريّة المحدودة.

ثانياً: عمليات إطلاق النار:

وهي أول أشكال المقاومة المسلّحة التي انتهجها مجاهدو فلسطين منذ انطلق العمل الفلسطيني المقاوم، مع دخول الأفواج الأولى للاستعمار الإنجليزي مطلع القرن العشرين، ثم مع استفحال السرطان الاستيطاني اليهودي.

تواصل هذه النموذج وتطورَ مع تطور السلاح وتوفره بأيدي المجاهدين، فكان النموذج الأكثر استخداماً وشيوعاً، وخصوصاً في المراحل التي شحَّ فيها السلاح التفجيري نظراً لقلّة الإمكانات المادية، وانعدام الخبرات البشرية، وضعف التقنيات الإعدادية.

وبقيت عمليات إطلاق النار متربّعةً على صَدَارة عمليات المقاومة من حيث العدد حتى يومنا هذا، على الرغم من وجود كافة أنواع وأشكال العمليات

---

١ قناة (إسرائيل الثّانية)، في بثّها يوم ٢٢/٢/٢٠٠٥م.

الأخرى. وقد أوردت قناة (إسرائيل الأولى) بتاريخ (٢٠٠٥/٢/٨م) تقريراً إحصائياً لعدد عمليات المقاومة في السنوات الأولى لانتفاضة الأقصى، فكان عدد عمليات إطلاق النار (١٣٧٣٠) عملية، مقابل (١٣٨) عملية استشهادية تفجيرية، أي بنسبة (١) إلى (٩٩)[1].

ومع أحداث الانتفاضة الأولى، برزت عمليات إطلاق النار بكثافة، خصوصاً مع انبثاق نجم حماس، ثم بروز جناحها العسكري كتائب الشهيد عز الدين القسام في عام (١٩٩١م)، فكان أسود المقاومة الشهداء (ياسر النمروطي، وياسر الحسنات، وطارق دخان، وإخوانهم...)، ثم لمع نجم الشهيد القائد (عماد عقل) في عام (١٩٩٢-١٩٩٣م) بعد أن أبدع وابتكر وأنجز على هذا الصعيد، ليصبح أحد أعلام المرحلة وعناوينها البارزة، واستحق لقب (أسد فلسطين الملثَّم).

ثم برز المجاهدون الشهداء؛ (محمد عزيز رشدي)، و(جميل وادي)، و(عوض سلمي)، وعشرات القسّاميين الذين صوّبوا بنادقهم إلى صدور عدوّهم فأثخنوا فيه، وشفوا صدور قومٍ مؤمنين.

ولقد استطاعت عمليات إطلاق النار أن توقع في صفوف الاحتلال إصابات مباشرة وخسائر بشرية، بعد أن كانت خسائره في المقاومة الشعبية محدودةً جداً، وبدأت وسائل الإعلام تتحدّث عن جنودٍ تتهاوى، ومعسكراتٍ تُهاجم، ومركباتٍ تُضرب، وهجماتٍ تتوالى وتكثُر بعددٍ أرَّقَ الاحتلال وتركَه في حيرةٍ من أمره، فقُطعت الكثير من خطوط المستوطنات والطرق الالتفافية، مما اضطرَّ الاحتلال إلى نشر مئات الحواجز العسكرية ونقاط المراقبة، الأمر الذي

---

١ قناة (إسرائيل الأولى)، في بثّها يوم ٢٠٠٥/٢/٨م.

أوجد أهدافاً جديدةً سهلةَ الاصطياد، ومكّنَ المقاومة من استهدافها وضربها!

ومن الامتيازات التي يراها البعض لعمليات إطلاق النار، أنها تُخرج المقاومة من الحرَج الذي قد تَتسبَّبُ به العمليات الاستشهادية، التي قد تَظهر بنظر العالم أنها عمليات إرهابية، وتأخذ صدى إعلامياً واسعاً.

كما أن ردّة فعل الاحتلال على العمليات الاستشهادية عادةً ما تفوق مثيلتها من عمليات إطلاق النار، إذ قد يصل الأمر إلى إصدار قرارات الاغتيال بحق القادة السياسيّين كردٍّ على العمليات الاستشهادية في العمق الصهيوني، كما حدث مع القادة الشهداء؛ الشيخ أحمد ياسين، والدكتور عبد العزيز الرنتيسي، والمهندس إسماعيل أبو شنب، والدكتور فتحي الشقاقي...

أما صور وأشكال عمليات إطلاق النار فقد تنوّعت وتعدّدت تبعاً لطبيعة الهدف، والموقع، ونوعية السلاح، والمهمة المطلوبة. ويمكن أن تتلخص بالآتي:

أ ـ الضرب من موقع ثابت نحو هدف متحرّك:

وذلك بأنْ يتمركز المجاهدون بأسلحتهم النارية في نقطة ثابتة؛ انتظاراً لهدف متحرّك سبقَ رصدُه، كسيارة جيب عسكري، أو مستوطن صهيوني، أو حافلة ركّاب إسرائيلية، ثم الانقضاض عليها بقوة وسرعة، والنَّيل منها، ثم الانسحاب من المكان قبل وصول تعزيزات العدو، والعودة إلى نقطة الأمان.

ب ـ الضرب من موقع ثابت نحو هدف ثابت:

ويقوم ذلك على الانقضاض على معسكرٍ صهيوني، أو حاجزٍ عسكري، أو تجمّعٍ استيطاني، أو أيِّ هدف ثابت، ومباغتته وهو في غفلة من أمره، فيكون

الانقضاض من نقطة ارتكاز آمنة توفِّرُ للمجاهدين الاستتار الذي يحافظ على عنصر المباغتة والاحتماء من ردّة فعل العدو، ثم يسارع المجاهدون بعد تنفيذ المهمة إلى الانسحاب.

ج ـ الضرب من موقع متحرِّك نحو هدف متحرِّك:

وهي العمليات التي تعارف عليها المجاهدون اصطلاحاً بـ (عمليات التجاوز)، وخير من اشتُهر بها الشهيد (عماد عقل)، حيث كان أوّلَ من بدأَها. وتقوم عمليات التجاوز على أنْ تستقلَّ الخليةُ سيارةً مدنية، ثم تعمد إلى ملاحقة إحدى سيارات الاحتلال العسكرية أو المدنية دون أنْ تشعر، وعندما تحين الفرصةُ المناسبة، ينطلق سائقُ سيارة المجاهدين بالسرعة القصوى ليتجاوز الهدف، وفي اللحظة التي تصبح فيها السيّارتان متوازيتَين؛ يُطِلُّ المجاهدون بسلاحهم من نوافذ سيّارتهم، فيُفرغون ما معهم من رصاص في السيارة المستهدَفة وركّابها، ثم يواصلون سيرَهم في طريق الانسحاب. مع ملاحظة إمكانية أنْ يكون التنفيذ وجهاً لوجه، وليس بالتجاوز.

د ـ الضرب من موقع متحرِّك نحو هدف ثابت:

وقد يكون هذا الشكل أقلَّ أشكال الهجمات المسلَّحة استخداماً وشيوعاً، وعادةً ما يكون الهدف في هذه الحالة حاجزاً عسكرياً، أو دوريةً راجلة، أو صهاينة يتواجدون على محطة ركاب، فيهاجمهم المجاهدون من داخل سيّاراتهم فيُجهزون عليهم، ثم ينسحبون نحو نقطة الأمان.

هـ ـ القنص:

وهو من أساليب المقاومة قليلة الاستخدام، وذلك لأنه يحتاج إلى مهارة خاصة لا يملكها إلا من اجتهد بالتدرّب عليها، وقبل ذلك ملكَ موهبةً لممارستها. ويمتاز هذا الأسلوب بأنه لا يحتاج إلى الكثير من الرجال والسلاح، كما أنه لا يحوي نسبة مخاطرةٍ عالية تُعيق القنّاص.

وقد استخدمته المقاومة العراقية بشكل واسع، فاشتهر (قنّاص بغداد) الذي أردى مئات الجنود الأمريكيّين وحلفاءَهم، وقام بتصوير عمليّاتِه وبثّها عبر الإعلام، فشكّلت إهانةً وصفعةً للجيش الأمريكي وجنوده. بينما لم تستخدمه المقاومة الفلسطينية على نطاق واسع، وأبرز وأنجح عمليات المقاومة الفلسطينية بهذا الأسلوب هي عملية (عيون الحرامية) البطولية، وكان بطلها وفارسها (ثائر حماد) من حركة فتح، وقد أثمرت عمليته تلك عن أحد عشر قتيلاً صهيونياً، دون خسائر في المقابل، فكانت من أكثر العمليات جرأةً وقوة.

وقد نجحت كتائب القسام في قنص عددٍ من جنود الاحتلال بشكل متفرّق، خصوصاً في محيط قطاع غزة، ومنها ما بثّته عبر شريط تلفزيوني مصوَّر، في شهر أيّار من العام ٢٠٠٧م، حيث استطاعت قتل أحد جنود الاحتلال المتمركزين على ظهر دبّابة صهيونية تقف على حدود قطاع غزة.

ونلفت إلى أن السلاح الناري استخدم في معظم أشكال المقاومة الأخرى، سواء في الاغتيالات أو عمليات الخطف أو في حرب الأنفاق، بل إنّ بعض المجاهدين الذين كانوا يتوجّهون لتنفيذ عملية استشهادية تفجيرية، كانوا يصطحبون معهم سلاحاً ناريّاً صغيراً لاستخدامه وقت الحاجة.

ثالثاً: عمليات التفجير:

شكّلت عمليات التفجير، سيما العمليات الاستشهادية، التطوّر الأبرز والقفزة النّوعية في تاريخ العمل الفلسطيني المقاوم، فقد أصبحت عمليات التفجير بأشكالها عنوانَ المقاومة، والزّخمَ الحقيقي لها، وصاحبةَ الحصيلة الكبرى في إيقاع الخسائر والأضرار البشرية والمادية، والتأثير الأكبر على العدو الصهيوني، فقد ضربت عملياتُ التفجير جميعَ أصناف الأهداف الإسرائيلية.

وقد دخلت عمليات التفجير مراحل عدة صاحبت مختلف مراحل المقاومة المسلّحة، وفي كل مرحلة كان يظهر على ساحة المقاومة أبطال ورموز صبغوها بطابع خاص ومميز، ومن أبرز هؤلاء؛ الشهيد القائد والمهندس الأول (يحيى عياش)، الذي أصبح عنوان المرحلة ورمز عمليات التفجير.

وقد تطورت علميات التفجير بشكل مطّرد على كافة الصُّعد، فضاعفت المقاومة أحجام العبوات، واستخدمت مواد أكثر قوة وقدرة على التدمير، وطوَّرت أشكال العبوات وأضافت إليها الكثير من التّحسينات، وتقدمت بصورة كبيرة في كيفية التحكّم بالتفجير، بدءاً بالتفجير البدائي (السِّلكي)، مروراً بنظام الألغام، وصولاً إلى التوقيت، وانتهاءً بالتفجير الّلاسلكي عبر جهاز (الريموت) أو الخلوي (البلفون).

ولتوضيح ذلك، نعرض فيما يلي لشكلَين من أشكال المقاومة المستخدمة في هذا المجال، وهما: العبوات، والعمليات الاستشهادية:

١ ـ العبوات:

وهو التفجير بدون وجود استشهادي، ويكون بوضع عبوة ناسفة في طريق الهدف، أو في موقع اكتظاظ، ثم القيام بتفجيرها في اللحظةِ المناسبةِ إنْ كان التفجير موجَّهاً، أو تركها تنفجر وحدها إنْ كانت تعمل بالتوقيت أو بنظام الألغام.

وتُـعَـدُّ من أبرز ميِّزات هذا الأسلوب، عدمُ الحاجة إلى استشهادي لتشغيله، بمعنى عدم وجود خسائر بشرية في صفوف المقاومة، وبالتالي عدم ترك آثار مادّية تشكّل بداية الخيط الذي قد يُرشد أجهزة الأمن الصهيونية إلى كشف الخلية التي تقف وراء العمل.

ومن وسائل العبوات المستخدمة:

أ ـ اللُّغم: وهو العبوة التي لا تحتاج إلى من يفجّرها، حيث ينفجر اللغم تلقائيّاً حال مرور الهدف بقربه أو ملامسته له. ومن الألغام ما تحصل عليه المقاومة جاهزاً؛ وهو اللغم العسكري من مخلفات الحروب، أو من حقول الألغام المنتشرة في الوطن، ومنه ما يُعِدُّه المجاهدون بطريقتهم البدائية اليدوية. وقد استُخدم بكثرة في قطاع غزة. وبطبيعة الحال، فإن اللغم لا يمكن استخدامه لضرب أهداف ثابتة.

ب ـ التّوقيت: وهو نظام قديم، تكون فيه العبوة موصولةً بساعةٍ تحدِّد وقت الانفجار حسبما يضبطها المقاومون، فتنفجر وحدها في ذلك الوقت. وعادةً ما تُستخدم في الأماكن المكتظّة والأهداف الثابتة، بعكس الألغام، ولا يمكن استخدامها لأهداف متحركة.

ج ـ التحكُّم السِّلكي: حيث تُوصَل العبوة بسلك طويل، ينتهي إلى بطّارية كهربائية يحملها المقاوم المكلَّف بتشغيل العبوة، ويُوصِل قطبيها بالأسلاك لحظة التفجير. والمشكلة في هذا الشكل، أن المجاهد مضطرٌّ إلى الاقتراب منها لتفجيرها بشكل قد يعرِّضه للخطر عند الانسحاب، إلا أنها تصلح للأهداف الثابتة والمتحركة، وهي دقيقةٌ في وقت الانفجار، مما يمنحها قدرةً أعلى على إصابة الهدف، كما أنها سهلة التحكّم، ولا تحتاج إلى خبرة كبيرة في الإعداد. وقد استخدم المجاهدون هذا الشكل في طرق المستوطنات، وعلى الشّوارع الالتفافيّة، وأثناء الاجتياحات في صدِّ آليّات العدو.

د ـ التحكّم اللّاسلكي: ويكون باستخدام (الريموت)، أو (الخلوي)، وهو آخر ما استخدمته المقاومة في العبوات المتفجرة. وتمتاز هذه الطريقة بدقّتها في الإصابة، والأهم من ذلك، أنها توفّر لمستخدمها قدراً عالياً من الأمن، بحيث يمكن تشغيل العبوة في أي نقطة مهما بعدت عن موقع التفجير. ويمكن استخدامها للأهداف الثابتة والمتحركة على حدٍّ سواء. إلا أن مشكلتها الأبرز تكمن في إمكانية التشويش عليها، بحيث لا تستقبل الموجات الموجَّهة إليها، مما يعني إمكانية تعطيلها.

وإضافة إلى ما سبق، فقد استخدمت المقاومة بعض الطرق غير المنتشرة؛ كالتفجير عبر الظل، والصوت، وغيره... إلا أنها بقيت في نطاق ضيق، وتجارب محدودة لم تتكرّر.

وقد استخدمت المقاومة أكثر من نظام تشغيل في آنٍ واحد، وذلك إما بتزويد العبوة بأكثر من أداة تشغيل، أو بالاستعانة بأسلوبَينِ معاً لتجاوزِ إِشكال معين. ومثال ذلك؛ ما أعدَّه أبطال خلية (سلوان)، عندما أرادوا وضع عبوةٍ في موقع

لا تصلُ إليه خدمة استقبال (الريموت)، وفي ذات الوقت، يكون بعيداً عن نقطة الأمان مسافة تزيد عن مائتي متر، فقاموا بوصلِ العبوة بسلكٍ طوله مائتي متر، ثم شبكوا في نهايته جهاز استقبال، وابتعدوا عن المكان، ثم قاموا بتشغيل العبوة وتفجيرها عبر (الريموت)، وبهذا تجاوزوا مشكلة الأمان ومشكلة المسافة.

٢ ـ العمليات الاستشهادية:

وهي سيدة أشكال المقاومة، وصاحبة الباع الأطول في إيلام العدو وضربه في عقر داره، وإيقاع القدر الأكبر من الخسائر المادية والبشرية في صفوفه، وهي تمثل التضحية والفداء والاستعداد الكامل والصادق لتقديم الروح رخيصةً في سبيل الله، ونصرةً لهذا الوطن المسلوب.

ولقد انطلقت شرارة العمليات الاستشهادية التفجيرية على يد المجاهد الشهيد (ساهر تـمّام)، الذي افتتحَ عهداً جديداً في البطولة والتضحيات، ثم تبعه الشيخ (سليمان زيدان)، فالمجاهد (سلامة الأحمد)... وتتابعت قافلة الشَّرف موصولة، نجومها مقاتلو حماس، ثم الجهاد الإسلامي وِرداً من الزمان، إلى أنْ دخلت الحركات الفلسطينية الأخرى نادي الاستشهاديِّين، فأصبحت العمليات الاستشهادية ساحةً للتّنافس وميداناً للبذل والعطاء، ولا زالت أشواق الاستشهاديِّين العظامِ تُسجَّل بنورِ الدِّماء الزّكيّة المنبعثة من أجسادهم وأشلائهم الطاهرة.

نعم! لقد شكّلت العملياتُ الاستشهاديةُ الحلقةَ الأقوى في فرض مبدأ (توازن الردع) الذي فرضته المقاومة على عدوِّها الصهيوني، وكلّما زرعَ الاحتلالُ الخرابَ والدّمارَ والقتلَ والخوفَ في صفوف الشعب الفلسطيني

الأعزل، كانت العمليات الاستشهاديّةُ تزرع وتكرِّس حالةَ الخوف والذُّعر في قلب الكيان الصهيوني، مما أحال نهارَهم إلى ليلٍ دامس، وأمْنَهم إلى خوفٍ قاتل، واستقرارَهم إلى جزعٍ واضطراب. وأوّلُ ما تحققت تلك المعادلة في عمليّات الثّأر لمجزرة الحرم الإبراهيمي، عام (١٩٩٤م): عمليات (العفّولة) و(الخضيرة) و(دزنغوف).

واستمرت العمليات الاستشهادية حتى يومنا هذا وحقّقت نجاحاً تِلوَ نجاح، وإنجازاً عقب إنجاز، تزرع الذُّعر والقلق في قلب المحتل، ولا تترك له مدينةً إلا هزَّتْها، ولا تجمّعاً إلا ضربتْه.

وقبل أن نختم الحديث عن سلاح التفجير، نذكّر أنه استُخدم بالتشارك مع الأسلحة الأخرى في الكثير من العمليات الجهاديّة، كالسلاح الناري، وحرب الأنفاق، والكمائن الجهادية... ومن الأمثلة على ذلك، عملية (عمنوئيل) البطولية، التي استُخدم فيها سلاح التفجير وسلاح إطلاق النار، وعملية (الوهم المتبدِّد)، التي استُخدم فيها السِّلاح النّاري والصاروخي في التفجير، وأدارَها العنصر الاستشهادي، وحقّقت الجرح والقتل والخطف، ثم كان الانسحاب الآمن.

رابعاً: عمليات الاختطاف:

وتلك أكثر أساليب المقاومة إيلاماً للعدو، وأكثرها كلفةً عليه، وأشدّها جرأة، وأعلاها صدىً إعلامياً.. ويلجأ إليها المقاومون عموماً في محاولةٍ لمساومة الاحتلال على إطلاق سراح الأسرى الأبطال في سجون الاحتلال، مقابل إطلاق سراح الأسير الصهيوني الذي اختطفته المقاومة في عمليّتها.

إلا أنّ المقاومةَ تحقّق من خلال عمليات الخطف أهدافاً أخرى، منها الحصول على معلوماتٍ أمنيّةٍ من خلال التحقيق مع الأسير (العسكري خصوصاً)، كما حصل مع خطَفةِ رجل المخابرات الصهيوني (ساسون)، ومنها ضرب معنويّات العدو والتّأثير على جنوده، ورفع معنويات المقاتلين والأسرى والشعب.

ومن أبرز عمليات تبادل الأسرى التي شهدتها فلسطين؛ صفقة التبادل التي نفّذتها (القيادة العامة)، المعروفة بصفقة (أحمد جبريل)، والتي جرت عام (١٩٨٥م)، وأُطلق بموجبها سراح (١١٥٠) أسيراً فلسطينياً من سجون الاحتلال، ومنهم الشيخ (أحمد ياسين)، مقابل الإفراج عن ثلاثة جنود صهاينة كانوا قد وقعوا أسرى في يد الجبهة أثناء غزو لبنان. ثم تكرّرت المحاولات مراراً، منها ما نجح نجاحاً مجزوءاً، ومنها ما فشل فشلاً مُطلقاً.

وقد عملت حركة حماس طوال الانتفاضة الأولى، وفي عهد أوسلو، وفي انتفاضة الأقصى، على اختطاف عدد من جنود الاحتلال، فنجحت في أسر بضعة عشر جندياً، بدءاً من الجندي الصهيوني (آفي سبسورتاس)، الذي تمّ اختطافه في العام (١٩٨٩م)، و(إيلان سعدون)، و(نسيم طوليدانو)... وصولاً إلى رجل المخابرات (ساسون)، الذي اختُطف في العام (٢٠٠٥م).. إلا أن أياً من هذه العمليات لم يؤدِّ إلى عقد صفقة تبادل أسرى مع الاحتلال، فكان مصيرهم القتل دون مقابل.

وأخيراً كان أسر الجندي الصهيوني (جلعاد شاليط)، في عمليةٍ غاية في الروعة والإتقان، أطلقت عليها الكتائب اسم (عملية الوهم المتبدِّد)، ولا زالت الحركة تتربّع على صدارة هذا اللون من العمليات منذ الانتفاضة الأولى بصورة شبه مطلقة لا يجاريها فيها أحد.

خامساً: الاغتيالات:

وهو أسلوب ناجح من أساليب حرب العصابات التي استخدمها المقاتلون عبر التاريخ، كان هدفه الأساس التخلّصَ من قادة الخصمِ ورموزِه ومفكّريه، وإصابته بالذُّعر وضرب معنوياته، والظهور بمظهر القادر على إنجاز أي مهمة، والوصول إلى أي هدف تختاره (الجاريلا)، وتحقيق انتصار إعلامي وسياسي.. ثم تثبيت مبدأ توازن الرَّدع، والردّ على اعتداءات العدو واغتيالاته لقادة (الجاريلا).

وقد استخدم رسول الله ﷺ هذا الأسلوب مراتٍ عديدة، كان أكثرها في حقّ اليهود، وذلك لمكرهم وحقدهم على الإسلام، وسعيهم الدّائم إلى حشد أعداء الإسلام في مواجهته، محاولين النَّيلَ من هذا الدين وأبنائه. ومن أبرز تلك الاغتيالات التي تزخرُ بالعِبَر؛ حادثتي اغتيال رأس الكفر اليهوديَّين: (كعب بن الأشرف)، و(سلام بن حقيق).

وقد استطاع ﷺ من خلال هذه الاغتيالات أن يحمي المسلمين من فِتَنٍ عاصفة ومعارك هوجاء، وأن يفرِّق جماعات كانت تخطّط لضرب الإسلام في عقر داره، فأراح الله المسلمين من شرورهم، ومن الدخول في حروب لا يعلم ثمنها إلا الله.

واستَخدمت الدول والجماعات في العصر الحديث أسلوب عمليات الاغتيال في حالاتٍ كثيرة، بحقٍّ وبغير حق، ولعل أكثر من استخدم هذا الأسلوب، وبحقِّ الشعب الفلسطيني المرابط تحديداً، هو الاحتلال الصهيوني، فانتهجه أسلوباً يتخلّص من خلاله من أي مجاهد أو مناضل أو مفكِّر أرَّقَه. ومن أبرز

ضحايا الاغتيال؛ الشهداء (أحمد ياسين، عبد العزيز الرنتيسي، خليل الوزير «أبو جهاد»، صلاح خلف «أبو إياد»، فتحي الشقاقي، أبو علي مصطفى، غسان كنفاني، إسماعيل أبو شنب، إبراهيم المقادمة، كمال عدوان، كمال ناصر، سعد صايل، صلاح شحادة، يحيى عياش، وغيرهم الكثير...).

كما حاول الاحتلال اغتيال (خالد مشعل)، رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إلاّ أنّ محاولته باءت بالفشل، وردَّ الله كيدَهم إلى نحورِهم.

لذا، كان من المناسب أن يكون الردُّ على جرائم الاحتلال بالمثل، حتى نحقّقَ النِّكايةَ والردع، ولكنْ إحقاقاً للحق، فإن تجربتنا الفلسطينية متواضعة جداً في هذا المجال، إذ لم تنجح في إحداث ثغرات بارزة في هذا الجدار (جدار أمن الشخصيّات الإسرائيلية)، و لم تتمكّن من الوصول إلى أيٍّ من قادتهم ورموزهم البارزين، رغم تكرار المحاولات.

وقد أجاد رفاق (الجبهة الشعبية) في عملية اغتيال الوزير الصهيوني الحاقد (رحبعام زئيفي)، صاحب فكرة (الترانسفير)، والذي تمكّن مقاتلو الجبهة من الوصول إليه في الفندق الذي يقيم فيه، فقتلوه ردّاً على اغتيال الأمين العام للجبهة الشعبية (أبو علي مصطفى).

لقد جرت محاولات عديدة للوصول إلى رؤوس الاحتلال، إلا أنها بقيت محاولاتٍ محدودةً لم يرافقها الكثير من الإعداد، ولذا لم يحالفها النجاح، ومنها محاولة مجاهدي إحدى خلايا (القدس) اغتيال الإرهابي أولمرت، ومحاولة اغتيال (شارون)، إلا أنها لم تُوفَّق و لم يكتب لها النجاح، بل إن أكثرها لم يخرج عن دائرة الرسم والتخطيط. بينما خَطا الإخوةُ خطواتٍ أوسع لملاحقة بعض الرموز

الميدانية للعدو وضربهم، فكثيراً ما حدّدَ المجاهدون هدفهم (زعيم مستوطنة)، أو (حاخام منطقة) أو (مختار بلدة)، فوصلوا إليه وقتلوه، ثأراً لدماء شعبهم، كما فعل المجاهد (أحمد الفليت).

ومن المحاولات المتقدّمة التي يجدر ذكرها، على الرغم من أنها لم يُكتب لها النجاح الكامل؛ عملية خلية (سلوان)، والتي تمكّنَ المجاهدون فيها من زرع عبوة ناسفة أسفل سيارة ضابط صهيوني كبير في الجيش الاحتلالي كانوا قد رصدوه، إلا أنَّ العبوة لم تنفجر، فتمَّ اكتشافُها، ومن ثم تفكيكها.

سادساً: حرب الأنفاق:

بسبب الحصار الخانق الذي فرضته قوات الاحتلال في قطاع غزة، والعُزلة التامة التي وضعوه فيها عبر الجدار الإلكتروني السِّلكي الذي يحيط به من كل أطرافه، اضطرت المقاومة الفلسطينية إلى البحث عن طرقٍ جديدةٍ ومسالكَ ملتويةٍ تصلُ عبرها إلى قلب عدوِّها فتصيبُه في مقتل، فقامت بمحاولات عديدة متنوّعة مكاناً وزماناً وشكلاً لاختراق الأسوار واقتحام المستوطنات والمعسكرات، فنجحت وأخفقت، لكن الاحتلال ضاعفَ من احتياطاته الأمنية والعسكرية المحيطة به وبكل موقع، حتى أصبح كل تجمّع استيطاني أو عسكري أشبه ما يكون بالحزام الأمني.

بحث المجاهدون عن أسلوب يتجاوزون فيه كلَّ هذه التحصينات، فقدَحت في أذهانهم فكرةٌ سرعان ما أصبحت قراراً، ثم كان التنفيذ: أسلوبٌ جديدٌ غاية في الروعة قامت فكرته على تجنُّب المرور عبر حزام الأمان الذي يحيط

بالمعسكرات، والوصول إلى الهدف دون استخدام سطح الأرض المكشوف للرقابة، فكان الوصول عبر باطن الأرض بالحفر على عمق بضعة أمتار عموديّاً، ثم الحفر الأفقي لمسافة تصل إلى مئات الأمتار، ومن ثم مفاجأة العدو في عقر مأمنه، والانقضاض عليه من أسفل بقوة التفجير، وإطلاق النار، مدعوماً بسلاح الاستشهاديِّين الذين اختاروا لقاء ربهم عوضاً عن العودة إلى الأهل والأحباب.

وقد حقّقت عمليات الأنفاق نجاحاً رائعاً فاجأَ الصَّديقَ وأذهلَ العدو، فشكَّلت له أرَقاً وذُعراً جعله يُعيد حساباته، ويهرع إلى محاولة إيجاد الحلول التي لم تُغنِ عنه شيئاً، فأدخلَ ما يملك من علم وتكنولوجيا وخبرات، واستعان بأذنابه وعملائه، ثم بالسلطة الفلسطينيّة وأجهزتها الأمنية، إلا أنّ كلَّ ذلك لم يفِ بالغرض، ولم يمنع الأبطال من مواصلة الحفر والوصول إلى أهدافهم، وتكرار محاولاتهم مصحوبةً بتطوير الأسلوب، حتى باتت (حرب الأنفاق) عاملاً مهماً من العوامل التي سرّعت في قرار الاحتلال بالانسحاب من قطاع غزة.

لقد شكّلت عمليات الأنفاق قفزةً نوعيّةً في العمل الفلسطيني المقاوم، ومثّلت تطبيقاً مثالياً للحكمة القائلة: (الحاجة أم الاختراع)، فكانت كتائب القسام وَلُوداً للاختراعات التي جعلت التفوّق العسكري والتّقني الصهيوني لا يقف حائلاً دون استمرار المقاومة وتواصل نجاحاتها في ضرب عدوِّها، ولا زالت عمليات الأنفاق منذ ذلك الحين حصراً على أبناء كتائب القسام وأبطالها.

سابعاً: الصواريخ:

وهو آخر ما تفتّقت عنه عقليّة البحث والتطوير الفلسطينية المحلّية. وكان إنتاج أول سلاح صاروخيٍّ فلسطيني بتاريخ (٣٠/١٠/٢٠٠١م)، إذ أعلنت كتائب الشهيد عز الدين القسام عن إنتاج صاروخ (قسام ١)، الذي أصبح اسمه علامةً مسجَّلة يُقِرُّ بها العدو والصديق، وتُطلق على كلِّ النّماذج المماثلة لهذا الصاروخ.

وأول ما صُنع صاروخ (قسام ١)، كان بمدى إطلاق لا يتجاوز (١٦كم)، وطول (١٥متراً)، ووزن يقل عن (٣٠كغم)، ليفتح باباً واسعاً من الإنتاج والتطوير الصاروخي بعده، فكان صاروخ (قسام ٢)، و صاروخ (القدس)، وصاروخ (الأقصى)، وصاروخ (ناصر)، وصاروخ (الياسر)، كلُّها على خطى صاروخ القسام الأول، وبذات أسلوبه ومبدئه التّشغيلي، فقد نقلت كتائب القسام المعلومات والخبرة والتجربة إلى سائر فصائل المقاومة الفلسطينية، سعياً منها لتعميم التجربة وتوسيع العمل وتطوير القدرات في ضرب العدو الصهيوني.

ثم قفز الإنتاج الصاروخي الحمساوي قفزةً أخرى بتصنيع صواريخ مضادّةٍ للدُّروع، تحت مسمَّيات: (صاروخ البنا، صاروخ الياسين، صاروخ البتّار)، والذي أثبت نجاعةً في التصدّي لآليّات العدو المدرَّعة أثناء محاولاتها اجتياح مدن ومخيمات قطاع غزة.

وقد صرّحَ أحد مقاتلي كتائب القسام، وحدة سلاح التّصنيع، في برنامج (في ضيافة البندقية)، الذي بثّته قناة الجزيرة في حزيران من العام (٢٠٠٦م)[١]،

---

١ برنامج (في ضيافة البندقيّة) ـ قناة الجزيرة الفضائية، حزيران/٢٠٠٦م.

أنّ قاذف (RBJ) كان يكلّف خزينة الكتائب أكثر من أحد عشر ألف دولار أمريكي للسلاح الواحد، بينما يتمُّ تصنيعه اليوم بأيدي أبطال الكتائب تحت مسمَّى (الياسين)، بتكلفةٍ لا تتجاوز مئتي دولار أمريكي.

ولقد استطاعت صواريخ القسام إيقاع خسائر بشرية ومادّية في صفوف الاحتلال، إلا أنّ الأثر النّفسي والمعنوي الّذي خلّفه الصاروخ في مستوطِنيْ المغتصبات المحيطة بقطاع غزة ومدن الاحتلال القريبة، بل وفي قادة حكومة الاحتلال وأركان جيشه وأجهزته الأمنية، فاقَ الأثر المادي والبشري، حتى أصبح كابوساً يزرع فيهم الرعب والاضطراب، بل وأوجد (الهجرة الداخليّة الصهيونية)[١]؛ فكان مستوطنو المناطق المستهدفة يفرّون من حِمم الصواريخ نحو مناطق ومدن أخرى توفّر لهم مزيداً من الأمن، كما حصل على سبيل المثال في مدينة (اسديروت) في شهر أيار من العام (٢٠٠٧م)، عندما أخلى أكثر من نصف المستوطِنين بيوتَهم نحو الشمال، هرباً من كثافة الصّواريخ القسّامية.

وقد شكَّلَ صاروخ القسام عاملاً أساسياً في تثبيت مبدأ (توازن الرَّدع) الذي ابتدأتْه العمليات الاستشهادية، وكثيراً ما أبدى الاحتلال استعدادَه لوقف اعتداءاته ضد الشعب الفلسطيني والدخول معه في هدنة، مقابل وقف إطلاق الصواريخ على تجمّعاته.

وكان صاروخ القسام عاملاً إضافياً دفعَ العدوَّ إلى تسريع انسحابه من قطاع غزة، كما أوجد وسيلةً أخرى للوصول إلى العمق الصهيوني دون الحاجة إلى

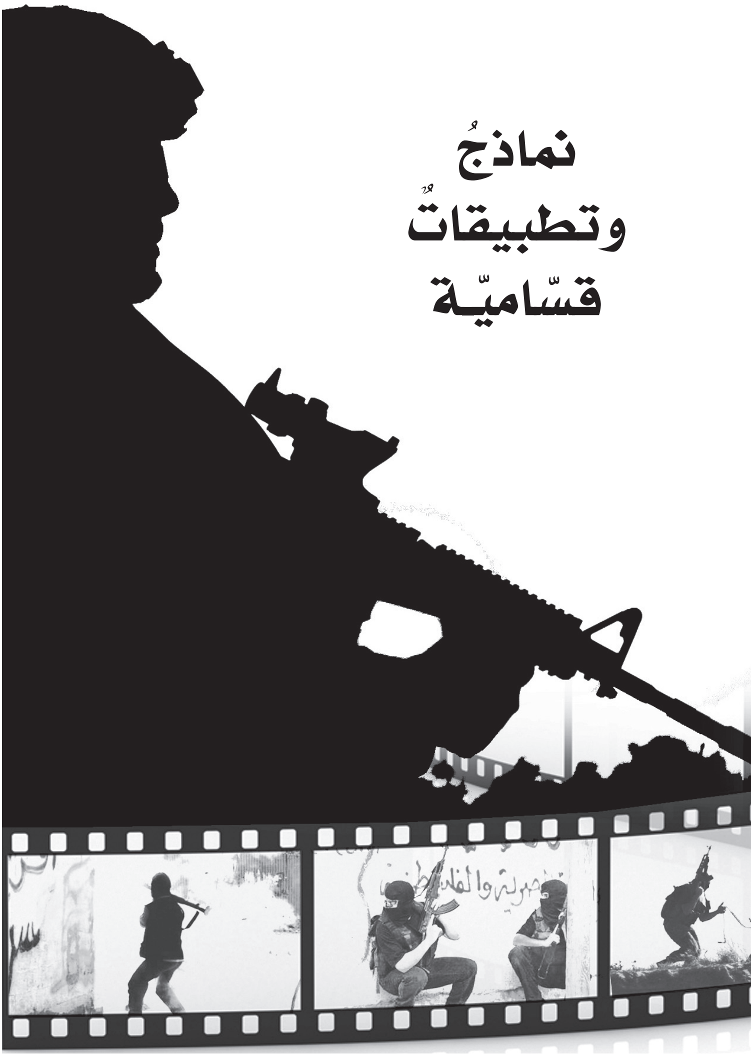
١ «اضطرّت سلطة الضّرائب إلى التخفيض على السكّان في مدينة اسديروت بـ (١٣٪)، جرّاء تعرّضها الدّائم لصواريخ القسّام، التي أدّى سقوطها إلى هجرة السكّان منها». صحيفة (يديعوت أحرنوت)، في عددها الصادر في ٢٤/١١/٢٠٠٦م.

اختراق التّحصينات الأمنيّة المشدَّدة والجُدُر الإلكترونية والإسمنتية التي كانت تفصل المجاهدين عن هدفهم.

وكان أول من حاز شرف إنتاج أول صاروخ (قسّام)، الشهيد البطل (نضال فرحات)، بينما يُنسب إلى الشهيد (عدنان الغول) الفضل في تطوير وتصنيع صواريخ القسام وتقديم المساعدة المباشرة والعون النّظري والعملي والمادي للأجهزة العسكرية التابعة لفصائل المقاومة على ساحة (غزة) لصنع صواريخ مماثلة.

* * *

نماذجُ وتطبيقاتٌ قسّاميّـة



نماذج وتطبيقات قسّامية

في الصفحات القادمة، سنعرض نماذج من عمليات المقاومة الفلسطينية القسّامية، كأمثلةٍ على الوسائل والأساليب التي تعرّضْنا لها في الصفحات السابقة.

وقد ذكرنا أنّ المقاومةَ استخدَمت في عمليّاتها أساليب قتاليّة منفردة، واستخدمت في عمليات أخرى أساليب قتالية مُشتَركة؛ فدمجت بين الإطلاق والتفجير، وأشركت العمل الاستشهادي بالجهد الاستخباري، ووظّفت الأنفاق في خدمة الهجمات النّارية والتّفجيريّة وعمليات الخطف وهكذا...

ومن الأمثلة الكبيرة التي تستحقّ الاستدلال بها، عملية (السَّهم الثّاقب)، التي استخدم فيها المقاومون الأسلوب الاستخباري (العميل المزدوج)، وحرب الأنفاق، والسلاح النّاري مع السلاح المتفجِّر، إضافةً إلى سلاح الاستشهاديِّين.

فإلى هذه النماذج..

المقاومة الشعبية:

أ ـ حرب السّكاكين:

عملية يافا

الزّمـان: ١٤/٢/١٩٩٥م.

المكـان: مدينة يافا.

المنفِّذون: مروان الزايغ ـ غزة (شهيد)، وأشرف البعلوجي ـ غزة (مؤبَّد).

النتيجة: ثلاثة قتلى.

حلَّتْ الذكرى الثالثة لانطلاقة حركة المقاومة الإسلامية حماس، فقرَّرَ بطَلانا: مروان وأشرف، الاحتفال بالمناسبة على طريقتِهما الخاصة، وتقديم هدية الانطلاقة إلى الشعب وشهدائه.

كان الأخَوانِ يعملان في مدينة يافا المحتلّة، فخَبِراها وعرَفا تفاصيلها بشوارعها وبناياتها، فأعدّا نفسيْهما إعداد من يَقدُم إلى لقاء ربِّه. ومع فجر ذلك اليوم، حزَما طعامَهما، وأخْفَيا به سِكّينَينِ لتنفيذ المهمة، وانطلقا صوب هدفَيهما متوكِّلين على الله عزَّ وجل، سائلينَه التوفيق والنجاح.

وصَلا المصنع الإسرائيلي الذي يعملان فيه ويعرفانه حقَّ المعرفة، كان الوقت مبكَراً، و لم يفتح المصنع أبوابَه بعد، فانتظرا حتى حضرَ العامل المسؤول عن فتح المصنع، فتبعِاه إلى الداخل، وبشكلٍ مباغتٍ انهالا عليه بالسكّين طعناً، فأرْدياه قتيلاً على الفور، ثم قاما بإخفاء الجثة وإزالة آثار الدماء انتظاراً لقادم جديد، فلم تنتهِ مهمّتُهما بعد.

جاء العامل الثاني بعده بقليل، ففعلا به ما فعلاه مع زميله الأول، وألحقاه به،

ثم جلسا انتظاراً للتالي، وكانت مجنّدةً صهيونيةً في جيش الاحتلال، فانقضّا عليها طعناً بالسكّين، حتى وقعت صريعةً ملطَّخةً بدمائها.

أثناء ذلك، أُصيب المجاهد (أشرف) بجراح عميقة في يده، جرّاء ضربةٍ خاطئةٍ بالسكّين، نزفَ على إثرها دماءً غزيرةً بدأت تُفقده توازنَه وقدرته على الاستمرار، عندئذ قرّرا تعديلَ الخطة، والانسحابَ من الموقع، والاكتفاءَ بما أنجزاه، مع أنّ عزمَهما ونيّتهما كانت الاستمرار...

وقبل الانسحاب، كتَبا بالدِّهان على جدران المصنع شعاراتٍ حمساويّة، تعلن مسؤوليّة الحركة عن التنفيذ، وأنهما جاءا احتفالاً بذكرى الانطلاقة، ثم بدءا بالانسحاب. توجَّه الأخ مروان إلى قطاع غزة، بينما آثر الأخ أشرف الانسحاب إلى مدينة رام الله، خشيةَ انكشافِ أمرِه على حاجز إيرز، بسبب الإصابة في يده.

جُنَّ جنون الاحتلال، وبدأ يضربُ يمنةً ويسرةً علَّه يصل إلى المجاهدَين، وقام بحملة اعتقالات شرسة هي الأوسع في ذلك الحين بحقِّ قيادات وعناصر وأنصار الحركة في الضفة الغربية وغزة، حتى زاد عدد المعتقلين فيها عن (١٤٠٠) مجاهد.

ب ـ استخدام السيارات في المقاومة الشعبية:

الزمان: ١١/١٠/١٩٩٥م.

المكان: تل الربيع (تل أبيب).

المنفِّذ: راتب زيدان ـ قِبية/رام الله، (مؤبَّد).

النتيجة: مقتل ثلاثة جنود، وجرح آخرين.

في ذكرى مجزرة (قِبية)، كان (راتب) على موعد مع الثأر، فقد انتظر حلول الذكرى لينفّذ هجومَه فيُعلِّم المحتل أن مجزرته البشعة ستبقى محفورةً في ذاكرة أبناء القرية وأبناء فلسطين، لتشكّلَ مُلهِماً ودافعاً لمواصلة الجهاد والمقاومة، وأنه سيدفع ثمن جريمته مراتٍ ومرات.

استيقظ مجاهدُنا فجراً، توضَّأ وضوءَه للصلاة، ودّع زوجته وقبّلَ أولاده، ومضى إلى مسجد القرية لأداء صلاة الفجر. ثم انطلق بسيارته وعيونُه تنظر إلى حواري وبيوت وأراضي القرية نظرةَ مودِّع، وولّى وجهَه شطر (تل الربيع)، لتكون مسرحَ بطولتِه.

طاف (راتب) كالنسر محلِّقاً فوق أرضه، عيناه تحدّقان ذهاباً وإياباً تبحثان عن فريسة ينقضُّ عليها، حتى وجد ضالّته، محطة انتظارٍ تعجُّ بجنود الاحتلال، فأطلق لسيّارته العنان لتدوس رؤوس المحتلّين، فتجعلهم كعصفٍ مأكول بين قتيلٍ وجريح.

ومن الأمثلة الأخرى على عمليات المقاومة الشعبية وحرب السّكاكين؛ ما نفّذه كلٌّ من المجاهِدين: عامر أبو سرحان، عماد زيدان، إياد البطّاط، وهيب أبو الرب، زيد الكيلاني، ماهر أبو سرور، أحمد الفليت، منصور ريان، هيثم

جملة، فؤاد أبو العمرين، هاني جابر، ومجموعة عملية مصنع كارني، ووحدة بدر، وخلية البلدة القديمة في الخليل، وأمثلة كثيرة أخرى...

ومثلها أمثلةٌ على عمليات المقاومة الشعبية الأخرى: السيارات، والحجارة، والزجاجات الحارقة. ومنهم المجاهد الشخشير، وساهر التمام، ومجموعة المساكن الشعبيّة ـ نابلس...

عمليات إطلاق النار:

أ ـ إطلاق النار من موقع متحرِّك نحو هدف متحرِّك:

عملية الشجاعية

الزمان: ١٩٩٢/١٢/٧م.

المكان : حي الشجاعية ـ مدينة غزة.

المنفِّذون: عماد عقل ـ غزة، وكان مسؤول الخلية، (شهيد).

جميل وادي ـ غزة، وهو سائق المجموعة، (شهيد).

حمدي انصيو ـ غزة.

النتيجة: مقتل ثلاث جنود.

وهي من أوائل عمليات التجاوز التي أبدع فيها القائد عماد. حيث انطلق الأبطال بسيّارتهم وقد اتّخذ كلٌّ موقعَه، وتوجّهوا صوب الشارع الذي حدّدوه مسبقاً، ثم سارت السيارة على مهلٍ انتظاراً لمرور الهدف، وبعد قليل لاحَ جيب عسكري من بعيد يتّجه صوبهم، فأعطى القائد عماد أوامرَه بأنْ تبقى السيّارة على سيرها الطبيعي؛ لأنهم لا يريدون مهاجمة وجه لوجه، بل الانقضاض على الجيب من نقطة ضعفه من الخلف.

وهكذا تخطّاهم الجيب، بينما بقوا في مسارهم، وما أن اختفى عن أنظارهم حتى استدارت السيارة بسرعة، وانطلقت تلحق بفريستِها، وتأهّبَ البطلان للمهمة: عماد يتكفّل بالجندي الجالس في المقعد الخلفي، بينما يقوم أحمد بمهاجمة الجنديَّينِ الجالسَينِ في المقدِّمة.

تقدَّم جميل بمهارةٍ حتى أصبحت السيارة بمحاذاة الجيب، وتلاقت المرآتان، وفي تلك اللحظة ضغطت الأصابع على الزِّناد، وانطلقت الحناجر بالتّكبير، واندفعت الرَّصاصات لتستقرَّ في أجساد الجنود الثلاثة الذين تملَّكتْهم الحيرة، فلم يستيقظوا منها إلا وقد تخطَّفهم الموت. وعندئذ ضغطَ جميل على دوّاسة البنزين ليغادروا الموقع آمنين.

ومثلها كانت مجموعةٌ من عمليات الشهيد عماد عقل وإخوانه: عملية الخليل في ٢٢/١٠/١٩٩٢م، وعملية الحاووز في ١٢/١٢/١٩٩٢م، وعملية تقّوع في ٨/٧/١٩٩٣م، وعملية (كريات أربع) في آذار من العام ١٩٩٣م، وعملية (قرن ثور) في نيسان من العام ١٩٩٣م. وعمليات خلية صوريف: في ٧/١/١٩٩٦م، وفي ٢٧/٧/١٩٩٦م، وعملية مفرق بني نعيم في ٨/١٢/٢٠٠٠م، وعملية الفحص في كانون الأول عام ٢٠٠٥م.

ب ـ إطلاق النار من موقع متحرِّك نحو هدف ثابت:

عملية عصيون

الزمان: ١٧/١٠/٢٠٠٥م.

المكان: موقف حافلات (عصيون) ـ الخليل.

المنفِّذون: محمد الجولاني ـ الخليل، وهو سائق المجموعة.

شكيب العويري ـ الخليل.

موسى وزوز ـ الخليل.

النتيجة: ثلاثة قتلى، وأربعة جرحى.

(عصيون)، مستوطَنةٌ صهيونيّةٌ قريبةٌ من مدينة الخليل، حصينةٌ في موقعها، تحيطها مستوطناتٌ وحواجزُ ومعسكراتٌ وأبراجُ مراقبة، وكانت الطريق المؤدِّية إليها خَطِرةً لكثرة المركبات الإسرائيليّة المارّة فيها، ولكثرة الحواجز الثّابتة والطيّارة الموجودة بصورة شبه دائمة عليها، مما جعلها ذات حصانة ومنعة.

قرّر المجاهدون اختراق حصانتها، وضرب الغاصبِين على أبوابها، وتقديم ضربتهم هديّةَ ثأرٍ في الذكرى الهجرية لمجزرة الحرم الإبراهيمي في ١٥ رمضان. عرضَ محمد الفكرةَ على إخوانه، فلم تلقَ بادئ الأمر قبولاً، وذلك لخطورتها وارتفاع نسبة المراهنة والمجازفة فيها، إلا أنّ الجميعَ تدارسَها بعد أن قُدِّمت التفاصيل الكاملة للخطّة المقترحة، فاتّفقوا على الشُّروع في الإعداد لها..

وعلى مدخل المستوطنة، يوجد موقفٌ للحافلات الصهيونية، يقف عليه سكّان المستوطَنة انتظاراً لحافلات ومركبات تُقلّهم في طريقهم إلى مستوطنة (كريات أربع) وغيرها من المستوطنات والمعسكرات الصهيونيّة المحيطة، فاتّفقَ الإخوة على أن يكون هذا الموقف مقصدهم، ولعلمهم بخطورة الموقع، قرّروا

الاعتماد على مبدأ السّرعة والمباغتة؛ بحيث لا يستغرق الهجوم والانسحاب أكثر من بضع دقائق، يصلوا بعدها إلى منطقة الأمان.

وفَّرَ الإخوة رشاش (كارلو غوستاف)، إضافةً إلى رشاش المجموعة (الكلاشنكوف)، وذلك لزيادة قوّتهم الضاربة، مما يوفّر لهم نتائج أفضل، وسرعةً في الأداء، وقدرةً على مواجهة أي طارئ.

أَعدَّ المجاهدون أنفسَهم كما اقتضت الخطة، وانطلقوا للعمل.. حتى وصلوا الموقع قُبيل المغرب بقليل، فوجدوا فيه ما لا يقلُّ عن اثني عشر مستوطناً يهودياً يقفون في المحطة، ولا تقف معهم أيُّ حراسة، ففرحوا بذلك واستبشروا بنجاح المهمة، ثم واصلوا السّيرَ في الشارع لتفحّصه، ففوجئوا بوجود حاجز عسكري يربض قريباً من مدخل مخيم (العرّوب)، وشعروا بأن هذا الحاجز سيُفشل مهمّتهم. وبعد دراسةٍ للمعطياتِ الجديدة، ومراجعةٍ للخطّة، وتشاورٍ فيما بينهم، قرَّرَ الإخوة اعتبارَ مهمّتِهم استشهاديةً، وأنْ يُقدِموا على تنفيذها مهما كلّفَ الأمر، فوجود هذا العدد الكبير من المستوطنين يغري بالتنفيذ، واستعداداتهم السابقة والطويلة تعطي فرصةً جيدةً للنجاح.

عاد الإخوةُ إلى موقع التنفيذ، وقبالة المحطة ومن فيها من المستوطِنين، أطلَّ المجاهدان شكيب وموسى من النافذة بأسلحتِهم، وشَرَعا بإطلاق النار، حيث أطلق شكيب كميةً كبيرةً من الرصاص من سلاحه (الكلاشنكوف)، فيما تعطّلَ سلاح موسى (الكارلو)، و لم يُطلق أي رصاصة.

ثم سارعوا بالانسحاب، وقاد محمد السيارةَ بالسرعة القصوى باتجاه الحاجز، وأخذَ شكيب وموسى يُعِدّان السلاح من جديد؛ استعداداً للاشتباك

مع الجنود المتواجدين على الحاجز إنْ لَزِمَ الأمر. فعلاً، وصلَ الإخوة إلى الحاجز الذي يبعد عن موقع التنفيذ أقل من كيلو متر واحد، وتوقّعوا أنْ يكونَ الجنود بانتظارهم، فوجدوا أنّ الأخبارَ لم تصل إليهم بعد، وأصوات الرصاص لم تتناهَ إلى مسامعِهم، فمرَّ مجاهدونا بسلام، وانطلقوا في طريق العودة فَرِحينَ بما وفّقهم الله إليه.

ومن العمليات التي نُفِّذت بذات الأسلوب:

عملية حاجز (دورا القرع)، في ٢/١١/٢٠٠١م، وعملية (كريات أربع)، وعملية (حجاي) في حزيران ٢٠٠٥م.

ج- إطلاق النار من موقع ثابت نحو هدف متحرِّك:

عملية (غان تال)

المكان: مستوطنة (غان تال) - غزة.

الخلية: إبراهيم سلامة - خانيونس/غزة، (شهيد).

براء الأغا - غزة.

جمال موسى - غزة، وهو سائق المجموعة.

النتيجة: قتل جنديَّين وإصابة ثالث، وغنيمة سلاح رشاش.

جاءت أعين الرَّصد بصيدٍ ثمين؛ جيب عسكري يتجوّل منفرداً في الشارع الأمني لمستوطنة (غان تال)، فكان قرار الإخوة وعلى رأسهم جنرال الكتائب (جميل وادي) ضربَه والاستيلاءَ على سلاح الجنود فيه، فاستدعى المجموعة، ووضعهم بالصورة، وتدارسوا التفاصيل، وأعدّوا خطّةَ الهجوم.

انطلق الأبطال: إبراهيم، وبراء، وجمال، مع ساعات الفجر الأولى صوب المستوطنة، وعند نقطة محدَّدة، ترجَّلَ المجاهدان؛ إبراهيم وبراء، وتقدَّما من السلك الشّائك المحيط بالمستوطنة، وبدءا بالحفر أسفلَه بهمةٍ وسرعة، ذلك أنّ الخطّة التي رسموها تقتضي بأنْ يتسلَّلا من تحت السلك، لكنهما اصطدما بسورٍ أسمنتيٍّ مدفونٍ في الرمال منعَهما من التقدّم..

أُصيب الأخَوان بصدمة وحيرة، ولكنْ لمعرفةِ براء بالمنطقة، أشارَ إلى موقعٍ قريب يحوي مدخلاً بديلاً، فانطلقا إليه دون تردُّد، ووجَدا مدخلاً مناسباً نَفذا منه إلى الداخل.

لم يكن موقع التنفيذ مثالياً، فالاحتلال أحكم حراسته للمستوطنة، ولم يترك في المحيط أشجاراً أو سواتر طبيعية تسمح للمهاجم أن يحتميَ بها أو يستترَ خلفها. كما وجدَ المجاهدان شارعاً ترابيّاً أمنيّاً يحيط بالمستوطنة ليزيدَها حصانةً ومنَعة، إلا أن الأبطال تخيَّرا شُجيراتٍ صغيرةً أشبه بالحشائش المرتفعة تنمو على حافّة الطريق فاحتميا بها، وكادا أن يدفنا نفسيهما بالرمال حتى لا يظهر منهما شيء. بل وزيادةً على ذلك، وإحساناً لعنصر المباغتة، فإنهما كَمَنا في الجهة الدّاخلية للشارع الأمني، أي بعكس ما يتوقّعه جنود الدورية، وبعكس ما ستتوجّه إليه أنظارهم واهتمامهم.

كمن الأبطال انتظاراً لهدفهم بقلوبٍ كالصخر، وعيونٍ كالصقر، وألسنٍ تلهج بالدعاء والذِّكر، وأيدٍ تقبض على بندقية (كارلو غوستاف)، مكتوب على حزامها (كتائب القسام ـ خانيونس)، وبندقية (M١٦) غَنِمَها المجاهدون من الجندي الصهيوني (ألون كورثاني) بعد اختطافه.

مرَّت الدورية فانقضَّ عليها إبراهيم بكلِّ ما حواه سلاحُه من رصاص، وبراء يحمل سلاحاً معطَّلاً، والأخَوان لا يعلمان ما حصل مع ركّاب الجيب. وبعد لحظات، خرجَ الجندي الثالث الجالس في المقعد الخلفي، وقد ظنَّ أنّ المجاهدَين انسحبا، وبدأَ بمحاكاةِ زملائه، ولما وجدَهم صرعى بدأ بالصراخ، وتوجّه نحو السلك الشائك، وأخذَ يُطلق الرَّصاص باتجاه الخارج حتى أفرغ مخزن الرصاص، ثم انطلق يعدو مبتعداً عن المكان، وعندئذ سارع إبراهيم إلى تبديل مخزن الرصاص، ثم انطلقَ خلفه يطلق الرصاص عليه حتى أصابه.

عاد الأخَوان إلى الجيب، وأخرجا قطعة السلاح الأولى، وحاولا إخراج الثانية، لكنها كانت عالقةً تحت الجندي القتيل، فتركاها وسارعا بالانسحاب بعيداً عن المكان.

عمليات أخرى بذات الأسلوب:

عملية مسجد مصعب بن عمير رضي الله عنه، في ١٩٩٣/٩/١٤م، وعملية ليلة القدر في ١٩٩٣/٣/٢٠م، وعملية (عمنوئيل) الأولى في ٢٠٠١/١٢/١٢م، و(عمنوئيل) الثانية في ٢٠٠٢/٧/١٧.

د ـ إطلاق النار من موقع ثابت نحو هدف ثابت:

عملية التلة الفرنسية ـ القدس.

الزمان: ١٩٩٢/٩م.

المكان: التلّة الفرنسيّة ـ مدينة القدس.

المنفِّذون: محمد عارف بشارات ـ طمون/جنين، (مؤبَّد).

طلال نصار ـ غزة.

بشير حماد ـ غزة.

النتيجة: مقتل جندي صهيوني.

التقى المجاهد (محمد) بالأخَوين: بشير وطلال، القادمَين من قطاع غزة لإحياء العمل الجهادي العسكري في الضفة، وتناقشوا جميعاً بتفاصيل العملية الـمُعَدّة، واتّفقوا على خطة التنفيذ، ووفّروا لوازمها، ثم انطلقوا للتنفيذ.

ارتدى محمد بدلةً عسكريةً لجيش الاحتلال، وحمل بندقيته (M١٦) حتى بدا كجنديٍّ صهيونيّ، وتوجّهَ به الأبطال بسيّارتهم نحو الهدف، حيث محطّة حافلاتٍ يتوقّف عندها جنودٌ إسرائيليّون. تصافحَ الأبطال، وودّعوا أخاهم وداعَ مُفارق، وطلبوا منه الشفاعة في الجنة، ثم انطلقوا وقد تركوه في أرض المعركة.

توجَّه محمد صوب المحطّة، ولكنه تفاجأَ أنها تخلو من الجنود إلا واحداً، فقرّرَ الانتظار قليلاً علَّ جنوداً آخرين يحضرون إلى الموقع، فتزداد حصيلة الهجوم، وعلى غير ما توقَّع محمد، تقدَّم منه الجندي، وحادثَه باللغة العِبرية التي لا يعرفها، وهنا، خَشِيَ مجاهدُنا من افتضاح أمره، فقرر أخذ زمام المبادرة، رفع سلاحه صوب الجندي الصهيوني، وأفرغ رصاصه في جسد الجندي الذي وقع

صريعاً على الفور.

وفي تلك اللحظة، كانت سيارة (GMC) صهيونيّة مليئة بالجنود تصل إلى المحطة، فشاهدوا الحادث، وظنّوا أنّ شجاراً دار بين جنديَّين، فسارعوا إلى الإمساك بمحمد، ظانّين أنه جنديٌّ مثلُهم، بينما لم يستطع هو فعل شيء لأنّ سلاحه أصبح خالياً من الرّصاص.

عمليات مثلها:

عملية الحرم الإبراهيمي في ١٩٩٢/١٠/٢٥م، وعملية الخارسينة في ١٩٩٣/١٢/٦م، وعملية حسبة الخضار ـ غزة في ١٩٩٢/٥/٧م، وعملية معسكر الشيخ رضوان في تشرين الثاني ١٩٩٢م.

عمليات الاغتيال:

عملية اغتيال (شمعون بيران)، مختار مستوطنة (كفار داروم).

الزمان : ١٩٩٢/٥/٢٧م.

المكان: مستوطنة (كفار داروم) ـ غزة.

المنفِّذ: أحمد الفليت ـ دير البلح/غزة، (مؤبَّد).

النتيجة: قتل مختار المستوطنة (شمعون بيران).

تلك عمليةٌ بطوليةٌ ناجحة، بمجهودٍ فرديٍّ كامل، خطّطَ وأعدَّ لها المجاهد أحمد، ونفَّذها بكفاءةٍ واقتدار.

كان أحمد يتوقُ إلى العمل الجهادي، ويبحث عن الشهادة، بينما لم يكن يملك من أدواتها المادّية إلا سكّيناً يجتزُّ بها الرِّقاب، أما الأدوات المعنويّة والرُّوحيّة، فحدِّث ولا حَرَج!

نظرَ أحمد حوله، فوجدَ الاحتلالَ الصّهيونيَّ يغتصب أرضَه في قطاع غزة، ووجدَ مستوطنة (كفار داروم) تجثم وعشرات المستوطنات على أرض فلسطين، فتطردُ أهلَها، وتنهبُ خيراتِها، وتسلبُها من أصحابها.. ولذا، فقد قرّرَ أن تكون وِجهته نحو كبير هذه المستوطنة ومختارها، والمعروف بحقده وكراهيته لكلِّ فلسطينيٍّ وعربيٍّ ومسلم، لما يمثّله قتلُه من أثَرٍ معنوي على سكّان المستوطنة ومغتصبيها، وأثَرٍ معنويٍّ مضادّ، والمتمثّل بالفرحة الكبيرة لسكان قطاع غزة الذين ذاقوا الويلات على يد هذا الحاقد.

بدأ أحمد مرحلةَ رصدٍ طويلة للمستوطنةِ ومختارِها (شمعون بيران)، واستمرّ يرصد ويتابع طوال شهرين، حدّدَ أحمد خلالهما من أين تُؤكَل الكتف.

ثم اندفع بطلُنا إلى مغتصبة (كفار داروم) يحمل سكّينه، وتوجَّه تلقاء الموقع الذي اعتاد أنْ يرى فيه هدفه، ولم يحتَجْ إلى وقت طويل من الانتظار، فقد كان الصهيوني المستهدف في مكانه على عادته.

انقضَّ أحمد عليه انقضاضاً عنيفاً قاتلاً، وأعمل سكّينه في جسده فأرداه صريعاً على الفور، وانطلق محاولاً الابتعاد عن المكان، بينما اندفعَ خلفه حشدٌ من جنود الاحتلال وقطعان المستوطِنين يلاحقونه ويُطلقون عليه النار، حتى أصابتْه رصاصةٌ في كتفه طرحتْه أرضاً بجراح بالغة الخطورة، وشاءت إرادة الله أن يعيش، على الرّغم من أنه لم يكن بينه وبين الشهادة التي تمنّاها إلا لحظات...

* * *

عمليات الخطف:

أ ـ الخطف الفردي:

عملية خطف الجندي (شارون إدري).

الزمان: ٩/٩/١٩٩٦م.

المكان: صرفند ـ تل الربيع (تل أبيب).

الخلية: جمال الهور ـ صوريف/الخليل.

موسى غنيمات ـ صوريف/الخليل، (شهيد).

رائد أبو حمدية ـ صوريف/الخليل، (شهيد).

عبد الرحمن غنيمات ـ صوريف/الخليل.

النتيجة: خطف الجندي وقتله.

دأبَ مجاهدو خلية صوريف على الخروج في جولة ليليّة بمعدل مرّتين أسبوعياً؛ بحثاً عن جنديٍّ إسرائيليٍّ يأسروه، واستمروا على هذا الحال زمناً طويلاً، تجوّلوا خلاله بسيارتهم في طول البلاد وعرضها، وساروا على أقدامهم طويلاً وهم يلبسون زِيّ الشرطة السرّية الصهيونية بحثاً عن بُغيتهم، حتى كان التاسع من أيلول من العام ١٩٩٦م.

توجّه المجاهدون (جمال) و(موسى) و(رائد) بسيارتهم بعد أن أحسنوا الاستعداد، فغطّوا زجاج السيارة بالسّواد حتى لا يظهر ما بداخلها للخارج، وجهّزوا أبوابها بالأقفال حتى تُفتح من الخارج ولا تُفتح من الداخل، وذلك حتى لا يتمكّن الأسير من الفرار، ووضعوا في المسجّل شريطاً غنائياً باللغة العبرية، وألقوا بعض الصحف العبرية في السيارة، ثم انطلقوا متوكلين على الله.

كانت وِجهتهم نحو مستشفى (صرفند)، ذلك أنّ عزمَهم كان ألّا يأسروا إلا جندياً، وتجوّلوا بسيارتهم كالمعتاد، أشار الجندي (شارون إدري) للسيارة فتوقّفت، وتحدّث معه (موسى) باللغة العبرية بطلاقة، فركب الجندي في المقعد الخلفي بجانب المجاهد (رائد)، وانطلقت به السيارة تعبر به الطريق مبتعدةً نحو نهايته.

كانت الخطة تقضي بأن يجلس (جمال) في الكرسي الأمامي، ويضع مسدّسه تحت فخذه، وحزام الأمان على وسطه، بينما يجلس (رائد) بجانب الجندي في الكرسي الخلفي، وقد تظاهر بأنه نائم، بينما يداه تلتفّان إلى صدره، ومسدّسه في يده مخبوء تحت إبطه، والرصاصة في بيت النار، حتى إذا اقتضى الأمر سرعة الاستخدام، وفي اللحظة التي يبدأ فيها (جمال) بنزع حزام الأمان، يقوم (رائد) بضرب الجندي على وجهه بكعب المسدس بينما يلتفت (جمال) ويضع مسدسه في رأسه حتى يسلّم بالاختطاف.

سارت الخطة كما هو مرسوم، ولكن بعد أنْ سارت السيارة مسافةً ليست طويلةً ساورَ الجندي شيءٌ من الرّيبة، وأخذَ يلتفت يمنةً ويسرة، عندئذ وبغير ما اقتضت الخطة صوّبَ (رائد) مسدّسه إلى صدر الجندي، وأطلق ثلاث رصاصات، فأصاب الجندي باثنتين، بينما انحرفت الرصاصة الثالثة لتصيب جسم السيارة، فصرخ الجندي: (أمي.. أمي)، ثم سكتَ إلى الأبد.

بعد لحظات كان المجاهدون يقفون اضطراراً أمام إشارة ضَوئية يتواجد عندها بعض المارّة، فسارعوا إلى وضع الجثة في أرضيّة السيارة وتغطيتها بقميص أحدهم.

وفي تلك اللحظة وبشكلٍ غريبٍ ومفاجئ، خرجت من الجندي رائحةٌ كريهة، و لم يمضِ على موته سوى بضع دقائق، حتى كاد الإخوة يخرجون من السيارة لشدّة الرائحة، بل وصفوها لنا بأنها الرائحة الأسوأ التي تمر عليهم طوال حياتهم! وقد حاولوا فيما بعد إزالة الرائحة من السيارة بالغسل والتنظيف ورشّ العطور، ولكن دون جدوى، فاضطروا إلى استبدال فرش السيارة بآخر جديد..

بدأ العمل مباشرة وفق الخطة المعدّة مسبقاً، فقد سبقَ أنْ أعدَّ المجاهدون مكاناً آمناً لإخفاء الجندي وهو على قيد الحياة للمقايضة عليه، لكنهم لم يعدّوا مكاناً لجثّة!

وفور وصولهم محيط (صوريف)، بدؤوا بحفر قبر للجندي الميت، واستغرق العمل طوال الليلة حتى استطاعوا إنجازه، تعرّضوا خلالها إلى مواقف صعبة، فقد كان الوضع الأمني حَرِجاً، وطائرات الاحتلال تجوب الجوّ وترصد المنطقة.

أخذ الإخوة أوراق الجندي الثّبوتية، ودفنوه في الحفرة التي أعدّوها على عَجل، وأبقوه فيها شهرين، ثم قام الأخَوان (عبد الرحمن) و (جمال) بعد ذلك بتغيير موقع الجثّة احتياطاً؛ حتى لا يكون باقي أفراد الخلية على علم بموقع الجثّة.

وبقيت الجثة في موقعها مدفونةً تسعةَ أشهر، لم يكن خلالها لدى حكومة الاحتلال أيُّ علم بأن الجنديَّ مخطوفٌ لدى الفلسطينيين، إلى أن اعتُقلت الخلية، وكُشف مكان الجثة، وحينئذ خرج رئيس وزراء العدو (بنيامين نتيياهو) إلى الإعلام، ليعلنَ بنفسه أن (شارون إدري) كان مخطوفاً، وأنهم عثروا أخيراً على جثّته.

ويلاحظ أن جميع عمليات الخطف التي قامت بها الكتائب كانت فرديةً، إلا واحدة، ومنها:

آفي سسبورتاس، في ١٩٨٩/٢/٢٦م، وإيلان سعدون، في ١٩٨٩/٥/٣م، وألون كورثاني، في ١٩٩٢/٨/١١م، ونسيم طوليدانو ١٩٩٢/١٢/١٣م، ويرون ١٩٩٣/٨/٥م، ونحشون فاكسمان، وساسون، وجلعاد شاليط...

ب ـ الخطف الجماعي:

عملية خطف الحافلة ـ القدس.

الزمان: ١٩٩٣/٧/١م.

المكان: التلة الفرنسية/القدس.

الخلية: ماهر أبو سرور ـ مخيم عايدة/بيت لحم، وهو مسؤول الخلية، (شهيد).

محمد عزيز رشدي ـ مخيم العروب/الخليل، وهو القائد العام، (شهيد).

محمد الهندي ـ بيت لحم، (شهيد).

صلاح عثمان ـ مخيم جباليا/غزة.

النتيجة: مقتل اثنين من الصهاينة وجرح آخرين.

هي عملية الاختطاف الجماعيّة الوحيدة التي نفّذتها كتائب القسام منذ انطلاق حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، بمعنى أنها العملية الوحيدة التي استهدفت اختطاف عدد من الجنود وليس جندياً واحداً. حيث بدأ القائد الشهيد (محمد عزيز) وإخوانه بالإعداد لعمليةٍ تهدف إلى أسر عدد كبير من الصهاينة، وذلك لمقايضتهم بجميع الأسرى في سجون الاحتلال.

أعدَّ المجاهدون الخطة، وتدارسوها معاً، ووضعوا جميع الاحتمالات الممكنة، واشترك في ذلك المجاهدون الثلاثة أعضاء الخلية مع قيادتهم، ثم تسلّموا العتاد المكوّنَ من بندقية (M١٦)، ومسدَّسَين، وحقيبتَينِ ناسفتَينِ لتنفيذ المهمة.

انطلق الأبطال بهمّة عالية يحملون عتادهم، ويحلمون بلقاء ربهم، وصلوا إلى مدينة القدس، وهناك بحثوا عن حافلةٍ يستهدفونها، فوقع اختيارهم على حافلة مزدوجة (قاطرة ومقطورة)، لاعتقادهم أنها تحمل عدداً كبيراً من الرّهائن. إلا أنّ ذلك أوقعهم في خطأ قاتل، حيث خالفوا الخطة الـمُعدَّة والمتَّفق عليها، إذ أن عُدّتهم وعددهم لم تكن تكفي للسيطرة على حافلة مزدوجة مليئةٍ بالركّاب.

ركب (محمد) و (ماهر) في القاطرة الأولى معهما حقيبة متفجّرة، وبندقية (M١٦) ومسدس، فيما استقلّ (محمد) القاطرة الثانية ومعه حقيبة متفجّرة ومسدّس، ثم وقفَ (ماهر) في مقدِّمة الحافلة، وأعلن للركّاب أنّ الحافلة مُختطفة، وأن عليهم التزام الهدوء والصمت، وإلا فإن المجاهدين سيفجّرون الحافلة بهم، أما (صلاح) فقد تظاهر بأنه أحد المخطوفين..

وبينما الأمر تحت السيطرة، قامت امرأةٌ يهودية بمحاولة خطف سلاح (ماهر)، فأطلق عليها الرصاص وأصابها بجراحٍ خَطِرة، فدبّت الفوضى والإرباك في الحافلة، ثم انطلقت بعض الطلقات أصابت إحداها رأس (صلاح)، فسقط على الأرض مصاباً بجراح خَطِرة، وحاول السائق استغلال الفوضى وخطف السلاح من يد (ماهر)، إلا أنّ (ماهر) عاجله برصاصة أردتْه قتيلاً.

سارت الحافلة بدون سائق مسافةً قصيرة، ثم ما لبثت أن اصطدمت بعمود كهرباء، فقفزَ المجاهدان (ماهر) و (محمد) من الحافلة محاولين الانسحاب من الموقع، وسارعا إلى إيقاف سيارة إسرائيلية تقودها سيدة يهودية، وركبا معها تحت تهديد السلاح، وانطلقا صوب مدينة (بيت لحم).

بدأت عملية مطاردة شرسة، وانطلقت عشرات المركبات العسكرية الصهيونية تلاحق المجاهدين، تقودهم وتوجّههم طائرة مروحيّة.

وفي هذه الأثناء، حاولت اليهودية التي تقود السيارة أن تتباطأ، و لم تتجاوب مع توجيهات المجاهدين، ففضّلوا قتْلَها ورميَـها من السيارة، فأصابوها إصابة غير مباشرة، فانحرفت السيارة عن مسارها لتستقرّ على حافة الطريق، وقد أُصيب كلّ من فيها، فقام الاحتلال باعتقالهم، ثم قتَلَهم وحرقَ جثامينهم.

عمليات التفجير:

أ ـ العمليات الاستشهادية:

١ـ باستخدام السيارات المفخخة:

عملية (دير شرف).

الزمان: ٢٩/٤/٢٠٠١م.

المكان: مدينة نابلس.

المنفّذ: الاستشهادي جمال ناصر ـ نابلس.

كان (جمال) من نشطاء الكتلة الإسلامية في جامعة النجاح الوطنية، وكان أحد مسؤولي اللجنة الدعوية فيها. بحثَ بطلُنا عن الشهادة طويلاً، حتى وجدها قريبةً منه، ووجد الأبواب تُفتح له مشرعةً، فاندفع إليها مسرعاً لا يهاب الموت..

أعد (أبو خالد) نفسه للقاء ربه، فاغتسل ولبس أجمل الثياب وتطيّب، ثم خرج مبتسماً فرحاً بقرب الموعد الذي تمنّاه.

ركب (جمال) سيارته المفخّخة، والمحشوّة بعشرات الكيلوغرامات من المواد المتفجّرة والشّظايا، إضافةً إلى اسطوانات الغاز وقذائف الهاون، وتوجّه إلى الهدف المحدد. وكان الهدف يومها حافلةً صهيونيةً تخرج من مستوطنة (شافي شمرون) في بلدة (ديرشرف) المحاذية لمدينة نابلس، ولقد كانت حافلةً مليئةً بالركاب، تخرج من المستوطنة بشكل منتظم، فتوقّف (جمال) بالسيارة في نقطة قريبة من مدخل المستوطنة انتظاراً لمرور هدفه... وفي اللحظة التي خرجت فيها الحافلة من المستوطنة وسارت على الشارع، اندفع (جمال)

بسيارته نحوها بالسرعة القصوى، وعند نقطة الصفر ضغط على مفتاح الشهادة فانفجرت السيارة بالحافلة وتطايرت النيران منها، إلا أنّ الحافلة كانت مصفّحة، الأمر الذي قلّل من خسائر الاحتلال وإصاباته.

وفي المساء، ظهر شهيدنا على شاشات التلفاز في شريط مصوَّر مبتسماً متوشّحاً بالأخضر ومتزيناً بالعَصبة، وخاطب العالم قائلاً: «يا أبناء فلسطين، يا أبناء جامعة النجاح الحبيبة، التفّوا حول خيار المقاومة، وأعلِنوا راية الجهاد».

ومن الأمثلة الأخرى على استخدام أسلوب السيارة المفخّخة التي يقودها استشهادي:

- عملية (ميحولا)، في ١٦/٤/١٩٩٣م، وبطلها الاستشهادي (ساهر التمام).
- عملية (بيت إيل)، في ٣/١٠/١٩٩٣م، وبطلها الاستشهادي (سليمان زيدان).
- عملية (نتانيا)، في ١/١/٢٠٠١م، وبطلها الاستشهادي (حامد أبو حجلة).
- عملية غزة، في ٢٢/٦/٢٠٠١م، وبطلها الاستشهادي (إسماعيل المعصوابي).
- عملية (سنجل)، وبطلها الاستشهادي (سلامة الأحمد).

٢ ـ بواسطة عمليات التفجير:

عملية (البحر)

الزمان: ٧/١٢/٢٠٠٠م.

المكان: شواطئ غزة.

المنفّذ: الاستشهادي حمدي نصيو ـ غزة.

وهي أولى العمليات الاستشهادية البحريّة في تاريخ العمل الفلسطيني المقاوم، وأولى عمليات كتائب القسام الاستشهادية في انتفاضة الأقصى، ولقد كانت عمليةً نوعيةً جريئةً أدّت إلى تدمير زورق حربي صهيوني من نوع (دبّور)، إلا أنها لاقت تعتيماً إعلامياً كاملاً من قِبل المحتل.

فقد قررت الكتائب إشعال البحر تحت الاحتلال كما أشعلت البَرّ، ليكون ماؤه قبراً لبني صهيون، فأعدّت زورقَ صيد مثقلاً بالمواد المتفجرة ليكون الانفجار شديداً، وأعدت للمهمة فارساً مميزاً، الاستشهادي البطل (حمدي)، الذي كان على جاهزية دائمة للفداء.

انطلق حمدي بعبوته المتحركة (الزورق) يجوب بحر غزة طولاً وعرضاً، وتوغّل في عرض البحر، ليصل إلى الزوارق الحربية الإسرائيلية السريعة التي تقوم بحراسة المياه منعاً من تهريب السلاح والرجال.

ولاح له صيدُه، فانطلق نحوه بخبرة الصياد، ولم يستطع زورق العدوّ أن يوقفه، ولم يحسّوا به إلاّ وقد انغرس في جسم زورقهم، ثم انفجر بشدّةٍ حوّلت الزّورقَينِ إلى كتلة من اللّهب رُئِيت من شواطئ البحر، إلا أن عدم وجود الصحافة في عرض البحر، حال دون الكشف عن حقيقة خسائر الاحتلال الذي لم يعلن عن وقوع العملية.

٣ـ الحزام الناسف:

عملية (بارك).

الزمان: ٢٧/٣/٢٠٠٢م.

المكان: فندق بارك ـ نتانيا (أم خالد).

المنفّذ: الاستشهادي عبد الباسط عودة ـ طولكرم.

الخليّـة: عباس السيّد ـ طولكرم، وكان مسؤول الخلية، (٣٥ مؤبَّداً).

فتحي الخصيب ـ قِفّين/طولكرم، وهو سائق العملية، (٢٩مؤبداً).

أحمد الجيوسي ـ طولكرم، (٢٩ مؤبداً).

مهند شريم ـ طولكرم، (٢٩ مؤبداً).

معمر شحرور ـ طولكرم، (٢٩ مؤبداً).

نصر يتايمة ـ طولكرم، (٢٩ مؤبداً).

نتيجة العملية: ٣١ قتيلاً و١٦٠ جريحاً.

امتازت عملية (بارك) البطولية بأنها الأكبر من حيث عدد القتلى الصهاينة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من العمل الفلسطيني المقاوم، إضافةً إلى أنّ حزامها الناسف كان من أفضل ما صنعه أبطال القسام من حيث القوة، فلم يكن يحوي أكثر من (٤−٥) كيلوغرام من المواد المتفجرة، إضافة إلى كمية من الشظايا، إلا أنه أثمر عن هذا الكم الهائل من الإصابات في الأرواح والدمار في الموقع.. وقد كان صاحب الإبداع والامتياز في إعداده الشهيد القائد (مهند الطاهر)، صاحب أعلى حصيلةِ قتلى في العمل الفلسطيني المقاوم، ومعه الشهيد البطل (إياد حمادنة)، تلميذ الشهيد القائد محمود أبو هنّود رحمه الله.

فقد أعدَّ مجاهدو (نابلس) بدايةً حزاماً عادياً لإخوانهم في طولكرم، ثم

أرسلوا إليهم أن يتريّثوا قليلاً لأنهم يعملون على إعداد حزام جديد بأسلوب أكثر فاعلية وأوسع أثراً وأخفّ وزناً، فأعدّوا لهم الحزام المذكور، بعد أن وضعوا فيه خلاصة جهدهم وخبرتهم ومهارتهم، مدعومةً بإخلاصهم ودعائهم.

كانت القمة العربية قد انعقدت في (بيروت)، وتُـوِّجت بتقديم المبادرة السعودية الشهيرة، التي أصبحت تُعرف بعد ذلك باسم (المبادرة العربية للسلام)، فكان قرار قيادة الجهاز العسكري للحركة أن توجّه رسالة شديدة اللهجة إلى المؤتمرين، رسالة متفجرة يوصلها بطلٌ استشهادي، صيغتها: «لا تنازل عن الحقوق»، لتمثّل رداً بليغاً على ما تحويه المبادرة من تنازل، فكان الإعداد للعملية.

كان قرار الإخوة بأن تكون العملية مزدوجة، بطَلاها: الشهيد (عبد الباسط عودة)، والمجاهد (نضال تلق)، إلا أن وعكةً صحية ألـمَّتْ بالأخ (نضال) حالت دون مشاركته في الهجوم، وبقي الشهيد (عبد الباسط) وحده فارس الميدان.

تسلّم المجاهدون الحزام المتفجر، وأعدّوا الشهيد للمهمة، وأول الإعداد: التهيئة الرُّوحية، فكان شهيدنا على أتمّ الجهوزية.

ثم التصوير التلفزيوني؛ ليظهر شهيدنا أمام الإعلام بعَصبته وسلاحه ورجولته، وليوصل للعالم رسائل عدة، فأدى البطل دوره على أكمل وجه، كما أدّاه في الميدان، ووجّه رسائل عدة؛ أوّلها كانت للصهيوني الحاقد (شارون)، وآخرها لجامعة الدول العربية وللمؤتمرين في بيروت.

ثم كان الإعداد النهائي، ليخرج (عبد الباسط) بالصورة التي سينفذ بها هجومه، ولأن شهيدَنا شابٌّ وسيمٌ جميلُ الخِلقة، كان الخيار بأن يتنكّر على هيئة فتاة إسرائيلية تستطيع الدخول حيث تشاء، فأحسن الإخوة في إعداده، حتى ظهرَ على غير الهيئة التي عرفوه بها!

انطلق المجاهد (فتحي) يحمل شهيدَنا برفقته في السيارة، ويروي فتحي عن حال الشهيد أثناء الطريق فيقول: «كان (عبد الباسط) صائماً، وأثناء سيرنا أكثر من الدعاء، وألحَّ في القول: «اللهم مكّنّي منهم، ولا تردَّني خائباً»، وكان مطمئناً فرحاً، وكأنه في الطريق إلى حفل زفافه!».

وفي الطريق، واجهتْهم دبّابة احتلالية تَنصبُ حاجزاً على الشارع الذي يسلكونه، وتُوقِفُ السيارات المارّة وتُخضعها للتفتيش، فتوقّف الأخَوان على جانب الطريق، وطلب (عبدالباسط) من (فتحي) أن يُسمِّع له جزءاً من سورة البقرة غيباً، وبعد أن انتهى من التّسميع توجّه إلى الله بالدعاء، ثم قال للمجاهد (فتحي): «سِرْ على بركة الله!».. فقال له (فتحي): «ولكن أخشى أن يوقفونا»، فقال عبد الباسط: «لقد سمعتُ حديثاً معناه أنّ من قرأَ أوّلَ مئةِ آية من سورة البقرة ثم دعا الله؛ استُجيب له». فانطلق (فتحي) مطمئنّاً، ومَرّا على الحاجز دون أن يُلتفت إليهما بفضل الله.

وفي داخل الأرض المحتلة عام ١٩٤٨م، جابت السيارة طول البلاد وعرضها دون جدوى، فقد كان يوم عيد، والمحلات والمطاعم والنوادي وكل المرافق مغلقة الأبواب، لكنهما استمرّا بالبحث، حتى وصلا إلى مدينة (نتانيا)، وبعد طول عناء وصلا إلى فندق (بارك)، وبتوفيقٍ من الله، وجداه دون غيره يعجّ بالنّزلاء، وعلى بابه حارس يفتّش كل من يشتبه به. فتوقّفت السيارة، وترجّل (عبد الباسط)، وطلب من (فتحي) المغادرةَ بعد أن وعدَه بالشفاعة.

كانت هيئةَ فتاةٍ جميلة، وفي أثوابها قلبُ أسدٍ هصورٍ عامرٍ بالإيمان!!

انطلق بخطىً ثابتةٍ نحو هدفه، ودخل الفندق دون أن يعترض الحارس

طريقه، ولم تمضِ إلا دقائق معدودة، حتى كان الفندق خراباً، وإذا مَن بداخله كعصفٍ مأكول..!

وفي المساء، كانت صور الإعلام تُظهر مكاناً مدمَّراً لا يصدّق العقل أنّ عبوةً تَزِنُ بضعةَ كيلو غرامات من المواد المتفجرة المعدّة بطريقة مثالية تفعل كلَّ ذلك، ولكننا نقول كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

أُصيب الاحتلال بذهول شديد، فعبّر عن ذلك بعملية اجتياح شرسة، كانت هي الأوسع منذ ترك جيشُه المدنَ منتصف التّسعينات، فشملت معظم مدن الضفة الغربية، وأحدثت مجازر بشعة في مخيم (جنين) ومدينة (نابلس). ثم ظهر ذات الحقد على المجاهدين أبطال الخلية بعد اعتقالهم، سواء في مدة التحقيق التي امتدّت قرابة أربعة أشهر، أو في المحاكم الصُّوَرية، التي اقترحت خلالها إحدى القاضيات الصهيونيات أن يُمنع أفراد الخلية من رؤية الشمس طوال حياتهم، بينما طالب القاضي الثالث بإعدامهم.

والعمليات الاستشهادية بالأحزمة الناسفة تُعدّ بالمئات، ومنها:

- عملية (اللمبي)، في ١٩/٩/٢٠٠٢م، وبطلها الاستشهادي (إياد رداد).
- عملية (نتانيا)، في ١٨/٥/٢٠٠١م، وبطلها الاستشهادي (محمود مرمش).
- عملية (حيفا)، في ١١/١٢/٢٠٠١م، وبطلها الاستشهادي (ماهر حبيشة).
- عملية (سبارو)، في ٢٠٠١م، وبطلها الاستشهادي (عز الدين المصري).
- عملية (مومنت)، في ٩/٣/٢٠٠٢م، وبطلها الاستشهادي (فؤاد حوراني).
- عملية (كفي هلل)، في ٩/٩/٢٠٠٣م، وبطلها الاستشهادي (رامز أبو سليم).
- عملية (صرفند)، في ٩/٩/٢٠٠٣م، وبطلها الاستشهادي (إيهاب أبو سليم).

ب ـ العبوات:

عملية الجامعة العبرية

الزمان: ٢٠٠٢/٧/٣١م.

المكان: الجامعة العبرية ـ القدس.

الخلية: محمد عرمان ـ خربثا/رام الله، وهو مسؤول الخلية، (٣٥ مؤبَّد).

محمد عودة ـ سلوان/القدس.

وائل قاسم ـ سلوان/القدس.

النتيجة: سبعة قتلى، و ٩٥ جريحاً منهم ١١ حالة خَطِرة.

أقدم الاحتلال الإسرائيلي بتاريخ ٢٠٠٢/٧/٢٣م على جريمة بشعة بحقّ أهلنا في مدينة غزة، حيث أقدم على قصف (حي الدَّرَج) بصواريخ حربيّة ثقيلة، زِنَتها (١) طن؛ وذلك لاغتيال القائد العام لكتائب القسام، الشيخ (صلاح شحادة).. مما أدّى إلى استشهاده وسبعة عشر مواطناً من الرجال والنساء والأطفال والشبان، لتشكّل مجزرةً بشعةً لا أخلاقيةً كباقي مجازره، فكان قرار الإخوة بضرورة الإعداد لضربةٍ قساميةٍ نوعية، تأخذ بالثأر، ولا تراعي حُرمة المكان، كما لم يراعِ الاحتلال حُرمة المكان وحرمة البيوت الآمنة.

بدأ الإعداد، و لم يكن لدى المجاهدين أكثر من بضعة كيلو غرامات من المواد المتفجرة، فأعدّوها على شكل حقيبة دراسيّة، مُطعَّمة (بألف) شظيّة معدنيّة، تتناسب في شكلها والمكان الذي ستُزرع فيه والدّور والوظيفة التي ستؤديها، بحيث يتمّ تشغيل العبوة عبر الهاتف النقّال (البلفون)..

واختار الإخوة لثأرهم موقعاً جديداً، لم يسبق أن استُهدف في عملية من قبل، وهو كفتيريا الجامعة العبرية في مدينة (القدس)، حيث يكثر الطلبة في

وقت التسجيل، ومع اقتراب موعد بدء العام الدراسي الجديد.

أعدّ الأخ (عرمان) العبوة الناسفة، ووضعَ الجميعُ الخطّةَ وناقشوها، وتوجّه الأخَوان: (عودة) و(وائل) بالعبوة نحو حرم الجامعة، وبتاريخ ٧/٢٨ تسلّقا سورها إلى الداخل، ووضعا الحقيبة في صالة الكفتيريا، ثم انسحبا بهدوء فلم يرَهما أحد. ومن خارج الجامعة، قاما بالاتصال لتفجير العبوة، إلا أن المفاجأة كانت أنها لم تنفجر! كرّرا المحاولة لكن دون جدوى.

عاد الأخ (عودة) أدراجه وأخذ العبوة من مكانها، وتوجّها إلى الأخ (عرمان)، الذي أعاد فحصَها فتبيّنَ له أنّ هناك خللاً أصابها في توصيل الأسلاك، وذلك حينما قام الإخوة بإلقائها من سور الجامعة لإدخالها إليها، بل إن لطف الله ورحمته حالت دون تفجيرها، فأعاد الأخ (عرمان) توصيل الأسلاك، وأصبحت العبوة جاهزةً للتفجير من جديد.

وبعد ثلاثة أيام، توجّه الأخ (محمد عودة) إلى الجامعة ليلاً، وأخفى العبوة في أحد أحواض الورد، ثم عاد إلى منزله، وفي صبيحة اليوم التالي دخل الجامعة من بابها، وتوجّه إلى العبوة، وزرَعها في الموقع المحدّد، ثم انسحب خارجاً، ومن مكان بعيد أجرى اتصاله الذي فجّرَ العبوة.

كان ذلك وقتَ الظهيرة، والرُّواد كُثُر، وكان الانفجار شديداً هزَّ المكان وأحاله دماراً، وهزَّ قلوب الأعداء فأسكنها رعباً، وألهبَ مشاعر الشعب الفلسطيني ابتهاجاً، وشفى غليلَ من كان ينتظر من كتائب القسام ردّاً على مجزرة (حي الدّرج)، وأربك الأمن الصهيوني الذي أثبت هشاشته.

ومن عمليات العبوات المتفجرة الأخرى:

عملية الساحل، في ١٩٩٠/٦/٢٣م، وعملية بئر السبع، في ٢٠٠٢/٥/١٠م، وعملية المغير، في ٢٠٠٣/١٠/٦م، وعملية (تل أبيب)، في ١٩٩٧/١/٩م.

اقتحام المعسكرات:

اقتحام مستوطنة أدورة.

الزمان: ٢٠٠٢/٤/٢٧م.

المكان: مستوطنة أدورة ـ الخليل.

الخلية: منير مرعي ـ بيتا/نابلس، وهو مسؤول الخلية، (٥ مؤبدات).

طارق دوفش ـ الخليل، (شهيد).

فادي دويك ـ الخليل، (٥ مؤبدات).

النتيجة: ٥ قتلى، و ١٨ جريحاً.

وهي عمليةٌ بطوليةٌ من أكثر عمليات اقتحام المستوطنات نجاحاً، فقد جمعت بين النتائج الجيدة في عدد القتلى والجرحى، وبين النجاح في الانسحاب من موقع التنفيذ بعد إنجاز المهمة، رغم أن مثل هذه العمليات تُعدّ عملياتٍ استشهادية.

بدأ إعداد الخلية قبل تنفيذ العملية بمدّة طويلة، فقد قام الشهيد (أحمد بدر) بتنظيم الشهيد (طارق) في صفوف كتائب القسام، ثم قام (طارق) بتنظيم المجاهد (فادي). وقام (أحمد) بعد ذلك بتدريبهما للقيام بعملية جهادية

في منطقة الحرم الإبراهيمي في المدينة، ثم للقيام بعملية استشهادية في مدينة (السبع).. إلا أن عدداً من العوامل والظروف حالت دون أي تنفيذ.

وبينما كان الأخَوان (طارق) و(فادي) في انتظار تحقّق أُمنيتهما، جاءهما الفرَج من طرف جديد، وهو المجاهد (منير)، المسؤول عنهما في جامعة البولتكنك، حيث عرضَ عليهما تنفيذ عملية جهادية في إحدى المستوطنات القريبة من مدينة الخليل، فلم يتردّدا في القبول. وشرَعا بالتدريب والاستعداد تحت إشراف (منير)، حتى أتمّ إعدادَهما في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام.

وقبل العملية بيوم، اصطحبهما (منير) إلى سكنه، وهناك قام بتصويرهما فوتوغرافيّاً وعلى شريط فيديو، وكشف لهما عن اسم المستوطنة الهدف، وكان قد رصدَه بشكل دقيق وطويل، ثم توجّهوا جميعاً إلى محيط المستوطنة، ودرسوا الموقع عن كثب، وتدارسوا الخطة المعدّة للهجوم، واتفقوا على آلية التنفيذ ووقته.

استيقظ المجاهدون قبيل الفجر، صلّوا وتضرّعوا إلى ربهم، طالبين التوفيق والشهادة، وتوجهوا إلى موقع اللقاء، وهناك لَبِسَ الأخَوان (طارق) و(فادي) زِيّاً عسكرياً صهيونياً حتى يظهرا كجنود الاحتلال، وامتشقا سلاحَينِ رشّاشَين، مع كمية كبيرة من الذّخيرة، وودّعا (منير) الذي عاد أدراجه كما اقتضت الخطة.

ثم انطلقا صوب المستوطنة مسرعين، وفي الطريق صلّيا الفجر، وواصلا السير حتى وصَلا قرب سور المستوطنة الشّائك، وهناك كَمنا قليلاً، ثم تعانقا عناق مودّع، وبَدءا مرحلة العبور، فتجاوزا السلك الشائك الأول، ثم الثاني بعد قطْعه بمقصٍّ كانا يحملانه، وكَمنا من جديد قرب البيوت السّكنية، وبعد

قليلٍ جاء أحد الجنود، ودخل البيت الذي كانا يختبئان عنده، فتبعه (فادي) ودخل البيت خلفه، ففتّشَ الطابق الأول فلم يجد فيه إلا ولداً نائماً، فتركه وصعد إلى الطابق الثاني، وانتظر عند باب غرفة النوم، حتى يسمع صوت إطلاق النار من (طارق) حسب الاتفاق، وما إن سمعَ صوت الرصاص، حتى قام بكسْر الباب؛ فوجدَ الجندي مع زوجته، فأطلق عليهما النار وقتلهما، ثم توجّه مسرعاً إلى الطابق الأول حيث ينام الولد، فقام بقتله، ثم خرج من البيت.

في تلك الأثناء كان الشهيد (طارق) قد توجَّه إلى بيتٍ قريب، وقرع الجرس، فأطلقَ عليه رجلٌ من الطابق العلوي النار، لكنّه لم يصبه، ثم أطلق (طارق) النار صوب باب المنزل ليفتحه، إلا أنه كان مصفَّحاً فلم يتأثّر بالرصاص، والتقى الأخَوان مجدَّداً، ثم تفرَّقا كلٌّ لمهمّته: (طارق) يقتحم البيوت، و(فادي) يسير في الشارع الرئيس، يمشّطان المنطقة ويُطلقان النار على كل حي.

تقدّمَ الأخَوان في سيرهما حتى التقيا من جديد، وفتَحا اشتباكاً مريراً مع حشدٍ من المستوطنين والعسكريّين، وأكثَرا من إطلاق الرصاص حتى فقدَ (طارق) السّمع بإحدى أُذنيه، وأثناء ذلك أطلّت عليه إحدى النساء اليهوديّات من نافذة المنزل ظانّـةً أنه جنديٌّ صهيوني، فأطلق عليها النار وأصابها.

وبعد أن شارفت ذخيرةُ الأخَوين على النفاد، قرّرا الانسحاب، فخرَجا من حيث دخَلا، بعد أن مكَثا في المستوطنة قرابة الساعة، وبدأت رحلة العودة، لكن من طريق غير الذي سلَكاه صباحاً، ولأنهما لا يعرفان الطريق الجديد جيّداً، ضلّا الطريق، فطال وقت الانسحاب حتى حضرت أثناء ذلك أربع طائرات مروحيّة صهيونية، وبدأت بتمشيط المكان بحثاً عنهما، فكَمنا أسفل إحدى أشجار الزيتون، وبعد أربع ساعات من الانتظار شاهدا عمليات إنزال

لجنود الاحتلال، فأدركا أنهما مكشوفان، فهمّا بالانسحاب من الموقع، وعندها بدأت مئات الرّصاصات تنطلق نحوهما.

وبعد كثير من المصاعب، تمكّنَ فادي من الانسحاب والنجاة بأعجوبة، بينما أراد الله (طارق) شهيداً بعد أن أصابته عدّة رصاصات من جنود الاحتلال.

ومن عمليات اقتحام المستوطنات والمعسكرات الأخرى:

- عملية (عتصمونة)، في ٢٠٠٢/٣/٧م، وبطلها الاستشهادي (محمد فرحات).
- عملية (ألون موريه)، في ٢٠٠٢/٣/٢٨م، وبطلها الاستشهادي (أحمد عبد الجواد).
- عملية الحمرا، في ٢٠٠٢/١/٣١م، وبطلها الشهيد (محمد الخليلي).
- عملية بقعوت، في ٢٠٠٢/٥/١٣م، وبطلها الشهيد (أمجد القطب).

عمليات الدوريات:

عملية نهر الأردن.

الزمان: ١١/١٩٩٠م.

المكان: الحدود الأردنية الفلسطينية.

الخلية: خالد أبو غليون ـ مخيم حطين/الأردن، (مؤبد).

سالم أبو غليون ـ مخيم حطين/الأردن، (مؤبد).

فايق كعابنة ـ مخيم حطين/الأردن، (مؤبد).

أمين الصانع ـ عمان/الأردن، (مؤبد).

إبراهيم غانم ـ مخيم البقعة/الأردن، (٢٥عاماً).

النتيجة: مقتل ضابط، وجرح أربعة جنود.

الشهادة، فكرةٌ طالما داعبت أفكارهم ومخيّلتهم واستقرّت في نفوسهم، فشغلتهم حتى بدؤوا بالبحث عنها لينالوها، فكان الانطلاق إلى فلسطين..

لم يستغرق الانطلاق في العملية البطولية نحو فلسطين أكثر من جلسة واحدة، تخلّلها طرح فكرة، أعقبها سؤال: هل أنتم على استعداد؟ فجاءت الإجابة الواثقة من الجميع: «نعم».. ثم انطلقوا على بركة الله لاجتياز نهر الأردن، هدفهم معسكر صهيوني، ووسيلتهم أسلحة نارية خفيفة، وأسلوبهم عملية استشهادية تهدف إلى إحراق المعسكر وقتل أكبر عدد ممكن من الجنود الصهاينة.

تكفّل (إبراهيم) بتوفير السلاح، بينما انطلق باقي الإخوة نحو نقطة العبور التي حدّدوها لأنفسهم، واتّفقوا على اللقاء على الحافة الشرقية للنهر. وهناك

تفاجأ الإخوة أن (إبراهيم) حضر إلى الموقع وليس معه أيّ قطعة سلاح، و لم يكونوا يحملون إلا المسدّسات الشخصيّة، فهل يعودون؟!

وهنا كان الجواب منهم قاطعاً، أن لا عودة ولا تأجيل، فقد حسبوا أنفسهم في طريقهم إلى لقاء الله، فكيف بمن عشق الشهادة وحان أجلها فأصبحت أمام ناظريه أن يَعدِل عنها ويختار الرجوع؟! ثم انطلقوا بمسدّساتهم وإيمانهم، واخترقوا الأسلاك الشائكةَ وصولاً إلى هدفهم.

وهناك أشعلوا مع عدوّهم جبهةً أداروها بمسدّسات لا تحوي إلا القليل من الرصاص، وأدارها جنود الاحتلال بكل ما يملكون من أسلحة خفيفة وثقيلة، لكن المجاهدين استطاعوا أن يقتلوا ضابطاً صهيونياً، هو مسؤول الوحدة الصهيونية، وجرحوا غيره، وما لبث أن حضرت التّعزيزات، فلم يَطُل الاشتباك طويلاً، إذ نفدت ذخيرة المجاهدين، واستشهد نايف، ووقع باقي الإخوة في الأسر.

ومن عمليات (الدّوريّات) الأخرى:

– العملية التي قام بها الأسير المحرَّر سلطان العجلوني ـ الأردن.

حرب الأنفاق:

عملية السهم الثاقب

الزمان: ٨/١٢/٢٠٠٤م.

المكان: كارني ـ غزة.

النتيجة: مقتل جندي، وجرح أربعة آخرين.

عمليةٌ بطوليّةٌ جريئةٌ من عمليات (حرب الأنفاق)، تلك التي شنّها أبطال العزّ على عدوّهم، ليحيلوا الأرض ناراً تحت أقدامهم. وهي من العمليات التي امتازت باستخدام أنواع عدّة من السلاح المقاوم؛ فقد استخدم المجاهدون فيها السلاح النّاري، وسلاح التفجير، كما استخدموا أسلوب الهجوم والمباغتة، والعمل الاستخباري، وأسلوب الأنفاق، وفوق ذلك كلّه سلاح الاستشهاديّين.

بدأ المجاهدون عمليةَ حفرٍ طويلةٍ مُضْنيةٍ في باطن الأرض، بدأت من الطّرف الغزّي للشّيك الفاصل بين القطاع والأراضي الفلسطينية المحتلة عام (١٩٤٨)، ومتّجهةً نحو معسكرٍ حصينٍ للجيش الصهيوني يقع داخل الخط الأخضر، وتحيط به جدران وموانع، تجعل من الصعوبة بمكان الوصول إليه.

من باطن الأرض، اجتاز المقاومون الشِّيك الأول، ثم اجتازوا الطريق الأمني الذي اتّخذه العدو لحماية حدوده المصطنعة، ثم اجتازوا الشِّيك المحيط بالمعسكر، وهكذا وصل الأبطال نقطةً داخل الموقع حدّدوها مسبقاً، وعند هذه النقطة قاموا بزرع عبوة ناسفة ضخمة تزن مئات الكيلو غرامات يتم التحكّم بها عن بُعد.

أما الجزء الأروع في العملية، فهو إدخال البُعد الاستخباري، فقد نسّقت الكتائب عمليةً استخباريةً معقّدةً عبر عميل مزدوج، زرعَه أبطال القسام في

صفوف العدو، هذا الجزء الهامّ من العملية ساهم بصورة كبيرة في إنجاح المهمة وإرباك العدو وجعلَه يفقد صوابه.

كان دور العميل المزدوج هو إيصال المعلومة المغلوطة التي طلبت قيادة الكتائب منه إيصالها إلى أجهزة الأمن الصهيونية، والمعلومة تُفيد بأن مطارداً من قادة كتائب القسام سيتواجد في ذات النقطة التي زُرعت فيها العبوة لتنفيذ مهمة جهادية، فتوجّهت قوات الاحتلال إلى الموقع على شكل مجموعات راجلة سعياً منهم لاصطياد المجاهد.

وصلت المجموعة الأولى من جنود الاحتلال على شكل دوريّة راجلة يتقدّمها كلبٌ بوليسيٌّ مدرَّب وما إن وصلت المجموعة إلى النقطة المحدَّدة حتى قام أُسْد القسام بتشغيل العبوة أسفلهم، فقتلت قائدَ المجموعة وكلبَهم البوليسيّ، وجرحت أربعة جنود آخرين بجروح صعبة.

و لم يكتف المجاهدون بذلك، بل خرج من النفق مقاتلان من القسام نحو القوة الصهيونية التي تتابعت للمساندة، واشتبكا معها، وتبادلوا إطلاقاً كثيفاً للرصاص، أُصيب أثناءه عدد من الجنود، واستمرّ الاشتباك مدةً طويلةً كان دويُّ رصاصِه وفرقعاتُ قنابلِه تُسمع من بعيد، حتى حانت ساعة الشهادة، واختار الله الأسدَينِ إلى جواره.

ومن عمليات حرب الأنفاق الأخرى:

– عملية بوابة صلاح الدين، في ٢٠٠١/١٠م، وعملية (غوش قطيف)، وعملية معبر رفح.

حرب الصواريخ:

أ ـ الصواريخ المضادة للدروع (البتّار):

عملية حي الزيتون.

الزمان: ١١/٥/٢٠٠٤م.

المكان: حي الزيتون ـ مدينة غزة.

النتيجة: مقتل ستة جنود، بعد تدمير دبّابتهم.

بعد أن توغلت دبّابات وناقلات جند صهيونية في قطاع غزة، ووصلت حي الزيتون الذي يُعدّ معقلاً من معاقل حركة حماس في القطاع، وذلك بهدف تدمير مستودعات ومشاغل ومخارط حديد تحت ذريعة أنها وُرش تصنيع عسكري لإنتاج صواريخ القسام.

نفّذت تلك القوة الصهيونية مهمّتها، ثم عادت أدراجها، إلا أن وحدةً مقاتلةً من كتائب القسام كانت لها بالمرصاد، إذ أعدّت لها كميناً صاروخياً قُبيل الفجر، واستهدفت هذه الوحدة القسامية إحدى المدرعات الصهيونية بصاروخ مضاد للدروع محلّي الصنع من نوع (بتّار)، وشاءت إرادة الله أن تحوي المركبةُ المستهدفةُ بداخلها موادَّ شديدةَ الانفجار، استجلبتها القوة الصهيونية معها لتدمير وُرش العمل، فأدّى انفجار الصاروخ القسامي إلى تفجير هذه المواد، فاستحالت المدرَّعة إلى عبوة هائلة انفجرت بشدة وتبعثرت إلى أشلاءٍ ممزَّقةٍ توزّعت في مساحةٍ تزيد عن نصف كيلو متر مربع، وتناثرت معها أشلاء الجنود الستّة الذين كانوا بداخلها..

وقد وصف أحد الجنود الصهاينة الذين كانوا يستقلّون مركبةً أخرى تسير

خلف الآلية المستهدفة ذلك الانفجار فقال: «كنا نسير معاً، وإذا بالمدرّعة تختفي فجأةً و لم يبقَ منها شيئ، فصُدمت و لم أعلم ما الذي حدث!».

هذا وقد تمكّنت وحدةٌ من (سرايا القدس) التابعة لحركة الجهاد الإسلامي من الحصول على أشلاءِ أحدِ الجنود، وحاولت المقايضةَ عليها، إلا أنها اضطرّت إلى تسليمها إلى الاحتلال بعد أزمةِ ضغوطاتٍ شديدةٍ مُورست عليها من جميع الأطراف، بما فيها السلطة الفلسطينية والحكومة المصرية.

جُنَّ جنون الاحتلال إثر العملية، وأجرى العديد من التّحليلات والتّقييمات والدّراسات، خلص منها إلى إصدار قرار بمنع أيّة مركبة عسكرية من حمل كمية من المتفجرات إلا بقرار من القائد الأعلى للجيش.

ومن الأمثلة الأخرى لاستخدام الصواريخ المضادة للدروع:

– عملية رفح، في ٣/١٠/٢٠٠٤م، وعملية بيت حانون، في ٢٢/١١/٢٠٠٦م، وعملية بيت حانون، في ٢٣/١١/٢٠٠٦م.

ب ـ صواريخ القسام[١]:

هذه إحصائية نوردها لبعض تواريخ ونتائج إطلاق صواريخ القسام من أراضي غزة نحو التجمّعات الصهيونية:

التاريخ	الموقع المستهدف	النتائج
٢٠٠٢/٣/٥م	اسديروت	اثنان جرحى
٢٠٠٣/٣/١٩م	اسديروت	إصابة خطرة
٢٠٠٤/٦/٢٨م	اسديروت	اثنان قتلى
٢٠٠٤/٦/٢٩م	شاعر هينجف	ثلاث إصابات
٢٠٠٤/٩/٢٤م	غوش قطيف	قتيلة واحدة
٢٠٠٤/١٠/٢٨م	موراغ	قتيل واحد و ٦ جرحى
٢٠٠٤/١٢/١٠م	نفي دجاليم	ست إصابات
٢٠٠٤/١٢/١٦م	عتصمونة	جرح ١١ جندياً
٢٠٠٥/١/٥م	موقع عسكري	إصابة ١٢ جندياً، منهم اثنان خطرة
٢٠٠٥/١/١٥م	نتساريم	عدة إصابات، إحداها بتر يد
٢٠٠٥/٧/١٤م	اسديروت	قتل مجنّدة
٢٠٠٦/١١/٢١م	اسديروت	قتيل، وإصابات خطرة، وحرق مصنع
٢٠٠٧/٥/٢١م	اسديروت	قتيلة، وإصابات خطرة، وتفجير سيارة

١ يقول المفكّر الإسلامي (عبد الوهاب المسيري): «إنّ القسّام الّذي اختفى شيخاً عاد صاروخاً؛ ليؤكّدَ أن المخلصينَ لقضاياهم لا ينتهون».

ولا زالت الصواريخ القسامية تنطلق من أرض غزة نحو التجمّعات الصهيونية إلى اليوم، بينما لم ينتقل هذا الأسلوب إلى الضفة الغربية، مع وجود العديد من المحاولات في هذا المجال، إلا أنها انتهت إما بالفشل، أو استطاع الاحتلال اعتقال العاملين عليها وإيقاف تطويرها.

العمل الاستخباري:

عملية قتل الضابط (نوعام كوهن).

الزمان: ١٣/٤/١٩٩٤م.

المكان: بيتونيا/رام الله.

الخلية: عبد المنعم أبو حميد ـ مخيم الأمعري/رام الله، (شهيد).

علي العامودي ـ غزة، (مؤبد).

النتيجة: قتل ضابط المخابرات وإصابة حارسيه.

كان شهيدنا (عبد المنعم) من المجاهدين الذين لا تلين لهم قناة، ولا تهدأ لهم حركة، فاعتقله الاحتلال غير مرّة، وساومه على وطنيّته وانتمائه، وألحَّ عليه بالعمل معهم كعميل، مقابل الإفراج عنه، وإعطائه امتيازات عديدة.

وفي تلك الأثناء، قفزت إلى ذهنِ بَطلِنا فكرة (العميل المزدوج)، أي أن يتظاهر بقبول العمل مع المخابرات الصهيونية، حتى إذا سنحت له الفرصة، ضربَها من الداخل.

ومن هنا، كان قراره القبول، فأسعدَ ذلك رجال المخابرات، حيث ظنّوا أنهم وجدوا عيناً لهم على المقاومة من داخلها، وبذا سيجدون وسيلةً لضربها.

بدأت المخابرات بإعداده بما يلزمه للقيام بالمهمة الموكلة إليه، حتى أصبح بنظرهم جاهزاً لاختراق صفوف كتائب القسام، واتفقوا معه على آليّات التواصل واللقاء.. ثم أطلقوا سراحه بحجّة عدم اعترافه بالتُّهم المنسوبة إليه.

وكان أوّل ما قام به مجاهدنا بعد الإفراج عنه، أنه توجّه إلى إخوانه في الحركة،

وأطلعهم على ما حصل معه، ووضع نفسه بين أيديهم لاتخاذ القرار المناسب. ولم يكن إخوانه أقلّ مبادرةً، فقد وجدوها فرصةً سانحةً للانتقام من الاحتلال، وهنا بدأ التخطيط، ومن ثم الإعداد والتنفيذ.

لقد كانت فرصةً سنحت للمجاهدين للانتقام من ضابط المخابرات المسؤول عن الإسقاط والاتصال مع الخونة في تلك المنطقة، فوُضعت خطةُ تصفيتِه زماناً ومكاناً وكيفيّةً.

كانت الخطة تقوم على أن يتفق (عبد المنعم) مع الضابط (كوهن) على لقاء في موعد محدد، وفي ذات الموقع تكمن أُسْد الكتائب بالانتظار؛ لتنقضَّ عليه هو ومن معه.

كان الموعد في ٤/١٣، والمكان: أحدُ شوارع (بيتونيا) في رام الله، والكيفيّة: تقوم على أساس أنْ يحضر الضابط مع مرافقيه بسيارة مرسيدس عربية، ويجد (عبد المنعم) في الموقع المتَّفق عليه، ويلبس لباساً مميزاً حتى يعرفوه من خلاله، فيصعد معهم في السيارة؛ ليأخذوه إلى موقعٍ مجهولٍ للّقاء.

وضع (عبد المنعم) التفاصيل بين يدي إخوانه الذين توجّهوا مبكراً إلى الموقع، واتخذوا وضعيّة الاستعداد... وفي الموعد المحدد وفق الخطة المتَّفق عليها، جاء ضابط المخابرات ومعه اثنان من مرافقيه، ظانّاً أن رجلاً خائناً لشعبه يبحث عن الفتات من عدوّه ينتظره، لكنه فوجئ برصاص القسام يترقّبه فيخترق جسدَه ومن معه، فيُرديه قتيلاً، ويوقعهم جرحى، بينما انسحب المجاهدون ومعهم (عبد المنعم) فرحينَ مهلّلين.

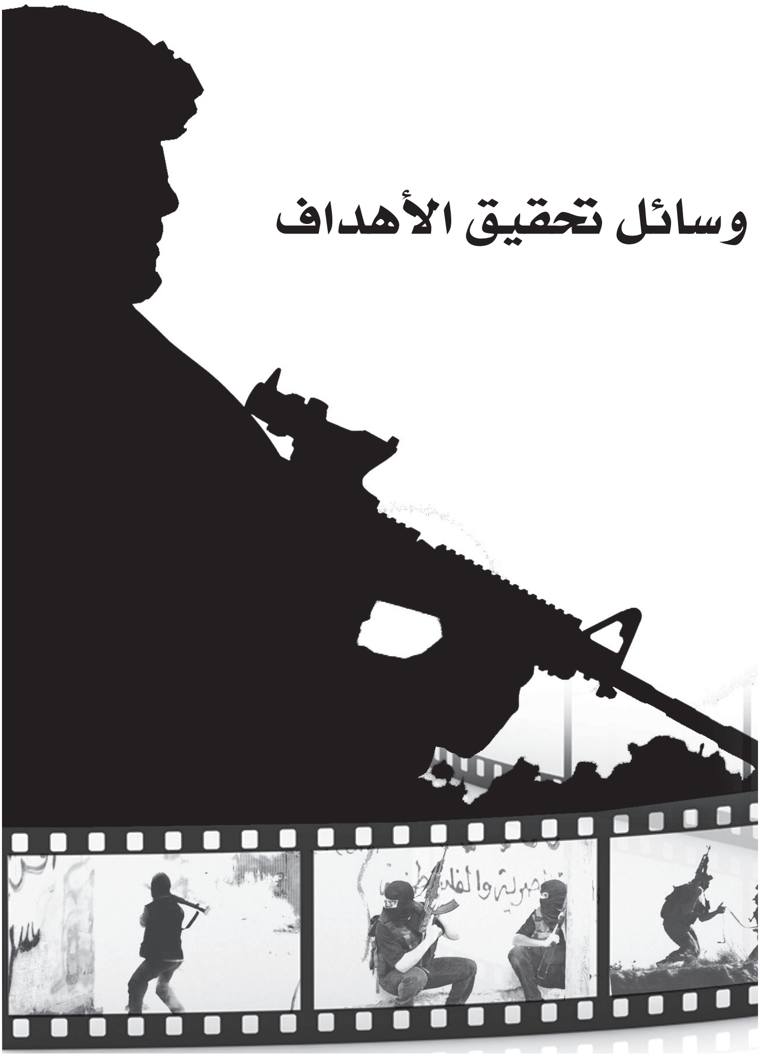
ومن أمثلة العمليات الاستخبارية الأخرى:

عملية قتل الضابط (نحماني)، في ٣/١/١٩٩٣م، وعملية (ثقب القلب)، في ١٨/١/٢٠٠٠م، وعملية (السهم الثّاقب)، في ٨/١٢/٢٠٠٤م.

تلك نماذجُ من بطولاتٍ قسّاميةٍ كثيرة، وسطورٌ من صفحاتٍ مضيئة، حاولْنا جمعها في كتابنا (صفحات من جهاد أبناء القسام)، فلمن أراد الاستزادة الرجوع إليه؛ ففيه الخير والنّفع إن شاء الله.

* * *

وسائل تحقيق الأهداف



وسائل تحقيق الأهداف

تحتاج العصابات في مسيرتها نحو تحقيق أهدافها إلى وسائل وأدوات تُعينها وتسهّل عليها مهمّتَها وتمكّنها من بلوغ مُرادها، وتقوّيها في مواجهة الصِّعاب، وبها تجابه عدوَّها ووسائلَه التي يعتمد عليها في حربه.

إنّ هذه الأدوات تشكّل حلقةً في سلسلة الحلقات التي تعمل على كسر الهوّة السحيقة بين قوة العدو المادّية، وقوة (الجاريلا) والثورات الشعبيّة، وهي تقلّل من كفاءة قوة العدو وفاعليّتها في ضرب الحركات الثورية.

وفي هذا الفصل، نناقش أبرز هذه الوسائل والأدوات، وهي:

أولاً: التنظيم.

ثانياً: التسليح.

ثالثاً: الاستخبارات.

رابعاً: الإعلام.

خامساً: التخفّي والتّمويْه.

سادساً: وسائل الاتصال الآمنة: الشِّيفرة، الحبر السرّي، النّقاط الميتة.

سابعاً: الإيمان.

إنّ هذه الوسائل تشكّل الأسلحةَ الحقيقيةَ والمتكاملة في مواجهة العدو، وإن فقدان أيٍّ منها يشكّل نقطة ضعف، ومدخلاً يمكن أن يؤدي إلى ضرب (الجاريلا)، وبالتالي إفشالها، وعدم بلوغها أهدافها.

أولاً: التنظيم

لا يمكن لحربِ عصاباتٍ أن تحقّق أهدافها أو تنتصر في حربها؛ إلا إذا خضعت لتخطيطٍ دقيقٍ وتنظيمٍ رتيبٍ وتقييمٍ متواصل، وفوق ذلك كله قيادة حكيمة قادرة على قراءة الواقع وتقدير وإصدار القرار الحكيم الذي يناسبها. وبغير ذلك تصبح الثورة أقرب إلى الهبّة الشعبية التي تنفجر، ثم سرعان ما تخبو وينطفئ أوارها دون أن تُحدث تغييراً جوهرياً على الأرض.

فلا يفهم السامع إذن أن (حرب العصابات) هي ضربٌ من العشوائية واللّاتنظيم، بل إن جوهرها هو التنظيم، وأساسها الانضباط والتناغم في الأداء.

نعم! إنّ وجودَ تنظيمات عاملة على ساحة المقاومة، تقوم بدورها في إدارة دفّة القيادة وتوجيه مركب الثورة ليرسو على بر الأمان، هو ضمانُ النجاح. وما من ثورةٍ معاصرةٍ من الثورات الناجحة التي أسلفنا ذكرها، إلا وأدارتْها حركاتٌ وتنظيماتٌ يرأسها مفكّرون وثوّارٌ ورجالُ تجديدٍ يملكون من الصّفات القياديّة ما يؤهّلهم ليكونوا على رأس الهرم وفي موقع القيادة والتّوجيه. ولقد وضع هؤلاء المفكّرون لثوراتهم خُططاً شاملةً تتضمّن عدّة مراحل، لا بد للثورة أن تمرَّ بها، وحدّدوا الأساليب التي تتناسب وكلّ مرحلة، والوسائل التي يلزم استخدامها في كل دور.

كما واكب هؤلاء القادة تطوّر الثورة وحروبها، وشاركوا في صناعتها وتطويرها، وطوّروا فِكرهم معها، وابتدعوا الفِكر الذي يُسيِّرها ويَسير بها.

أشكال التنظيم:

إذاً فقد علمْنا أنّ تحديدَ الأهداف، التكتيكية والاستراتيجية، ومعرفة الأساليب التي تحقّقها، ووضع الخطط ومتابعة تنفيذها؛ يحتاج إلى تنظيم دقيق، تقوده نخبة متميزة، تسير به إلى النجاح..

هذا التنظيم الذي يحوي عدداً كبيراً من الأفراد المقاتلين، والمجموعات الثائرة، والعناصر الداعمة، والتشكيلات العامة، وقدراً كبيراً من التّبعات والمسؤوليات؛ لا بدّ له من أن يخضع لأحد أشكال التنظيم الرئيسية، هذه الأشكال التي يصلح كلٌّ منها لحالة خاصة من العمل دون غيرها، فطبيعة الأرض، والعمل المحيط، والعناصر، والمهمات، والعدو... كلها عوامل تفرض شكلاً محدداً وتقدّمه على غيره، وتُرجّح أسلوباً وترفض آخر.

أما هذه الأشكال التنظيمية فهي:

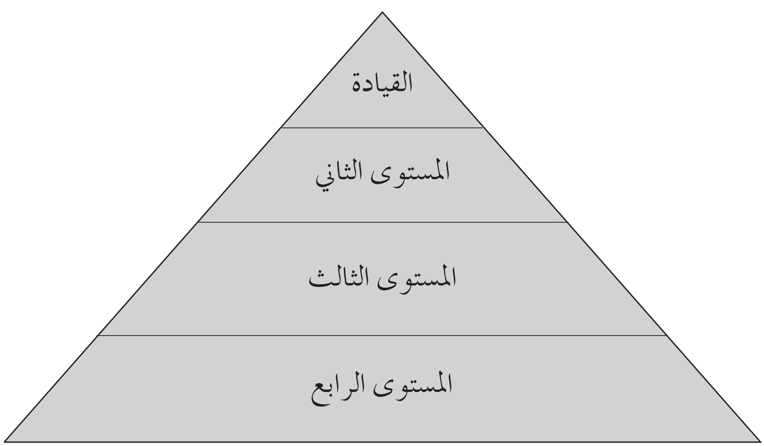
أولاً: التنظيم الهرَمي:

نسبةً إلى شكل الهرم الذي يمثّل رأسُه المدبَّبُ رأسَ التنظيم وقيادتَه، وقاعدتُه العريضة هي قاعدة التنظيم وعناصره، وتتصل فيه القيادة بالقاعدة كما هو الهرم، فالقيادة تتّصل بالمستوى الذي دونها بصورة مباشرة، ويتصل المستوى الثاني بقاعدة أوسع، والتي تتصل بدورها بالمستوى الذي يليها، وهكذا يكون

الاتصال من رأس الهرم وحتى أدنى القواعد.. (انظر الرسم ١).

يمتاز هذا الأسلوب من التنظيم بسهولة الاتصال وسرعته بين حلقات التنظيم، وعدم وجود (بيروقراطية) مملّة بسبب الانفتاح في العلاقة والاتصال، وعدم وجود خطوط مقطوعة أو غير معلومة. إلا أن السلبيّة الأبرز فيه، تكمن في سهولة اكتشاف جميع حلقات التنظيم، وإمكانية توجيه ضربة قاسية إلى جميع حلقاته من رأس الهرم إلى قاعدته، فبحدوث خطأ أمني أو اختراق داخلي، أو عبر التحقيق الاعتقالي؛ فإن الانهيار لا يتوقف إلا بصمود أو استشهاد مستوى من حلقات الوصل التي تقطع الطريق أمام المخابرات المعادية، وتمنعها من الاستمرار في فرط عقد التنظيم وكشف مؤسساته وعناصره.. وعليه، فإن هذا الأسلوب لا يصلح إلا للأعمال السّياسية أو النّقابية أو الاجتماعيّة أو المهنيّة الهادئة، وغير المعرّضة للملاحقة الشديدة.. بينما لا يصلح للعمل العسكري والأمني والخلايا الثائرة المنتشرة في ميدان المعركة.

رسم (١)

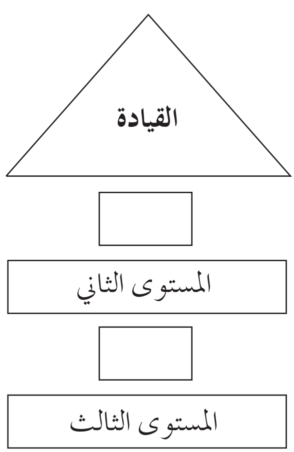


ثانياً: التنظيم الرأسي:

هو تنظيمٌ شبيهٌ بالتنظيم الهرَمي، إلا أنه يمتاز بعدم توسيع قاعدة الاتصال، فيكون التواصل على حلقاته عن طريق شخص واحد يشكّل حلقةَ الوصل بين مستوى وآخر، فيضمن عدم اطّلاع أكثر من شخص على هذا المستوى، ويضمن عدم اطلاع المستوى إلا على شخص واحد. وإذا تمّ استخدام الاتصال بين الحلقات عبر وسيلة آمنة (غير مباشرة) كالنقاط الميتة أو نصف الميتة؛ فإنه يزيد من أمنه وسلامته. (انظر الرسم ٢).

ويمكن اعتماد هذا الأسلوب في العمل العسكري والأمني عموماً، فهو أكثر أمناً من سابقه، لأن صمود شخص واحد يمكن أن يكون كفيلاً بوقف النّزيف وإبطال مسلسل الانهيار وكشف العاملين، كما أن استخدام وسائل الاتصال الآمنة فيه يضمن قطع الخطوط، إلا أن علَّته الأبرز هي كونه أكثر بطئاً وحاجةً للوقت والجهد.

رسم (٢)

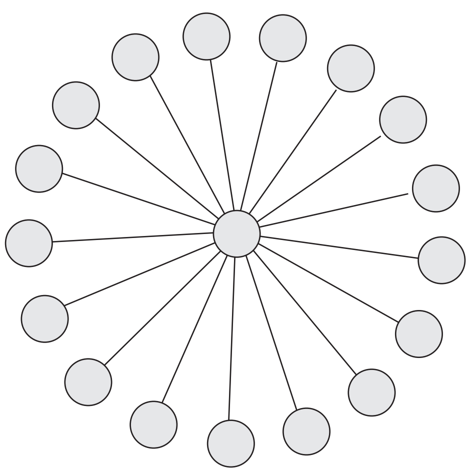


ثالثاً: التنظيم العنقودي:

شبيهٌ بعنقود العنب في شكله، ولذا يُنسب إليه، فهو يتمثّل في قيادةٍ مركزية، تتّصل بها مجموعةٌ من القيادات الفرعية، وكلٌّ منها تقود خلايا فرعية منفردة، والعلاقة بينها تكون مرتبطة بقيادة الخلايا فقط، بحيث تشكّل في مجموعها حبات عنقود العنب.. (انظر الرسم٣).

إذن فكلٌّ حبّـةٍ تمثّل خليةً منفردة، وهذه الخلية ليس لها أيّ ارتباط مع الخلايا الأخرى العاملة، وليس لديها أي معلومة تفصيليّة عنها، وقائد كلٍّ منها لا يعرف المجموعة الأخرى، وليس له ارتباط إلا مع قائده الأعلى، وكذلك القادة لا يعرفون إلا مرؤوسيهم (قادة الخلايا)، دون أن يعرفوا التفاصيل الأخرى، فهي أكثر الأساليب أمناً، وأفضلها أداءً في العمل الأمني والعسكري.

رسم (٣)



رابعاً: التنظيم العشوائي:

(العمل الارتجالي)؛ هو عملٌ قائم على المبادرات الفردية والجهود الذاتية النابعة من قناعة الفرد بدوره الذي يتوجّب عليه القيام به، وانتمائه تجاه دينه ووطنه وأمته، فيبادر إلى الاتصال بعدد من أقرانه، ويُنشئ معهم مجموعة مقاتلة أو أكثر، لا يوجد بينها وبين غيرها من الخلايا أو التنظيمات روابط رسمية أو خطوط اتصال تنظيميّة.

ويُعدُّ هذا النوع من العمل معتمداً بكثرة في تجربتنا الفلسطينية، خصوصاً مع الخلايا المجاهدة التي لا تجد لنفسها خطوط اتصال، أو التي تملك أفراداً توّاقين للجهاد، وهم غير منتسبِين إلى جهاز عسكري، فيبادرون بجهودهم الفردية لإنشاء الخلية وإعدادها وتحصيل السلاح والعتاد، فإذا سنحت الفرصة لهم لإيجاد روابط بإحدى الأجنحة العسكرية المقاتلة، فإنها تعقد هذا الاتصال، فتدخل ضمن هيكليته التنظيمية.

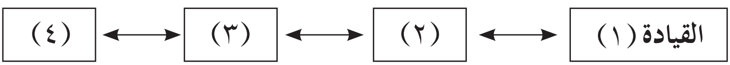
ولقد أثمر هذا الشكل من العمل في فلسطين عن نتائج طيبة، فقد عملت هذه الخلايا مطمئنةً لعِلْمها أنها تملك مفاتيحها بيدها، ولا يمكن لجهة أن تكون سبباً لتُؤتى من خلفها، وإن أي اعتقالات أو حملات قد تطال تنظيمات ثائرة لن تصل في النهاية إلى كشف أمر الخلية، فلا ارتباط بينهما يؤدي إلى كشفها، ولا يملك أحدٌ علماً بأمر هذه الخلية وما استطاعت إنجازه من مهمات.

إلا أن هذا اللون من العمل لا يشكل تنظيماً متكاملاً، ولا يصلح لإدارة شأن عام أو تحريك ثورة مكتملة، أو أن يوجه (جاريلا) ثائرة ويصل بها إلى النصر، كما أن خلاياه عادةً ما تعاني من الضّعف المادي، سواء بقلّة السلاح، أو

بعدم القدرة على تغطية احتياجات العمل ماليّاً، لما للعمل العسكري من تكلفة وتبعات قد تثقل كاهل الأفراد بينما تحتمله التنظيمات.

خامساً: التنظيم الخيطي (السِّلسلة):

يكون الاتصال فيه من القيادة للقاعدة وبالعكس وفي جميع المراحل فردياً، وبذا؛ لا يتعرّف العنصر إلا على عنصر أعلى منه، وآخر أدنى منه، وفقط. (انظر الرسم٥).



فلا يكون هناك اتصالٌ إذن بين (٢) و(٤)، وبين (١) و(٤)، وبين (١) و(٣).

ويمكن أن يكون التّواصل بين الحلقات أمنيّاً (نقطة ميتة)، وبالتالي لا يتعرّف أحدٌ على أحدٍ بتاتاً، ولا يكون معه خليّة يعرفها. فإذا كان اعتقال أيٍّ من عناصر السّلسلة فإنه يكون أكثر أمناً من أيِّ شكل من الأشكال السابقة، وأبعد من الاعتراف، منه أو عليه. إلا أنه يبقى النموذج الأبطأ، والأقل سرعةً في الإنجاز، والأضعف قدرةً على تفعيل المجموعات، لأنه للأفراد.

ويصلح هذا الشكل لبعض المهمات العسكرية والجهادية لجَودته الأمنيّة، إلا أنه لا يصلح بتاتاً للعمل الجماهيري، للسبب الذي ذكرناه.

وفي مجموع أساليب العمل التّنظيمي، نلحظ أن الأمن يتناسب عكسياً مع معرفة قادة وأفراد الخلايا بعضهم بعضاً.. فكلما كُشفت الخلايا على بعضها،

وكلما تعرّف العاملون على بعضهم، وكلما زاد عدد وحجم الخطوط الموصولة؛ قلّتْ نسبة الأمان، وزادت المخاطر وإمكانية السقوط واحتمالية كشف الخيوط والخطوط..

وكلما استُخدم مبدأ قطع الخيوط عبر النقاط الميتة، وقلة المتعارفين، وكلما استُخدمت الأساليب الأقلّ اتصالاً واحتكاكاً؛ زادت نسبة الأمان، وقلّت احتمالية الوقوع والانهيار.

لذا، فإن الأسلوب العنقودي في تشكيل جسم التنظيم العسكري، وقطع خيوط التواصل وخطوط العمل عبر وسائل الأمان، هو الضمان الأفضل لاستمرار الخلايا العاملة في مهامّها عصيّة على الكشف والسقوط. ولقد شهدَ العدوّ الصهيوني بنفسه؛ أنّ الطريقة التي عملت من خلالها الخلايا القسامية المجاهدة المنتشرة في الساحة الفلسطينية شكّلت حائلاً دون سقوطها السريع وانهيارها السهل.

وعلى الرغم من ذلك، فإن قصوراً لا يزال يعتري العمل الفلسطيني المقاوم في تشكيل هياكل تنظيميّة آمنة، وإن السقوط المتواصل والسريع لعدد من خلايا المجاهدين دليل على ذلك. فانعدام الخبرة، وضعف الكفاءة في إعداد التشكيلات التنظيمية، والاستهتار الذي وقع به العديد من العاملين، وعدم استخدام الأساليب الآمنة في التواصل، كلُّ ذلك شكّلَ بجملته ثغراتٍ كانت تسهم في تصدّع وانهيار أركان العمل العسكري... وفي دراستنا (**أمن المطارد/ باب أمن المجموعات**) تفصيلٌ مفيد، ننصح بالرجوع إليه.

ثانياً: التّسليح

لا بدّ للمقاتل من سلاح يستخدمه في حربه ضد عدوه، هذا السلاح يتناسب وطبيعة الحرب التي يخوضها رجل العصابات. ومن المعروف بداهةً أن هناك فرقاً كبيراً بين سلاح المقاتل الثائر، وبين سلاح الدولة المحتلّة التي تقاتله؛ ففي حين يمتلك الاحتلال جيشاً نظاميّاً وأسلحةً ثقيلةً من الطّيران والآليّات الثقيلة والقطع الحربية أو البحرية والعتاد القتاليّ الهائل، فإن الثائر لا يملك إلا سلاحاً خفيفاً يستطيع القتال به منفرداً، هذا السلاح الخفيف يساعده في اتّباع قواعد حرب العصابات من كرٍّ وفرٍّ ومباغتةٍ وكمائن.. ولو ملكَ رجلُ العصابات سلاحاً ثقيلاً لما استطاع إخفاءه أو الانسحاب به، وعندها سيتعرّض للتدمير والفناء، إلا إن كانت (الجاريلا) في دولة صديقة.

كما أن إمكانات (الجاريلا) البسيطة، والتّضييق الذي يفرضه عليها المحتل، وغيرها من الأسباب؛ لا تساعد في امتلاك السلاح الثقيل بكافّة أشكاله، ولو استطاعت توفيره ستبقى النقطة الأولى حائلاً دون قدرة الثوار على استخدامه.. ومع التقدّم في تصنيع السلاح، أصبح بإمكان الثائر أن يحصل على سلاح فردي لكنه ذو فاعلية وكفاءة، ويمكّنه من مواجهة السلاح الثقيل، كما فعل المجاهدون في أفغانستان بحصولهم على صواريخ (ستبحح) الأمريكية المحمولة على الكتف، والتي تستطيع إسقاط الطائرات، فكانت سهماً أصاب الروس في مقتل، وآلم طيرانهم المتفوّق.

ولقد استخدمت المقاومة الفلسطينية عبر مسيرتها ما استطاعت توفيره من سلاح، وهو ضمن الأشكال التالية:

أولاً: السلاح الأبيض:

هو أبسط أنواع السلاح المادي الذي يمكن لمقاومةٍ أن تتسلّح به: السِّكّين، ذلك السلاح الذي يستخدمه من لا يملك غيره، فإذا تعرّض للقهر والاضطهاد، أو رأى شعبه يُقتل ويُذبح ويُشرَّد، ورأى عدوَّه يعيث في الأرض فساداً ولا يجد من يردّه، تتحرّك في المجاهد نوازع الوطنية والحمية والثأر ورفض الظلم، ثم لا يجد أمامه سلاحاً يحقق ثأره، فيعمد إلى سلاح السكّين، لسهولة الحصول عليه، فيجعل منها أداة ثأره، ووسيلته التي يعبّر بها عما يضْطرّم في صدره.

ولقد استُخدم السلاح الأبيض في بعض أشكال المقاومة الخاصة التي لا يصلح لها إلا السلاح الأبيض، ولا يصلح غيره، مثل بعض عمليات الاغتيال؛ كقتل ضابط المخابرات (نحماني)، وكقتل بعض الجنود المختطفين، كرجل المخابرات (ساسون)... وسبب استخدامه هو عدم إصدار صوت كما يفعل السلاح الناري، وبالتالي لا يُلفت النظر، ولا يكشف المنفّذين.

ويقع ضمن إطار السلاح الأبيض، إضافةً إلى السكّين، ما يشابه عمله: كالفأسِ والسّيفِ والحجارةِ والزّجاجاتِ الفارغةِ وكل ما هو دون السلاح الناري.

ثانياً: السلاح النّاري:

سلاحٌ خفيفٌ عموماً، شخصيٌّ غالباً، بدءاً بالمسدّسات، مروراً بالبنادق البدائيّة والأوتوماتيكية، وصولاً إلى المدافع الرشّاشة.

والسلاح الناري هو أكثر الأسلحة استخداماً في حروب العصابات على

اختلاف مدارسها، وقد كان استخدامه في فلسطين في أول أشكال المقاومة المسلحة، فقد استخدمه الثّوار في أسلوب الكمائن المفاجئة التي كانوا يضربون بها مركبات العدو وآلياته وقوافل إمداده وخطوط تموينه واتصاله، كما استخدموه في الاشتباكات المباشرة وغير المباشرة، فأثبت في ذلك نجاعة ونجاحاً.

كما استخدمه المقاومون في الحِراسات الشخصية وحماية الذّات والقيادات، فما من مطاردٍ إلا ويلزمه سلاحٌ ناريٌّ يحمله دفاعاً عن نفسه، وردّاً لعدوّه، ودفعاً للمخاطر عنه، فبدونه يكون عاجزاً لا يملك ردّ فعل، ولا يجد إلا التسليم.

ولقد بدأ المجاهدون في فلسطين مقاومتهم بأعداد محدودة جداً من السلاح النّاري، وبفقدانٍ شبه كامل لأنواع السلاح الأخرى، وقد ذكرنا ما عرضَه الشيخ الشهيد (أحمد ياسين) في هذا الباب، حين قال أنّ قطعة السلاح الواحدة كانت تعمل بها مجموعات القسام في غزة، ثم تنتقل إلى مجموعات الضفة... وهكذا!

أما هذا الشحّ في السلاح؛ فهو عائدٌ إلى الحصار الشديد الذي فرضه الاحتلال على الحدود الفلسطينية من جهاتها الأربع، بحيث يصعب تهريب أي قطعة من السلاح والذخيرة، والتضييق الشديد داخل فلسطين بالملاحقة والمتابعة بقسوة لكل من يفكّر باقتناء السلاح أو المتاجرة به، ولذا فإنه في اللحظة التي استطاعت المقاومة فيها حفر أنفاق سرّية بين قطاع غزة والأراضي المصرية، أصبح السلاح يتدفّق بكثرة، حتى أصبح لكلّ مجاهد قطعة سلاح، بل أصبح الحديث دائراً حول مفهوم (فوضى السلاح) لكثرته وسعة انتشاره دون ضوابط.

كذلك فإن من الأسباب التي زادت من توفّر السلاح وانتشاره؛ دخول

السلطة الفلسطينية بأجهزتها الأمنية وأسلحتها النارية إلى عدد المناطق الفلسطينية.

أما عن كيفية الحصول على السلاح واستخدامه والحفاظ عليه، ففي باب (أمن السلاح) من دراستنا (أمن المطارد) تفصيلٌ وبسطٌ يمكن الرجوع إليه.

ثالثاً: السّلاح المتفجّر:

وهو أحد أسلحة الجاريلا الأشد فتكاً.. استخدمتْه الثورةُ الفلسطينيةُ قديماً، ثم خَبا نجمُه زمناً، ليعود من جديد مع مطلع التّسعينات وبقوة متصاعدة وأشكال متنوعة، خصوصاً مع انطلاق العمليات التّفجيريّة الاستشهاديّة التي صُبغت بها المقاومة الفلسطينية.

ويُلاحظ أنّ لسلاح التفجير صوراً عديدةً استخدمتها المقاومة بشكل متصاعد أحياناً، ومتزامن أحياناً أخرى، أوّلها العبوات التي تُزرع في طريق أهداف العدو المتحرّكة، وثانيها القنابل اليدويّة التي تُرمى على التجمّعات والنّقاط الثابتة والأهداف المتحرّكة، وثالثها وأرقاها وأبلغها: العمليات الاستشهادية بأشكالها؛ سواء بالأحزمة أو الحقائب أو السيارات المفخّخة...

وما يميّز هذا السلاح، أنه ذو تأثير كبير يفوق مثيله من الأسلحة النّارية أو البدائية، حيث أنّ أذاه أكبر، والضرر المترتّب عليه أبلغ، بالإضافة إلى التدمير الذي يصاحبه، والخسائر المادّية الجسيمة التي يُحدثها، والإصابات الأكبر، والأكثر عدداً في الأرواح، كما أنه يترك أثراً نفسياً بالغاً في المحيط، قد يفوق في عمقه الإصابات المباشرة، كما يحدث دَويّاً إعلاميّاً صارخاً في المجتمع..

وأكثرها أثراً هي العمليات التي حيّرت العدو الصهيوني، فوقف أمامها صامتاً، ولم يجد عليها إجابة.

لقد اعتمدت المقاومة الفلسطينية في عمليات التفجير على مبدأ التّصنيع الذّاتي والتطوير الدائم، واستخدام أبسط المواد الأوليّة للوصول إلى المركبات المتفجّرة، فبعد أن استَخدمت مادة (TNT) الجاهزة التي استخرجتها من الألغام الأرضية وقذائف الهاون، ومادة كحل البارود المستخرجة من الرصاص، ومادة الكبريت المأخوذة من كبريت البيوت، انطلقت لتصنيع المواد المتفجرة من الأسمدة وموادّ التنظيف والمواد الأولية، حتى وصلت إلى عدّة مواد متفجّرة كانت أداتها في ضرب عدوّها، مما دفع الاحتلال إلى منع هذه المواد، وفرضَ حصاراً عليها وطلب متابعة مشتريها، الأمر الذي دفع المقاومة إلى إدامة البحث عن مواد جديدة أكثر شيوعاً يُنتجون منها متفجّراتهم.

وقد أدخلت المقاومة التطوّرَ التكنولوجي في خدمة سلاح التفجير، في محاولةٍ لجعله أعمق أثراً، وأقلّ تكلفةً بشريةً، وأقلّ خطراً على المنفّذ، فانتقل التفجير من استخدام السلك الموصول بالعبوة، والمنتهي إلى بطارية يمسكها المجاهد لتشغيلها، مضطراً إلى البقاء قريباً منها، انتقل إلى استخدام أجهزة التحكم عن بُعد، والريموت الذي لا يحتاج إلى سلك أو بطارية، والهاتف النقّال الذي يمكّن المجاهد من تفجير العبوة من أيِّ موقعٍ كان.

وهكذا أصبح سلاح التفجير في مقدمة الأسلحة المستخدمة في المقاومة الفلسطينية ضد عدوّها، سواء في الدفاع عن المدن في عمليات الاجتياح المتكرّرة التي يمارسها الجيش الصهيوني، أو نصْب الكمائن لقواته وآلياته، أو لمهاجمته في عقر داره وتجمّعاته التي كان يحسبها آمنة.

رابعاً: السّلاح الصّاروخي:

ونقصد به السلاح الصاروخي الخفيف، كالصّواريخ المحمولة على الكتف؛ مثل صاروخ (RBJ) المضاد للدروع، وهو أول سلاح صاروخي استخدمتْه المقاومة الفلسطينيّة خارج فلسطين، ثم أصبح في نهاية التّسعينات بيد المقاومة في (غزة)، إلى أن تمكّنت كتائب القسام من إنتاجه محلّياً تحت مسمًّى (الياسين). ومثله صاروخ (لاو)، وهو قليلٌ في فلسطين.

ومنها صواريخ ذات قاعدة أرضية؛ بدءاً بالمقذوفات (الهاون)، ويسمَّى (المورتر)، والتي كانت تأتي جاهزة، ثم المصنَّعة محلّياً، وصولاً إلى الصواريخ الأرضيّة محلّية الصُّنع (القسّام)، والتي أصبحت مفخرةَ صناعةِ السّلاح المحلّية، وقد تطور هذا الصاروخ شيئاً فشيئاً، ليزداد وزنه وحجمه ومَداه وقوّة تفجيره، ولا يزال العمل على تطويره جارياً، الأمر الذي يُشعر الاحتلال برعبٍ كبير.

ولقد استطاعت المقاومة الفلسطينية، وتحديداً كتائب القسام، تصنيعَ أنواعَ عديدةٍ من الصواريخ المضادّة للدّروع، وصواريخ (أرض-أرض)، والمقذوفات، وأصبحت جميع القوى المقاوِمة تتسابق في هذا الميدان، ولا زال السَّبق من نصيب القسام.

لقد أثبتت هذه الصواريخ نجاعتَها وقدرتَها على ضرب أهدافها والإثخان بعدوِّها، وقد كان (لغباءها وعشوائيّتها) فضلٌ في عدم قدرة العدوّ على إيجاد مضادّ لها، على الرغم من تقدمه العلمي، واستعانته بخبراء الجيش الأمريكي والجيش البريطاني وغيرها من الخبرات، وعلى الرغم من إنتاجه عدّة أنواع من السلاح المضاد، وتطويره أسلحة أخرى، واستعانته بأسلحة جاهزة... إلا أنها فشلت كلُّها في إسقاط صاروخ القسام أو التصدّي له.

لذا، فقد خلقت هذه الصواريخ حالةً من (توازن الرّدع)، وأثارت الرُّعب، وأذهلت العدو وأجهزته الأمنية والعسكرية وعموم مجتمعه، فلم يُجْدِ معه سورٌ واقٍ، أو حزام أمني، أو حصار عسكري، أو إجراءات مشدّدة، أو رقابة دائمة... كما لم يعد المقاوِمُ بحاجة إلى الانطلاق بنفسه وبمتفجّراته إلى هدفه، فالصاروخ يقوم بالمهمة عنه.

ومن أشكال الرعب التي ظهرت على الكيان الصهيوني مؤخَّراً؛ محاولتُه إيجاد دروع معنويّة ثقيلة على جميع المباني في مدينة (اسديروت)، باعتبارها الأكثر تعرّضاً لصواريخ القسام وتضرّراً منها، إلا أنهم عَدَلوا عن الفكرة لعدم جدواها، ولارتفاع كُلفتها، ولأن الكتائب وسّعت نطاق الصواريخ وأصبحت قادرةً على ضرب مراكز أخرى.

إضافةً إلى ما سبق، فإن بعض المجموعات المجاهدة حاولت استخدام السلاح (الكيماوي) غيرَ مرّة، وذلك بإضافة موادّ كيماوية سامّة وقاتلة إلى بعض أسلحة التفجير، وقد كشفت التّحقيقات هذه المحاولات، إلا أنّ الأمر لا يزال قيد التّجربة والمحاولة والتفكير، ولم يدخل حيّز التنفيذ الحقيقي، وذلك لأسباب عديدة، وقد يكون السبب عدم رغبة المقاومة بإدخال الصّراع في مرحلة جديدة قد تكون آثارها وخيمة، وقد تؤدّي إلى ردّة فعل قاسية وفوق الطاقة.

هذه هي الأسلحة الخفيفة التي تسلّحت بها المقاومة الفلسطينية داخل الوطن، أما خارجه؛ فقد استطاعت المقاومة أثناء تواجدها في لبنان الحصول على بعض أنواع الأسلحة الثقيلة، كالدبّابات الروسية (T٥٥)، وبعض الصواريخ المضادّة للطّيران، والمدافع الثقيلة، وراجمات الصواريخ، وأنواع أخرى من السلاح، إلا

أنها استُخدمت بغالبها في الصراع الداخلي والحرب الأهلية، وانتهى مع خروج قوات الثورة نحو الجزائر.

إن التنوّع في سلاح المقاومة الذي تملكه، يعطيها قوةً ومرونةً وقدرةً على استخدام السلاح الأنسب في الوقت الأنسب، ويساعد في توجيه ضربات أكثر إيلاماً للاحتلال، ويجعله أشدَّ حيرةً وأبعد قدرةً على توقّع القادم، فيزيد من حجم المفاجأة وأثرها فيه. كما أنه يجعل بدائل المقاومة متعدّدة، ويمكّنها من المناورة، فتتخيّر السلاح الأنسب من بينها، وتلوح بأشكالها المختلفة.

ثالثاً: الاستخبارات

لا بدّ لكلِّ ثورةٍ مسلَّحةٍ وجماعةٍ مناضلةٍ من التسلّح بالسلاح الاستخباري الأمني؛ فهو يضمن لها استقراريّتها، ويَقيها من مكائد عدوّها، ويُعينها على تنفيذ مهامّها... ولم يَخلُ نموذج من نماذج حرب العصابات الحديثة من جهازٍ استخباريٍّ يؤدّي هذا الغرض، بل إنّ معلّمَنا رسول الله ﷺ اعتمد مبدأ الاستطلاع والاستخبار باعتماد الفِرَق الاستطلاعيّة التي تعمل على كشف نوايا أعداء المسلمين، وتتحسَّس أخبارهم، وتستطلع تحرّكاتهم، وتعمل على إيصال معلوماتٍ مغلوطةٍ إليهم. كما حرصَ ﷺ في ذات الوقت على أن يقتديَ أصحابه به ويحذوا حذْوه، يقول عنه الكاتب (منير الغضبان) تحت عنوان؛ (قوة المخابرات النّبويّة): «لو وقفنا على السّرايا والبعوث والغزوات في هذه المرحلة، لأذهلَنا قوّة المخابرات النبويّة بصورةٍ يكاد لا يشهد لها التاريخ مثيلاً»(١).

١ (المنهج الحرَكي للسِّيرة النبويّة)، أ. منير الغضبان.

ثم تبعه صحابته الأخيار من بعده(١)، فاقتفوا أثَره، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عنه، يضع بعضاً من قواعد الرّصد والاستطلاع في وصيّته لسعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللهُ عنه، قائد جيش المسلمين في معركة القادسية، فيقول له: «إذا وطئْتَ الأرض فأرسل العيون، ولا تخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو أهل الأرض من تطمئنّ من نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صَدقكَ بعضُه، والغاشّ عينٌ عليك وليس عيناً لك».

إن أهمية العمل الاستخباري تكمن أساساً في أمرَينِ اثنَين، ينبثق عنهما فروعٌ عديدة:

أوّلهما: إعطاء رجل العصابات والمجموعات المقاتلة الطمأنينةَ والاستقرارَ والشّعورَ بالأمان، مما يدفعه إلى التفرّغ الكامل للعمل والإعداد والتخطيط لضرب عدوّه والنَّيل منه، فهو يثق بوجود عيون ساهرة وجنود مجهولين يقومون على حمايته والحفاظ عليه من أن يُؤتى من مأْمَـنِه، أو أن يُطعن على حين غرّة.

ثانياً: توفير المعلومات الّلازمة والتّفصيليّة عن العدو، وأماكن تمركزه، وخطوط إمداده، وكيفيّة تحرّكه، ونقاط ضعفه وقوّته، وغيرها من المعلومات التي تحتاجها الخلايا في عملية ضرب العدو والإثخان فيه، وإن هذه المعلومات توفّر للمقاتل صورةً جليّـةً عن هدفه، وتجعله صيداً سهلاً له، فيضع الخطة التي تتناسب وطبيعة الهدف زماناً ومكاناً وهيئةً.

إن العمل الاستخباري يُعـيْن (الجاريلا) على معرفة الواقع من حولها، والاطّلاع على ما يدور في محيطها والتخطيط له، فتستعدّ لذلك، ولا تكون

---

١ الرَّحيق المختوم)، المباركفوري.

في غفلة، ولا تُفاجأ بالنّازلة وهي في سباتٍ عميق، وبالتالي يساعدها في اتّخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة كلِّ خَطْب.

والمتابع للعمل الاستخباري، يلاحظ أنه ينقسم من حيث مهامِّه إلى قسمين:

أولاً: الأمن الداخلي:

ويقوم على متابعة الأوضاع الداخلية للتنظيم وخلاياه العاملة، حفظاً وترتيباً وإعداداً، فهو يشمل:

أ ـ أمن الأفراد: ويعني الحفاظ على سلامتهم وحمايتهم مما يتهدّدهم، وصون دمائهم وأرواحهم، وعدم تعريضهم لما فيه هلاكهم أو أذيتهم، ففي الوقت الذي يتحصّل فيه التنظيم على معلومات استخباريّة حيّة وساخنة تبيّن حركةَ العدو وقوّاته، فتكشف شيئاً من نواياه، فإنها تضع المعلومات بين يدي القيادة التي توجّه الأفراد لما فيه سلامتهم، فتحفظهم من الوقوع في قبضة عدوِّهم.

ومن باب آخر، فإن (أمن الأفراد) يحصّن جنودَ المقاومة من الوقوع في شِرك الحرب النّفسية التي عادةً ما يشنّها العدوّ عبر إعلامه المضلِّل، حيث ينشر معلوماتٍ كاذبةً تثير الذُّعر في أوساط رجال المقاومة، وتضعهم في صورةٍ مغلوطةٍ تشكّكهم في قيادتهم وقدراتها، وفي إمكانية استمرارهم وانتصارهم، فإذا ما وفّرت أجهزة الاستخبارات في قوى المقاومة المعلومات الصحيحة عن واقع الاحتلال وحاله، وعن مجريات الأمور، ووضعتها أمام المقاتلين، فإنها فتكفل لهم الاطلاع على حقيقة الحال، وما يتكبّده الاحتلال من معاناة وخسائر، وما يتعرّض له من أضرار مادّية ونفسية جرّاء المقاومة، وما تتمتّع به المقاومة من رباطةِ جأشٍ، وقدرةٍ على العمل، وتقدّمٍ في الأداء، وإنجازٍ على الأرض، وتحقيقٍ

للأهداف... وما يحيطها من تعاطفٍ أُمَمي، وتأييدٍ عالمي، والتفافٍ جماهيري، فإن ذلك كلَّه يرفع هِممَ المقاتلين، ويزيد من حماسِهم واندفاعهم، ويرفع سقفَ استعدادِهم وقناعتَهم بعدالةِ قضيتهم، ويحفظهم من الاضطراب.

ب ـ أمن المعلومات والأسرار: فلكلّ ثورةٍ أو جماعةٍ أسرارُها ومعلوماتُها التي تسعى إلى حفظها، وتعمل على صَوْنها من الوقوع في أيدي عدوِّها، ولها أرشيفها الذي تجتهد في الاحتفاظ به بعيداً عن الأعين إلى حين حاجة. بما يحويه هذا الأرشيف من أوراق ووثائق ومستندات ومخطوطات، وهي تعلم أنّ وقوع هذه المعلومات في أيدي عدوِّها يُعدَّ ضربةً قاسيةً قد تُصيبها في مقتل، وتحديداً إن تحدّثْنا عن جماعةٍ عسكريةٍ مجاهدة، فهي أشدُّ حرصاً على صونها وحفظها بأسلم الطرق.

هذه الأسرار على اختلاف مسمياتها وأشكالها تحتاج إلى من يقوم بحفظها، بحيث يختصّ بهذه المهمة، وتكون شُغلَه الشاغل، وهمَّه الذي يملأ رأسه، ومهنتَه التي يُبدع فيها، فيبحث عن أنجع الطرق والوسائل التي تحقق له الهدف، ويضع أعتى العراقيل التي تحول دون تسريبها أو الوصول إليها، ويشرف بشكل دائم على سلامتها، ويُعنى بإضافة كلِّ جديد إليها، ويقوم على استرجاع الّلازم منها.

ومع التقدّم العلمي، ووجود الكمبيوتر والإنترنت، أصبح من الواجب على أهل الاستخبارات والأمن في المقاومة أن يَعمدوا إلى التبحّر في فنون هذا الباب، واستخدام ما يمكن منه في سبيل تحقيق أعلى قدْر من الأمان لأسرار ومعلومات المقاومة.

ومن العلوم التي وجب على أهل الاختصاص الاهتمام بها؛ لما لها من دورٍ في أرشفة وحفظ المعلومات، (علم التّشفير) و(علم الكتابة السِّـرّية)، ولنا معها وقفة فيما هو آت.

ج- أمن الحفظ من الاختراق: لعلَّ من أبرز ما يقوم به جهاز الأمن، هو حفظ تنظيمه وثورته سليمةً من الاختراق الذي يسعى العدوّ إلى إحداثه في جسم الثورة وقواها المناضلة والعاملين فيها.

فالعدو يفهم يقيناً، كما نفهمه نحن، أنّ خيرَ وسيلةٍ لضرب المقاومة والإجهاز عليها؛ هي ضربُها من الدّاخل عبر زرع عملائه ومُندسّيه في صفوف الثورة، والسعي إلى البلوغ بهم إلى مراكز متقدِّمة، ليكونوا قادرين على تسريب المعلومات اللّازمة إلى العدو، والتي تكشف هيكليّة التنظيم وتُعرّيه بوضوح، فيسهل ضربه واستئصال العاملين فيه، والإبلاغ عن المعلومات التي تخصّ العمليات الجهادية قبل حدوثها، فيستعدّ العدو لها ويحبطها، كما يقومون بتشويه صورة الثورة والمقاومة من خلال فضح بعض العملاء العاملين في صفوفها، وإظهارها كمجموعة من الـخَونة والعملاء، وبالتالي تنتزع الثقة منها.

كما يهدف العدو من خلال هؤلاء العملاء إلى حرف الثورة عن مسارها، وإخراجها من مسلكها، وخصوصاً إن كانوا ممن تبوّأَ مناصب قياديّة ومواقع متقدمة. ويحقّق العدوُّ من خلال عملائه تثبيطَ هِمم أبناء المقاومة والشعب، وإحباط جهودهم، والتّخذيل عنهم ومن حولهم، وبذا فإن مثلَ هؤلاء العملاء متعدّدي الأغراض؛ هم من أخطر ما يتعرّض له مقاتلو العصابات ومجاهدو المقاومة.

ولقد نجحَ عدوّ الثورة في جميع التجارب المعاصرة في زرع بعض عملائه في صفوف الثوار، فحقّقَ جزءاً من أهدافه، لكنه أخفق في محاولات أخرى، وفشل في تحصيله أهدافاً أخرى.

كذلك فقد نجحَ الثّوار مراراً في كشف العملاء والخونة، وإنزال العقاب العادل بحقّهم، ومنع آخرين من بلوغ هدفهم، وبذا تمكّنوا من دَرْءِ أخطار، وتقليلِ خسائر، وإنجاحِ عمل.

د ـ أمن التّعبئة والتوجيه: فكما أنّ لحركاتِ المقاومةِ أجهزتها الأمنية المختصّة، فإن لعدوِّها أجهزة تفوقها عدداً وعدّة وتنظيماً وتخصّصاً، وهي تصل الليل بالنهار بحثاً وتخطيطاً وعملاً وتنفيذاً لضرب المقاومة وأذرعتها، وهي بعملها تحاول التطوير والابتكار، فضلاً عن استخدام الأساليب التقليديّة المتَّبعة، فلا بدَّ للمقاومة من متابعةِ أساليب هذه الأجهزة ووسائِلها في ضرب المقاومة ورَصْدِها ومحاولةِ الوقوف عليها، وإيجادِ العلاجات والحلول الأمثل التي تَـحدُّ من خطرها.

وكذا فإن من أساسيات حماية المقاومة؛ إيجاد ثقافة أمنيّة تُفصّل صورةَ عدوِّها، فتكشف الثّغرات، وتُعرّي وسائلَ هذا العدو الخبيثة أمام المجتمع، وتعلّمهم كيفيّة النجاة منها واتقاء آثارها، كدراسة ظاهرة (العصافير)، وشرح أساليب التحقيق وكيفيّة الصمود، وبيان وسائل الإسقاط والإيقاع في وحل الخيانة، والإرشاد إلى طرق الوقاية من ذلك كله.

هذا وغيره يُعدّ من العناوين الهامة التي تحتاج إلى الاستفاضة في البحث، وتوعية المجتمع عموماً، والقوى المقاومة والجنود المجاهدة خصوصاً بالمعلومات التي توفّر لهم الحماية والأمان.

ثانياً: الأمن الخارجي:

ويهتم بالعدوِّ الخارجي، ومعرفة أكبر كمٍّ من المعلومات عن مراكز تجمّعه، وخطوط إمداده، وكيفية تحرّكه، وآلية عمله، وماهيّة نظامه الأمني الذي يحمي به نفسه، وطرق اتصاله، ومكامن قوته، ونقاط ضعفه، وهو مقسومٌ إلى:

أ ـ الرَّصْد والاستطلاع: ويقوم على معرفة المعلومات الدّقيقة عن العدو، وتحديد الطرق الأمثل لضربه والإيقاع به والتعامل معه، كما يحاول الاطّلاع والتعرّف على مخطّطات العدو ونواياه المبيَّتة، ومن ثم التعامل مع هذه المعلومات والمخطَّطات، والسعي إلى إبطالها، واتخاذ التدابير الأمنية الّلازمة التي تحبطها وتتّقي شرورها.

إنّ من قواعد العمل العسكري، أنَّ (الرصد نصف العمل العسكري)، وقد قيل: «باستطاعتك أن تخوض أيَّ معركةٍ دون خسارة؛ إذا عرفتَ نفسك، وعرفتَ عدوَّك»، وبالتالي لا بدَّ من جمع المعلومات الدقيقة، والتي تُعرِّف مقاتلي الثورة بحقيقة عدوِّهم، وثغراته التي يمكن أن يأتوه من قِبَلها... فلا يمكن للمجموعات المقاتلة أنْ تقومَ على مهمّةٍ قتاليّةٍ غير محسوبة بدقّة، أو بدون أن تخبر هدفها بوضوح، وتعرف كيفيّة الوصول إليه وآلية ضربه، وطريقة العودة إلى المأمن، وما الذي تحتاجه المهمّة من رجالٍ وعتادٍ وإمكانات؟ وكم يلزمها من الوقت حتى تنجز؟ وما هي المخاطر التي تحفّها؟ والطّوارئ التي يمكن أن تستجدَّ خلالها؟ وكيفيّة التعامل السليم مع هذه المستجدّات؟ ومحاورُ كثيرةٌ وأسئلةٌ عديدةٌ لا تأتي الإجابة عليها إلا عبر معرفةٍ دقيقةٍ وشاملةٍ بحالةِ العدو.

لقد أوجدت كتائب القسام فِرَقاً متخصِّصةً لغرض الرصد والاستطلاع،

أطلقت عليها (كتائب المرابطين)، وهي فِـرَقٌ كثيرةُ العدد من المجاهدين، موزّعةٌ على طول حدود قطاع غزة، هدفها التعرّف على حركة الجيش وتجمّعاته، ورصد نشاطاته، ووضع ذلك كلِّه بيد القيادة، وقد قامت هذه الفِرَقُ بأدوارٍ طيّبةٍ في مواجهة محاولات الاغتيال المتكرّرة، وذلك برصد حركة الطائرات المتّجهة إلى القطاع، والإبلاغ عنها قبل وصولها لأخذ الحِيطة والحذر.

ومع التقدّم العلمي والتّقني، فإنه يمكن لفِرَقِ الرَّصد والاستطلاع أن تستخدم وسائل تقنيّة متطوِّرة، بدءاً بأجهزة الرّصد الّليلي، مروراً بأدوات التّصوير المتقدِّمة، وصولاً إلى الإنترنت وما يحويه من خرائط يمكن توفيرها على خدمة (Google earth)، وكل ما من شأنه خدمة هذا الهدف.

والناظر إلى تجربتنا الفلسطينية، يجد أنّ الغالبيّة العظمى من عمليات المقاومة، سبقَها نشاطٌ استطلاعي رصْدي، يهدف إلى معرفة أكبر قدر من المعلومات عن الهدف، حتى يستطيع المقاوِمون تحديد تفاصيل المهمّة.

ب ـ الاختراق المضادّ (الجاسوسيّة): إنّ قمة النّجاح الاستخباري في الحرب الدائرة بين (الجاريلا) الثّائرة وعدوِّها المحتلّ؛ هو أنْ تستطيعَ اختراقه بزرع عيون لها (جواسيس) في جسمه، ليقوموا بأدوار عديدة تخدم المقاومة وتضرب المحتل، وإن نجاح المقاومة في إدخالِ عنصرٍ لها في جسم العدو عبر ما يسمى بالعميل المزدوج، يُعطي مدلولاً رائعاً لقدرة المقاومة وتقدّمها في أدائها، كما يشير إلى هشاشة العدو وضعف دفاعاته، على الرغم مما يبذله من جهود وإمكانات لتقويتها.

ولذا، فإن أي (عميل) يتمّ كشفه في أجهزة العدو، فإنه يستوقف الجميع، وتُثار عليه ضجّةٌ كبيرة، ويُعطى اهتماماً مركَّزاً.

لقد اعتمدت الدُّول العظمى أسلوب الاختراق في حروبها؛ كما فعلت الولايات المتّحدة الأمريكية والاتحاد السّوفيتي في (الحرب الباردة) التي دارت بينهما لعقود، وخصّصت في ذلك جهوداً وإمكانات ومُقدّرات وموازنات، وقد كانت القوّة الاستخباريّة لأي طرف تُقاس بمقدار ما يحقّقه من اختراقٍ في صفوف خصمه.

وكذا اعتمدت الثورات هذا الأسلوب في مواجهاتِها المفتوحةِ مع عدوِّها، فقد تمكّنت المقاومة الفلسطينيّة من ردِّ اعتبارها مراراً عبر عدّة اختراقاتٍ أحدثتْها في جدار الأمن الصُّهيوني.

وقد استطاعت المقاومةُ من خلال اختراقاتِها تحقيقَ عدّة أغراض:

– فقد تمكّنت من تضليل العدو، وذلك بإيصالِ معلومات خاطئةٍ عبرَ عملاءَ مزدوجين صرفوا النظر حيناً عن بعض المجاهدين، وسلّموا معلوماتٍ تجعل بحث أجهزة الأمن الصهيونية يسير في الاتجاه الخاطئ.

– الحصول على معلوماتٍ استخباريةٍ عن الاحتلال وأذنابه، سواء بالاطّلاع على أسماء عملائه وكشفهم، أو بمعرفة معلوماتٍ عن تحرّكات جيشه، أو بالطريقة التي استطاع فيها الشهيد (ماهر أبو سرور) الحصول على المعلومات، وذلك عندما قتلَ ضابطَ المخابرات الصّهيوني المسؤول عن تجنيد العملاء بعد أن كان على اتفاق معه للقائه في شقّةٍ أعدّها الاحتلال لغرض الاتصال بالعملاء، ثم استولى شهيدُنا على حقيبةِ أوراقه وما تحويه من وثائق ومعلومات.

- توجيه ضربات قاسية للاحتلال وأجهزته الأمنية، وقتل ضباط ورجال مخابراته، وأمثلة ذلك كثيرة، من أبرزها عملية الشهيد (عبد المنعم أبو حميد)، الذي تواعد مع مسؤولٍ كبيرٍ في المخابرات على اللقاء في مكانٍ كان أبطالُ الكتائب قد أعدّوا فيه كميناً، فتمكّنوا من قتلِه هو ومرافقه، وكذلك عملية الشهيد (ماهر أبو سرور)، وعمليّتا (ثقب القلب) و(السهم الثّاقب) في قطاع غزة، وغيرها...

- لقد كانت حَربُنا مع الاحتلال حرباً أمنيّةً استخباريةً بالدّرجة الأولى ولا زالت، وهذا ما عبّرَ عنه قادة الأجهزة الأمنية الصهيونية، عندما قالوا لرئيس وزراء العدو (إسحاق رابين): «إنّ معركتَكَ مع (حماس) معركةٌ أمنيّة، ونحن نكفيكَ إيّاها»، وقد ردَّ الله كيدَهم إلى نحورهم. ولذا لا بدَّ لنا من أنْ نضعَ الأمرَ في نِصابه من حيث الاهتمام والأولويّة.

رابعاً: الإعــلام

يُعـدُّ الإعلام من الأسلحة السِّلميّة التي تملك تأثيراً كبيراً على الناس في كلِّ الظروف سِلماً أو حرباً، وقد اصطُلح على تسمية الإعلام بـِ (السلطة الرابعة)؛ لما يملكه من تأثير كبير يوازي السُّلطات الثلاث: التّنفيذيّـة والتّشريعيّـة والقضائيّـة.

وسلطةُ الإعلام نابعةٌ من كونه صاحبَ تأثير على الجمهور حيثما كان، إلى حدٍّ أنه يبني فِكرَهم، ويحدّد توجّهاتِهم، ويحسم قراراتِهم، حتى بدا وكأنه يملك عليهم سلطةً لكنها بالإقناع، وإن كان الإعلام قديماً يملك هذه السلطة، فإنه يملك اليوم أضعافها.

وفي حرب العصابات، يبرز الإعلام كسلاحٍ مقاومٍ وأداةٍ قتاليّة، وأسلوبٍ نضاليٍّ موازٍ لحمل السلاح وضرب العدو، فهو سلاحٌ استراتيجيٌّ لا تملك ثورةٌ أو مقاومةٌ أن تستغنيَ عنه، أو أن تقصِّـرَ فيه، فإنْ علمنا دوره؛ عرفْنا السبب الذي جعله سلاحاً استراتيجيّاً وليس تكتيكاً قتاليّاً.

دور الإعلام المقاوم:

إذا امتشق المقاوم سلاحه وصوّبه إلى صدر عدوِّه؛ فإنه يهدف إلى إيقاعِ الأذى به وحـمْـلِه على الانسحاب من أرضه، فإن كان العمل المقاوم مقتصراً على هذا الأسلوب، فإن تأثيره يبقى محدوداً مقتصراً على من تلقّى الضربة المباشرة، أما إذا رافق العملَ المقاوِمَ إعلامٌ موازٍ له؛ فإنه يضاعف مفعوله، ويعمّم أثَره، ويقطف ثماره، وهذا ما عبّر عنه العقيد الإسرائيلي (شموئيل نير) بعد الحرب مع (حزب الله) في جنوب لبنان، فقال: «**لقد كنّا نحارب حزبَ الله بطائراتِنا ودبّاباتنا في لبنان، بينما كان يهزمُنا في بيوتِنا من خلال التلفزيون**». فقد كان تأثير الإعلام اللبناني أقوى من تأثير الصواريخ، وكان كلُّ مقاتلٍ يتحرّك لتنفيذ عملية؛ يتحرّك خلفه مصوِّرٌ لتوثيق ما يقوم به، وكلُّ أمٍّ يهوديّةٍ كانت ترى الانفجار على التلفاز؛ تتصوّرَ أنّ ابنَها هو الضحيّة.

ولذا، فإن أثَر الإعلام يتعدّى أثر السلاح في مساحته، كما يتعدّاه في اتجاهاته، وكما أن له أثراً في عدوِّه، فإن له أثَراً داخليّاً في نفوس أبناء الشعب المجاهد. **وإنّ من أدوار الإعلام في حرب العصابات ما يلي:**

– رفع معنويات الشعب وشحذ همته، وتنمية صموده، وزيادة إصراره على

مجالدة عدوِّه وتحصيل حقوقه، وإقناع هذا الشعب بقدرته على دحر عدوه حتى لو ظهر ميزان القوى راجحاً لكفّة الاحتلال. فهو يبرز مواطن القوّة لدى المقاومة، ويعرض إنجازاتها، ويضرب الأمثلة العالميّة على نجاح أصحاب الحق في انتزاع حقوقهم من مُغتصبيها، وهو يُبرز ضَعف الاحتلال وهشاشة كيانه، وزيف قوّته، ويُظهر بعض مناحي الضّعف التي بدت عليه جرّاءَ ضرباتِ المقاومة.

– تثقيف الشعب بشتّى ألوانِ الثقافةِ الثَّوريّةِ والأخلاقيةِ التي يجب أن يتحلّى بها، وتعليمه كيف تكون المقاومة والصمود، والآليات المثلى في المواجهة. فهو يبصّره بدسائس الاحتلال ومكائده ومصائده، وكيفيّة الوقاية منها، والعلاج من آثارها، وتجنّب الوقوع فيها، بل ويعلّمه كيف يردّ كيدَ الاحتلال إلى نحره، فيرتدّ على أعقابه دون أن ينال بُغيتَه.

– وهو كذلك ينشر ثقافةً مضادّةً للثقافة الاستعمارية التي يحاول الاحتلال أن يغرسَها في أذهان الشعب المقهور. فما من قوّةِ احتلالٍ عسكريةٍ إلا صاحبَها قوّةُ إعلامٍ ينشر ثقافةً تضليليّةً تهدف إلى صرف أنظار الشعب عن قضيّته، وإشغالهم بتوافهِ الأمور عن عظائمها، ونشر الرّذيلة والفساد الذي يُشغلهم عن المقاومة والجهاد، ولا بدّ لهذا الإعلام من إعلامٍ مضادّ.

– نشر أفكار (الجاريلا) وعدالة قضيّتها عالمياً، والدفاع والذَّود عن المقاومة، ورفض الاحتلال، وتعريف الأمم بها وبمصداقيّتها، والردّ على كلِّ ما يدور حولها من شبهات واتّهامات وتضليل، ومخاطبة العالم وشعوبه من منبرٍ يُنصف القضيّـةَ وينتصر لها، ويضعها في نِصابها الصحيح، وإلا فإنّ العالم

بأُممه وشعوبِه لا يسمع عنها إلا من فمٍ مُغرض، ومنبرٍ مشوَّه، وإعلامٍ مضلّل، وتفقد القضية تأييداً ودعماً هي بحاجة إليه.

- والإعلام ذو تأثير كبير على العدو كما أسلفنا، فالعمل المقاوم من غير إعلام سيفقد كثيراً من أثَره، وهذا ما يدفع الاحتلال إلى عدم الاعتراف بخسائره مخافةَ أن يتزعزعَ استقرار مجتمعه. فإذا كان الإعلامُ المقاوِمُ قويّاً، بحيث يستطيع أن يكشف الحقائق ويوثّقها ويصل بها إلى كلِّ بيتٍ من بيوت عدوِّه، فإنه ينجح في إنتاج أصداء كبيرة لكلِّ عملٍ صغير، ويحقّق أثراً معنويّاً يفوق الأثر المادّي، فيثبّط معنويّات عدوِّه، ويفتُّ من عَضُدِه، ويُوصله إلى القناعة بأنه ضعيف أمام المجاهدين، وأنّ المقاومة تقوى يوماً بعد يوم، وأنه سيدفع الثّمن يومياً من نفسه وأولاده واقتصاده وأمنه، وألّا مفرَّ من الانسحاب.

وهذا ما نجحَ به ثُوّار فيتنام (الفيت كونغ)، فأوصلوه إلى الشعب الأمريكي الذي خرج بمظاهراتٍ شعبيةٍ أرغمت الحكومةَ الأمريكيةَ على سحب جيشها من أرض فيتنام. وهذا ما تحقّقه المقاومة العراقية يوماً بعد يوم مع كلِّ تصويرٍ تبثُّه لعبوةٍ تنفجر، أو مركبةٍ تتحطّم، أو جنديٍّ يتهاوى، أو نعشٍ يُحمل، أو مقاومةٍ تنتصر.

- والإعلام المقاوم يبثُّ قصص الأبطال، ويجعلها ثقافةَ الشعب وأغنيةَ صِغاره، ويَعرض إنجازات المقاومة وعمليّاتها وبطولاتها، فيفتح الباب للاقتداء، ويُرهِب عدوَّه ويُرعبُه ويدبُّ الذُّعر في صفوف جنوده وشعبه فيُفقده الأمان، ويفضح أمام العالم جرائمَه ومجازره واعتداءاته، فيعرِّيه ويكشفُ زَيفه ويسلبُه الدَّعم والتأثير.

- والإعلام المقاوم يقوم بدور التّحريض الذي لا تستمر (الجاريلا) إلا به؛ التحريض بمفهومه الصّادق الذي أمرَ به ربُّ العزّة بقوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [سورة الأنفال:٦٥]، فتلقَّفَ نبيُّ الله ﷺ أمرَ ربِّه فقال: «من ماتَ و لم يَغْزُ، و لم يحدِّثْ نفسَه بالغزْو، ماتَ على شُعبةٍ من النِّفاق»[١].

- كما أن الإعلام المقاوم إنْ كان صادقاً وموثِّقاً في عرضه لإنجازات وعمليات المقاومة، فإنه يدفع المحتل إلى الاعتراف بخسائره، فيزيد من انهيار مجتمعه، ويحطِّم معنويّات جنده، ويُلهِبُ في الوقت ذاته حماسَ مقاتلي المقاومة والشعب. كما أنه بذلك يوثِّقُ لمقاومته، ويثبت بطولاته، فيضعها بين يدي المشاهِد يتعلّم منها درساً فيقتدي، أو يهتدي بالتّكرارِ تارةً، وبالاعتبارِ تارةً أخرى.

- وهو كذلك يروِّجُ للفصيل أو الجماعة بإيجاد منابر إعلاميّة خاصة بها، أو بالاستفادة من المنابر الإعلامية الأخرى المحلّية والعالميّة. فقد عَمِدَتْ قوى الثّورة في كلِّ قُطر عملت فيه إلى إيجادِ منابرَ إعلاميّةٍ خاصّةٍ بها، تحاول من خلالها نشرَ فِكرها وتوضيح صورتها، من خلال الصّحف والمنشورات والإصدارات والمطبوعات والمؤلَّفات والمحطّات التّلفزيونيّة أو إذاعة الرّاديو.

فما من (جاريلا) إلا ودعَمَها جهازٌ إعلاميٌّ على رأسه إذاعة، لأنها كانت أقوى وسائل الإعلام، ومنها التّجربة الصّينيّة والفيتناميّة والكرديّة والفلسطينيّة، واليوم أصبحت كلُّ مقاومةٍ أو حركةٍ أو جماعةٍ مسلَّحةٍ تملك منبراً جديداً هو

---

١ رواه مسلم وأبو داوود.

(الإنترنت)، تؤدّي عبره ذات الدَّور، وذلك لسعة انتشاره وسهولته وتميّزه بالأمان، إضافةً إلى امتلاك بعضها قنواتٍ تلفزيونية، كما هو الحال مع حركة حماس وفضائيّتها (تلفزيون الأقصى).

ومن ناحية أخرى، فقد أصبح الإعلام العالميّ أكثر انتشاراً وحريةً، وأصبحت قوى المقاومة أكثر قدرة على الوصول إلى هذه المنابر لبسط قضيّتها، فقناة (الجزيرة) مثلاً، وهي القناة الأكثر انتشاراً في عالمنا العربي، يستطيع أيُّ فصيلٍ أنْ يَظهر عليها لِتُجريَ معه مقابلةً أو حواراً، فيعرض فكرته ويبسط قضيّته، ويدافع عن مواقفه ويوضّح حقيقته.. وتلك لا شكَّ نقلةٌ نوعيّةٌ استفادت منها المقاومة.

خامساً: التّخـفّي

التخفّي لغةً هو الكتمان والتورية، واصطلاحاً: هو مجموعةُ العمليّات والممارسات التي يتّبعها المجاهد الثّائر لإخفاء حقيقته عن عدوِّه، والحفاظ على نفسه من الانكشاف، وعلى مهمّته من الفشل، فيستخدم في سبيل ذلك أساليب الحيلة والخداع الّلفظي والشّكلي والعملي.

وقد امتلأت كتب التاريخ بقصص وأحداث التخفّي والتنكّر الناجحة التي استخدمها المقاتلون بهدف خِداع عدوِّهم للهروب منه، أو لتسهيل ضربه في عمقه.

أهداف التخفّي:

استُخدم التخفّي للتّسلّل في قصّة (حصان طروادة) الشهيرة، فاستطاع المقاتلون من خلاله فتح حصن المدينة عبر حيلة (الحصان الخشَبي) بعد أن صمدَ الحِصن في وجهِ الجيش الغازي لشهورٍ طويلة. واستطاع حذيفةُ بنُ اليَمان، كاتمُ سرِّ رسولِ الله ﷺ، أنْ يتسلَّلَ إلى معسكر المشركين في غزوة الأحزاب، ويعودَ إلى رسول الله ﷺ محمَّلاً بالأخبار.

واستُخدم التخفّي للاختراق في قصص وحوادث لا حصرَ لها، ومن أشهرِها في العصر الحديث؛ قصّةُ العميل المصريّ (رأفت الهجّان)، الّذي زرعتْه المخابراتُ المصريّة في الكيان الصهيوني، فعمل بنجاحٍ على نقلِ معلوماتٍ مهمّةٍ وخطيرة، واختراق العديد من المؤسسات الصهيونية، إلى أن توفِّيَ في فلسطين دون انكشافِ أمره. ومثلُه العميل المصري (جمعة الشوّال)، والعميل الصّهيوني (إيلي كوهن)، الذي غرسَه الاحتلال الإسرائيليّ في النّظام السُّوريّ، فارتقى في سلّم المسؤولية بحزب البعث الحاكم، إلى أن أصبح في مقدّمة الصفوف، ثم تمَّ اكتشافُ أمرِه، فقامت سورية بإعدامه.

واستُخدم التخفّي في أعمال المطاردة، كما فعلت المقاومة ومقاتلوها في فلسطين، ومنهم المهندس (يحيى عيّاش)، والقادة (عماد عقل) و(عادل عوض الله) و(محمود أبو هنّود)، ونفَّذَ المجاهد الاستشهادي (عبد الباسط عودة) عمليّتَه متنكّراً بزيٍّ فتاة، وكذا فعلَ (معاوية جرارعة) في عملية (محنى يهودا).

وهو أيضاً ما فعلَه قائد عصابات (الأرجون) الصهيونية؛ (مناحم بيغن)، الذي تقمّصَ العديد من الشخصيّات، ومنها شخصيّة طبيب، ورجل دين،

وشابّ بريطاني.. واستطاع الإفلات من قبضة ورقابة الجيش البريطاني مراراً، وتنفيذ العديد من العمليات الإرهابيّة بحقِّ الشّعب الفلسطيني الأعزل، وضدّ الجيش البريطاني.

وهو أسلوبٌ استخدمه أبرز قادة العمل النضالي بل والإرهابي على مستوى العالم ليختفوا عن الأنظار، ومنهم (كارلوس)، و(أبو نضال)، و(أوجلان).

واستُخدم التخفّي لضرب العدو كما فعلَ مجاهدو القسّام في عمليّات الاختطاف المتكرِّرة التي تمكّنوا عبرها من أسْرِ أكثرَ من عشرة جنود، في محاولةٍ للمقايضةِ عليهم لإطلاقِ سراحِ الأسرى، ومنهم (آلي سبورتاس) و(إيلان سعدون) و(نحشون فاكسمان)، واستخدمه مقاتلوا خليّة (سلواد) مراراً لتنفيذ هجماتٍ ناريّةٍ ناجحة نحو المركبات الصهيونية، فكانوا يلبسون (القمباز) والثوب النّشاطي القَرَوي، بينما يُخفونَ السلاح تحته، فيكون هجومُهم مُباغِتاً وعنيفاً.

إذاً فالتخفِّي استُخدم في وسائل قتاليّة تحقِّق هدفَين: أوّلهما؛ اختراق العدوّ وجلب المعلومات الدّقيقة عنه، لضربه في عُقْر داره، وتنفيذ العلميات ضدّه، وثانيهما؛ الاختفاء عن أعين العدو، والحفاظ على الذّات، والتنقّل بأمانٍ أكبر.

أساليب التَّخفِّي:

التّخفِّي والتّنكّر علمٌ واسعٌ فيه دراساتٌ وأبحاث، وله متخصِّصون وخبراء، ازدادت إمكاناته بشكل كبير مع التقدّم العلمي، وانتشار صناعة السِّينما على وجه الخصوص.

ولا يخرج التّخفّي الفردي في إطاره العام عن أحد أسلوبَين؛ فإما أن يكون التغيير في الشكل والمظهر الخارجي، أو أن يكون في الاسم مع إخفاء حقيقة المقصد، ويمكن الجمع بين الأسلوبَين زيادةً في الاختفاء.

أ ـ انتحال اسم جديد بدلاً عن الاسم الأصلي، وتزوير أوراق ثبوتية، واستخدامها كبديلٍ عن الأوراق الأصليّة؛ كالهويّة، وجواز السّفَر، ورخصة السِّياقة، وشهادة الميلاد.

وقد اعتاد المتخفّون أن ينتحلوا أسماءَ أشخاص ميِّتين، أو أصحاب هويّات مفقودة، أو بالاتفاق مع أشخاص على انتحالِ أسمائهم، أو حتّى أسماء وهميّة، على أنّ جميعَ هذه الحالات تحتاج إلى الانتباهِ إلى أنْ لا تكونَ الأسماءُ المنتَحَلةُ تعود لأشخاص يملكون سوابقَ تجعلُهم معرَّضينَ للشكِّ أو الملاحَقة.

ولقد استطاع (إيلي كوهن) اختراق النّظام السُّوريِّ بهذا الأسلوب، تحت اسم (كمال أمين)، وهو الأسلوب الذي استخدمه (رأفت الهجّان) تحت مسمّى (ديفد شارى سمحون)، وهو الأسلوب الذي استخدمه المطارد في فلسطين مراراً.

ب ـ تغيير المظهر، وهو الأسلوب الأكثر استخداماً، ويُستخدم معه الأسلوب الأوّل دائماً، إذ لا يُعقل تغييرُ المظهر الخارجي دون تغييرِ الاسم والأوراق الثُّبوتيّة المحمولة.

هذا الأسلوبُ تطوَّرَ بشكل مضطرد، بدءاً بمحاولةِ تغييرٍ للمعالم العامّة للوجه، كحلقِ اللّحيةِ والشّوارب والشّعر، أو تركيبِ شَعرٍ مُستعار، مروراً بتغييرِ طبيعةِ اللِّباسِ الّذي اعتادَ أن يرتديه المطارد، كارتداء زيّ عجوز أو امرأة،

أو ارتداء زيِّ العدو، وصولاً إلى استخدام علم التّجميل الذي يُغيِّرُ لونَ البشرةِ ومعالَمَ الوجه ولونَ العينَينِ والشَّعر. بل وتجاوز الأمر إلى استخدام هذا العلم في إحداث تغييرٍ جذريٍّ في المظهر يزيل علاماتٍ فارقة، ويضع غيرَها، كشكلِ الأنفِ والشِّفاه أو الشّامة.

ولقد استخدم رجالُ المقاومة هذا الأسلوب في كلِّ مكان، وبواسطته استطاع المطاردون في فلسطين الحِفاظَ على أنفسهم، وتوجيه الضّربات لعدوِّهم. وقد ذكرتُ قصّةَ المجاهد (محمد بشارات) تفصيلاً في هذا الكتاب.

وفي ذات الوقت، فقد استخدم الاحتلالُ الإسرائيليُّ هذا الأسلوب في مواجهة المقاومة الفلسطينية، فأنشأَ وحداتٍ مقاتلةً تحت مُسمَّى (الدفدوفان ـ وحدات الـمُستعرِبين)، فكانوا يرتدون الزيَّ العربيّ، ويتواجدون في التجمّعات الفلسطينيّة الشَّعبيّة، والمواقع التي يتوقّعون لها أن تشهدَ أحداثاً ثوريّة، ثم يبادرون إلى القبضِ على كلِّ من يحاول تنظيم عمل مقاوِم.

آليّات العدوّ في كشْفِ الـمُتخفِّين:

يبذل العدو جهوداً كبيرةً لضربِ رجل العصابات المتخفّي، لعلمهم بخطورته وقدرته على تحقيق ما يعجز عنه غيره، ويستخدم المحتلُّ في ذلك ما يملكه من وسائل علميّة وعمليّة وعقليّة، ومن ذلك:

– الرّصد، وذلك بتجنيد العملاء والخونة في صفوف الشعب لهذه المهمة: فلقد بذلَ العدوُّ جهوداً مُضنيةً في سبيل إسقاط أبناء هذا الشعب ومجاهدِيه وتجنيدِهم في صفوف (الشِّين بيت) الصهيوني، وتسخيرهم في ضرب المقاومة

الفلسطينية. بل إنّ دَورَ العملاء في الحرب الموجَّهةِ إلى صدور هذا الشعب لا يقلُّ عن دَورِ الاحتلال نفسِه، وقد صرّحَ أحدُ قادةِ أجهزةِ الأمن الصهيونية؛ أنه مهما بلغَ التّقدّمُ التّكنولوجيُّ لهذه الأجهزة، فإنها لن تتجاوز (٢٠٪) من عملها، ويبقى الدَّور الأكبر للعملاء.

لقد عملَ الطّابورُ الخامسُ على رصْدِ حركاتِ نشطاءِ المقاومة ورفْعِها إلى أسيادهم، والبحثِ الدّائم عن المتخفّينَ والمطاردين، ومحاولةِ كشْفِ أماكنهم ومواقعهم، ومعرفةِ أنشطتِهم وفعاليّاتِهم، وتوجيه الجيش الصهيوني لضربهم. ونستطيع الجزْمَ أنه ما من عمليّةٍ استخباريّةٍ أمنيّةٍ نفّذها جيش الاحتلال بحقِّ المطلوبين المتخفّين الفلسطينيّين، إلا وللعملاء فيها يدٌ ومساهمة.

– **اختراق المتخفّين، وزرع المتساقطين في صفوفهم**: وهي استكمالٌ للبند السّابق، فكثيراً ما نشرَ الاحتلالُ عملاءَه هنا وهناك في محاولةٍ لإيجادِ خطٍّ تنظيميٍّ يوصلهم إلى المطاردين تحت أيِّ مبرِّر، ومن ثم التّظاهر بأنهم من المقاوِمينَ أو المطلوبِين، والانخراط في صفوف المقاومة، وكشف الهياكل العامة، وأماكن تواجدها وآليات عملها، ورفعها إلى أجهزة الأمن الاحتلالية لتوجيه الضربة في الوقت المناسب، وقد كشفت التّحقيقات استخداماً واسعاً لهذا الأسلوب.

– **الاستفادة من اعترافات المعتقلين**: فالاعترافات تكشف أساليب تخفّي المطاردين والعاملين، والمخابئ التي يستخدمونها، وآليات التخفّي التي يتعاملون بها.

وإنّ استخدام الاحتلال لهذه الاعترافات في الوصول إلى المطاردين والمتخفِّين، ثم عَملُ الدّراسات والبحوث، كان له الأثَر الكبير في تراكم خبراتِ

العدوِّ ومعرفته لسلوك المطارد، وتحديد أساليب التخفّي التي يعتمدها، خصوصاً أن الغالبيّة العُظمى من هذه الأساليب متكرِّرة ويستخدمها جُلُّ المطاردين.

– **التّنكُّر بأزياء المطاردين وعلى هيئتهم**: وقد سبقَ الحديث عن وحدات (المستعربين) الصهيونية التي نشطت في الانتفاضة الأولى، واستطاعت ضرْبَ المقاومة مراراً، ولعلَّ القارئ في كتاب (مهنتي كرجل مخابرات) لكاتبه رئيس جهاز الشّاباك الإسرائيلي السّابق (يعقوب بري)، يدرك كم كان الاحتلالُ يطلق فِرَقاً من جنوده في الجبال والمناطق التي يتوقّع أن يكون فيها مقاومون مطاردون، بحيث تنتشر هذه الفرق بلباس رجال المنظّمات، وتحمل أسلحةً شبيهةً بأسلحتهم (كلاشنكوف)، ويحاولون اللّقاءَ والاتّصالَ بالخلايا النّاشطة والعاملة بتلك المنطقة، ومن ثم اعتقالها أو اغتيالها أو وضعها تحت عدسات الرّقابة لتحقيقِ أهدافٍ أخرى، وقد نجحوا في محاولات عديدة.

– **الاستدراج**: ويكون بافتعالِ أحداثٍ لجلبِ المتخفِّينَ وإخراجِهم من مكانهم وظهورهم على حقيقتِهم، فقد اعتمدت أجهزة الأمن الصهيونية مبدأَ (الطُّعْم) في العديد من الحالات، كرمْيِ سلاحٍ في أحد المواقع ومراقبته بعد إيصالِ معلومةٍ لمن يُعتقد أنّ له علاقةً بالمطارد كي يُوصلَها إليه، أو افتعالِ مشكلةٍ معيّنةٍ أو حدَثٍ يدعو صاحبَ الشّأنِ إلى الظُّهور، ومن ثم الانقضاض عليه.

– **استخدام التّكنولوجيا واستثمار التقدّم العلمي والتّقني المضطرد**: كالتصنّت على أجهزة الاتّصال السلكيّة واللاسلكيّة، والتعرّف من خلالها على بصمة الصوت وموقع صاحبه، ومعرفة شبكة العلاقات المحيطة بالمطارد، والتعرّف على مخبئه وتحرّكاته ونواياه، أو بزرعِ أجهزة تصنّتٍ وتجسُّسٍ في بعض المواقع والبيوت وقِطَعِ السّلاح التي تعود للمطارد. إضافةً إلى استخدام طائراتِ

التّجسُّسِ والأقمار الصِّناعيّة وغيرها من الأجهزة المتطوِّرة التي تكشف خفايا الأمور، وتوصل العدوَّ إلى هدفه.

– **المُصادَفة**: فكثيراً ما تصلُ أجهزة الأمن الصهيونية إلى المطارد عن طريق المصادفة وبدون سابق تخطيط؛ بعمليّةِ اقتحامٍ عشوائيّة، أو بوقوعِه بيدهم خطأً، أو أنْ يُعرِّضَ المتخفِّي نفسَه لرهانٍ غيرِ محسوب، كأن يمرَّ عن حاجزٍ عسكريٍّ على أملِ أنْ لا يُفتّشوه أو يسألوه عن هويّته، فيدخل في الاحتمالات التي تقبل الخطأ.

***

سادساً: وسائل الاتّصال الآمِنة

في حرب العصابات، يبحث العدو عن الثّغرات التي تَحدث مع الثائر أثناء عمله ومقاومته، محاولاً اقتناصَها وضرب المقاومة عبرها. وفي المقابل، يبحث الثائر عن هذه الثّغرات ليسدَّها ويتجنّب الوقوع فيها والانزلاق في مخاطرها، ويبحث عن العلاج الأنسب، وطرق الوقاية الأفضل، حتى تصبح مقاومته أكثر أمناً.

ومن أبرز الزّوايا التي تزخر بالثّغرات: (وسائل الاتصال)، سواءً بين المجاهدين أنفسهم، أو مع الآخر؛ في خطوط التواصل بين القائد والجندي، و بين المجموعة والأخرى، وبين أفراد المجموعة ذاتِها، وبين قطاعات المقاومة

المختلفة، وبين المقاومة والإعلام، وبشكلٍ عام، بين المقاومة والآخر أيّاً كان... إذ يضطر الثائر دوماً إلى التواصل مع غيره سعياً إلى تنسيق الموقف، والحصول على السلاح والعتاد، وتبادل المعلومات اللازمة، وتنفيذ الهجمات الجهاديّة..

ولذا، فقد حاول خبراء ومفكّرو حرب العصابات والعاملون في هذا المجال ابتكارَ الوسائل التي تقلّل مخاطر الاتصال، وتعالج ثغراته، فكان اختراع الحِبر السّرّي وتطويره، وكان العمل بالشّيفرة والتّرميز والنّقاط الميتة، والاجتهاد في ابتكار الأساليب الفاعلة في قطع الخيوط ومحو الآثار، وعدم ترك أو إحداث ما يقود إلى الوقوع.

أولاً: التّشفير:

هو أسلوب وعلم التّخاطب بين طرفَين أو أكثر بطريقة يفهمونها، بحيث تحمل الرسالة مجموعةً من الرّموز؛ تشير في معناها الحقيقي إلى معنىً مختلفٍ عن معناها الظّاهري، وهي تلك اللّغة الخاصة البديلة المستخدمة بالتّوافق بين الأطراف، بحيث لا يستطيع أحدٌ غيرُهم فهمَها أو الوقوفَ على معانيها.

يرجع العمل بأنظمة التّشفير إلى عدّة آلافٍ من السّنين، أي مع بدء الأعمال الحربيّة بين القبائل والتجمّعات والقوميّات، فقد تمَّ اكتشاف مخطوطات فرعونيّة تشير إلى ذلك، ثم مارسَ الصّينيّون هذا العلم وتقدّموا به، وأصبحوا يستخدمون (الكبسولات) الشّمعيّة التي يتمُّ إخفاؤها؛ إمّا بالبَلع، أو بإدخالها في الأحشاء (من الدُّبر).

وبعد ذلك، كان استخدام أسلوب الحفر على الخشب، ثم سكب الشّمع

الـمُذاب فيه وطلائه للتّمويِه، فإذا جاء الطّرف الآخر، أذابَ الشَّمعَ وقرأ المكتوب، ثم كانت الهند التي ألزمت سفراءها بتعلّم الكتابة بلغةٍ سرّية، وأجادت في ذلك حتى وضعت أوّلَ كتاب في هذا العلم...

ثم توسّعت رقعة استخدامه، ليصلَ إلى اليونان التي أضافت إليه إضافات هامة، ثم حضارة ما بين النَّهرَين، من بابليِّينَ وآشوريِّينَ ثم فُرْس ورومان، إلى أن جاء المسلمون الذين جعلوه علماً مستقلاً قائماً بذاته كباقي العلوم. فدوّنوه خطّياً في العام ٢٤١هـ، حين كتبَ العالم الجليل (أبو بكر وحشية) كتابه: (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام)، ثم كانت موسوعة (صبح الأعشى) للقلقشندي، الذي أفردَ مجلَّداً بعنوان (إخفاء المعلومات السرِّية في الرّسائل)، وقسّمه إلى قسمَين؛ الأول يبحث في الرّموز والاصطلاحات، والثاني في فكِّ الرّموز والحِبر السرِّي.

وبعد اختراع الاتّصالات الحديثة السِّلكيّة واللّاسلكية العابرة للقارّات، أخذ التّشفير منحىً آخر، ودخلَ مرحلةً جديدة، وشكّل فيها أحد أعمدة الحروب العصريّة الحديثة، وعاملاً من عوامل النصر، وقد شهدت الحرب العالميّة الثانية أبرز تلك الحروب الاستخباريّة التي كان عِمادها عِلْم التّشفير.

ومع انتشار الإنترنت، وصلَ التّشفير موصلاً لم يكن يتصوّره عقل، فأصبح غايةً في التّعقيد، واستخدمتْه جميع القوى الثوريّة والتحرُّريّة المقاوِمة، ومن أبرزها تنظيم القاعدة، الذي اعتمد على الإنترنت في ربطِ شبكةِ علاقاتِه وتبادلِ أفكارِه ومعلوماتِه، وعَـرْضِ أهدافِه ومخطّطاتِه وإعدادِ عمليّاتِه.

و لم تكن المقاومة الفلسطينية بِدعاً ولا نشازاً، بل استخدمت التّشفيرَ البدائيَّ

مع انطلاق أعمالها الفدائيّة، ثم تطوّرت عبر استخدام الإذاعات (الراديو) الخاصّة بالثّوار، إلى أن دخلت عالم الإنترنت واستخدمتْه في أعمالها.. وقد كشفت التّحقيقات الصهيونية مع المقاوِمين عن كثير من ذلك، إلا أنّ التّجربة الفلسطينية لا زالت خجولةً نسبةً إلى غيرها، فلم تُعطِ هذا العلم اهتماماً مستقلاً، و لم تنجز فيه تقدّماً ملحوظاً. ولعلَّ ضِيق البُقعة الجغرافيّة كان أحد الأسباب التي ساهمت في ذلك، إذ أنّ الاتصال المباشر بين أطراف العمل كان السِّمةَ الأبرز، واستخدام الأساليب البدائيّة كان ذا جدوى وأمان أكثر من غيره.

ولتحقيقِ قدْرٍ أعلى من الأمن في استخدام الشِّيفرة؛ نرى ضرورة الوقوف على مجموعةِ ملاحظاتٍ لا تقلُّ أهمّيةً عن الشِّيفرة ذاتها، وتعطيها مزيداً من القوة والأمان، وهي:

عدم استخدام شيفرة جاهزة، كالشِّيفرات المستخدمة في أجهزة الكمبيوتر، إذ أنّ الاحتلال إذا تمكّنَ من الحصول على رسالة مشفّرة، فإنه يبدأ بعرضها على البرامج الجاهزة، وعلى الشِّيفرات المعدَّة مُسبقاً، فإن لم يجدْ ضالّته انطلقَ في البحث بالاتّجاهات الأخرى.

عدم استخدام مصطلحات معروفة وعبارات واضحة وكلمات متوقَّعة الدّلالة، خصوصاً في الشيفرة بالكلمات، كأن تستخدم (رمّانة) بمعنى قنبلة يدويّة، أو (بطّيخة) بمعنى (عبوة)، أو (عروس) بمعنى استشهادي، فقد كَثُرَ استخدام مثل هذه المصطلحات، حتى أصبحَ من السُّهولة الوصول إليها.

– أن تظهر الرسالة (المشفَّرة بالكلمات) كنصٍّ طبيعيٍّ واضحِ الدّلالات، وليس تجميعاً، بمعنى: أنّ أحدَهم إذا قرأ الرسالة، يجب ألّا يدرك أنها رسالةٌ

مشفَّرة، بل يجدها رسالةً عاطفية مثلاً، أو رسالةَ عمل، أو رسالةً اجتماعيّة، وأن يجدَها مترابطةً متناسقة، ليست مفكّكةً أو لا تُعطي مدلولاً، لأنه عندئذٍ سيعلم أنّ وراء الرسالة ما وراءَها، ويبدأ بالبحث عن مفتاحها، فتسهل عليه كشف الرسالة، فالواجب أن يكون التشفير بطريقةٍ لا تثير ارتياب أحد.

– أن تكون الرسالة مناسِبةً للشخص الـمُرسَلة إليه، فإذا كانت موجّهةً إلى طالبٍ مثلاً، فالأصل أن يتحدّثَ ظاهرُها عن الدّراسة والتّعليم والتّسجيل والامتحانات، وإذا كانت مُرسَلَةً إلى مهندس، فالحديث عن المشاريع والمخطَّطات الهندسيّة والخرائط، وهكذا... حتى لا تثير الرّيبة.

– السّعي إلى البحث والتّطوير والابتكار في أساليب إرسال الرّسالة المشفَّرة، وعدم الاكتفاء بما سبقَ من وسائل وما تمَّ اكتشافه من أساليب، وكلما استطاع المقاوِمُ إيجادَ وسائل غير مسبوقة، يكون قد وضع عراقيل جديدة في طريق من يحاول كشف الشِّيفرة.

– عدم استخدام لغة التّشفير ذاتها بشكلٍ دائم، بحيث لا يبقى الاستخدام لمدة طويلة، فإذا استطاع الاحتلال فكّ رموز الشِّيفرة، فإنه لا يهنأ بذلك، لأنها لا تلبث أن تتغيّر، حتى لو لم يعلم المجاهدون أن عدوَّهم كشفَها.

ثم إن وقوع أكثر من رسالة مشفَّرة بين يدي العدو تحمل الشِّيفرة ذاتها، يقصِّر المسافةَ عليه في حلِّها وفكِّ رموزِها، بينما إذا وقعت هذه الرسائل بين يديه وهي مكتوبة بأكثر من شيفرة، فإن ذلك يضعه في متاهة، ويضلّله في مساره، ناهيك عن أنّ المدّةَ الزمنيّةَ كلّما طالت؛ زادت من احتماليّة وقوع المجاهدين في خطأ يؤدّي إلى كشف شيفرتهم.

– عدم وضع المعلومات في سلّة واحدة، حذَراً من وقوعها بيد الاحتلال، فتكون الكارثة. بل يُفضَّل تجزئتها إلى أجزاء، بحيث لا يؤدّي وقوع أحد هذه الأجزاء بيد العدو إلى خسارة، وبالتالي لا يفهم العدوّ مغزى الرسالة ولا معناها.

وتحت هذا الموضوع حديثٌ طويل، وتفصيلٌ كثير، ومنه مثلاً أن تقسَّم الرسالة بكلِّيّتِها إلى عدّة أقسام، أو أن يُرسَل نصُّ الرسالة دفعةً واحدةً خاليةً من أيِّ رقم أو اسم، وتُرسل الأرقام والأسماء والتّواريخ مشفَّرةً في رسالةٍ أخرى. وكذا أن يُرسل مفتاح الشِّيفرة مجزّءاً، فالأحرف والكلمات في رسالة، ورموزها ومعانيها في رسالة أخرى. ويمكن أن يكون التقسيم أكثر من ذلك وأعقد، وكلما ازداد تعقيده ازداد أمانه.

– عدم إطْلاع جميع العاملين على الرّموز والتّفاصيل وآليّات التواصل، وتضييق دائرة العارفين بها إلى أضيق نطاق، والإبقاء على أعلى درجات السرِّية في التعامل بها، فلا يعلم بها إلا صاحب الحاجة المباشرة؛ كمسؤولي الخلايا المتّصلة وليس أفرادها، أو ضبّاط الاتصال... وفي ذلك فوائد جمّة، منها تجنُّبُ الخطأ، أو الاعتراف في التّحقيق، أو الثَّرثرة، أو حتى الاختراق، وفي حالة الشكّ في انكشاف أمرِها، لا بدَّ من الجدِّ في المسارعة إلى استبدالِها بشيفرةٍ جديدة.

– عدم كشف الشِّيفرة ومفاتيحها بعد الانتهاء منها، والإبقاء عليها ضمن المعلومات السرِّية، فكلّما كشفَ العدو أسلوباً جديداً في التّشفير، فإنه يحاول من خلاله فهم ذهنيّة المقاوِمين وطرق تفكيرهم، ويسعى إلى تقدير الآليّة التي يعملون بها أو سيعملون.

– عدم إشراك أكثر من خليّة في ذات الشِّيفرة، مما يعني أنه إذا انكشفت الشيفرة فإنها تؤدّي إلى ضرب أكثر من خطٍّ اتصال، وكشف كمّ أكبر من المعلومات. فيجب أن يكون لكلِّ خليّةٍ شيفرتها الخاصة، وإن كانت بطريقة خاصة فهو أفضل.

ثانياً: الحِبر السِّرّي:

يزيد الحِبر السرِّي في المراسلات التّنظيميّة من سرّية الاتصال وحفظ المعلومات، فيجعل الخطوط أكثر أمناً. وعلى الرغم من المخاطر التي تصاحبه، فإنه إذا أحسنَ المجاهدُ استخدامه مصحوباً بعوامل تمويهيّة وتضليليّة تزيد من سرِّيّته، فإنه سيحصل على خطوط اتّصال آمِنةٍ يصعب كشفُها واختراقُها.

والكتابةُ بالحِبر السرِّي، تعني استخدام محاليل كيميائيّة في كتابة نصوص مَخفيّة، فلا تظهر إلا باستخدام محاليل كيميائيّة أخرى كاشفة، كبخار اليود مثلاً، أو بعمليّة تسخين للرّقعة التي كُتبت عليها الرّسالة.

ومن هذه المحاليل أو الأحبار السرية الّتي استُخدمت في كتابة الرّسائل؛ كبريتات النّحاس، ومحلول البيراميدون، وبعض السّوائل العضويّة، كالخلّ والليمون والحليب، وغيرها من السّوائل التي تختفي فور كتابتها.

كذلك مما يزيد من قوة هذا الأسلوب؛ استخدامه مدعَّماً بأسلوب (التّشفير) الذي سبقَ ذِكره، كأن تُكتب الرّسالة بالرموز المشفَّرة، وبالحِبر السرّي، وبموقعٍ غيرِ متوقّع (بين سطور رسالة عادية أو على ظهر رقعة غير متوقَّعة أو في مكانٍ آمن)، وبهذا فإنه إذا سقط الحاجز الأول وكُشفت الرقعة، وسقط الحاجز الثاني

وكُشف الحِبر السرِّي المستخدم فظهرت الرّسالة، كانت الرموز السرِّية (الشيفرة) المعقَّدة بالمرصاد، ومثَّلتْ حاجزاً ثالثاً يحولُ دون الوصول إلى حقيقة الرسالة، وكذلك يمكن أن يكونَ تقسيم الرسالة إلى أجزاء عديدة حاجزاً رابعاً.

هذان الأسلوبان؛ (الشِّيفرة) و(الحِبر السرِّي)، يشكّلان مجتمعَينِ ضماناً لرفع درجة الأمان في الاتّصال، إلا أنهما يبقَيانِ قابلَينِ للوقوع في أيدي أجهزة الأمن المعادية، ومن ثم كشف الرسالة، وتبقى نقطة الحسم التي تجعل منهما أساليبَ ناجحةً وآمنةً، هو مقدار التّعقيد والغموض الذي يصاحب لغةَ التّواصل وما تتّسم به من حِنكة وتدبير.

وإنِ استخدمْنا التّشفيرَ عبرَ الأثير، فيجب ألا ننسى أنّ الموجاتِ الصّوتيةَ السابحة في الجو ملكٌ للجميع، والكلُّ يستطيع الوصولَ إليها، وإذا استخدمْنا الحِبرَ السرِّيَّ بأنواعه، فعلينا أن ندركَ أن جميعَ مخابراتِ الدُّول استخدمتْه منذ زمنٍ بعيد، وإذا استخدمْنا الرّموزَ الكِتابيّة، فلْنتذكّر أنّ لدى عدوِّنا وأجهزته الأمنيّة مؤسّساتٌ خاصّةٌ متخصِّصةٌ ومتفرِّغةٌ لدراسة وتحليل كلِّ أنواع الكلام الذي يصلها سعياً إلى تفكيكه والوصول إلى فحواه.. فلْنحذر!

ثالثاً: النّقاط الميتة:

يهدف استخدام النّقاط الميتة في الاتصال إلى قطع الخيوط الواصلة بين الأطراف، وإيجاد فراغات وتقطيعات معلوماتيّة تجعل مهمّة الاحتلال في تتبّع المعلومة والوصول إليها ثم الوصول من خلالها إلى أطراف العمل أمراً في غاية الصّعوبة والتّعقيد.

فهو أسلوبٌ يحدُّ من حجم المعلومات المكشوفة والمتداولة داخلياً، بحيث لا يطّلع العاملون على بعضهم البعض بصورةٍ مكشوفة، ولا يتعاملون معاً بشكلٍ مباشر، الأمر الّذي يجعلهم غيرَ قادرينَ على تقديم هذه المعلومات إلى العدوّ عبر التّحقيق أو بطريقة الخطأ أو المصادفة.

وسواء أكانت النّقاط (ميتةً) عبر نقطة لقاء جامدة، أو (نصف ميتة) عبر شخص ملثّم أو غير معروف.. وسواء أكانت (طبيعيةً) لا تحتاج إلى إعداد، أو (مُصطَنعةً) تُعَدُّ من الثّوار لأغراضٍ واستخداماتٍ خاصة، فإنها تؤدّي الغرضَ الذي أسلفناه ذاتَه.

ولتحقيق قدْرٍ أعلى من الهدف الّذي استُخدمت لأجله النّقاط الميتة، فإنه لا بدَّ من اتّباع مجموعةِ ملاحظات، منها:

– لا بدَّ من اتّباع قدرٍ كبيرٍ من السرِّية والكتْمان في التّعامل مع النّقاط الميتة؛ سواء بمكانها، أو شكلها، أو توقيت العمل بها، وكلّ ما من شأنه أن يكشفَ أمرَها.

– الالتزام بمواعيد العمل في النّقاط الميتة (الشّحن والتّفريغ واللقاء)، لأن الحضورَ المبكّر أو المتأخر قد يكشف الطّرفَ الآخر في العمل، وبالتالي لا تحقّق النّقطة الميتةُ عملَها وغايتّها، وعدم التردّد على الموقع بغير حاجة، فكثرة التردّد عليها يُسرِّعُ في كشفها.

– الاتفاق مع الطّرف الآخر على نقطةٍ بديلةٍ تكون معدَّةً للعمل بها في حال انكشافِ أمرِ النّقطة العاملة، لأن عدم الاتفاق على نقطةٍ بديلةٍ قد يؤدّي إلى قطعِ الاتصالِ إذا ما انكشفت النّقطةُ الأولى.

– إذا كانت النقطة (نصف ميتة)، فلا بدَّ من مراعاة كون الشّخص الملثَّم لا يحمل علامات فارقة أو سمات مميّزة؛ كالعرَج أو الطُّول الشّديد، أو الصّوت المميَّز، وألّا يكون من نفس منطقة الطّرف الآخر أو يعرفه بحكم العمل أو العلاقة.

– الاهتمام بضمان سلامة محيط النقطة الميتة، بحيث تكون آمنةً بعيدةً عن أعين العدو وعملائه.

كلما كانت النقطة آمنةً ومموَّهةً وصعبة الانكشاف ويمكن لها أن تحمي ما بداخلها من رسائل أو مواد لمدةٍ زمنيّةٍ أطول، فإنها تكون مثاليّةً وناجحة.

أخيراً، يمكنني أن أقول: إن أسلوب (النّقاط الميتة)، إذا أضفْناه إلى الأسلوبَينِ السّابقَين؛ (التّشفير) و(الحِبر السرِّي)، فإننا نصل إلى قدْرٍ مضاعفٍ من الأمن والمحافظة على المعلومة بعيدةً عن آذان وأعين العدو.

ولتحقيقِ استخدامٍ أسلم للنّقاط الميتة، ننصح بالرّجوع إلى دراساتِنا (أمن المطارَد)، ففيه تفصيلٌ شافٍ إن شاء الله.

* * *

سابعاً: الإيـمـان

الإيمان، من الأسلحة الاستراتيجيّة التي لا يمكن للمقاتل الثّائر أن يتخلّى عنها، ونقصد بالإيمان؛ القناعة الرّاسخة واليقين المطلق بصدقيّة وعدالة القضيّة، وما يترتّب على ذلك من بذلٍ وتضحيةٍ وعطاء، وما ينتج عن ذلك من اندفاعٍ واستعدادٍ وجُهوزيّةٍ دائمة.

وسواء كانت خلفيّة الثّائر إسلاميّةً أو يساريّةً أو قوميّةً أو غير ذلك، فإنّ الإيمانَ بفكرته يولد القوةَ والتميز، إلّا أنّ الفِكرَ المرتبطَ بالله عزَّ وجلَّ يمتاز عن أيِّ فِكر، والدّافعيّة الّتي يولدها تفوق أيَّ دافعيّة، والنِّتاج الّذي يُثمره يختلف عن أيِّ نِتاج.

وهنا سنُبحر قليلاً مع المنحة الإلهيّة التي يَهبُها الله لعباده المخلصين إنْ دخلوا ميادين الجهاد والتّضحية في سبيل ربِّهم ونصرةً لدينهم وقضيّتهم، **إنها منحةُ إلغاءِ المنطقِ الرِّياضيِّ والحساباتِ المادّيةِ في المواجهةِ بين أهل الإسلام وعدوِّهم.**

ففي اللحظة التي يضع فيها المسلم قدمَه في أرض المعركة مستعيناً بالله عزَّ وجلّ، فإن جميع الحسابات المادّية تُلغى، وتصبح القوةُ لا تعني الكثرة، والغلبة ليست بالضرورة لمن يملك العُدّة والعَتاد، وفي التاريخ شواهد وأدلّة... فلا يوجد منطقٌ عسكريٌّ أو رياضيٌّ يقبل تفسيرَ انتصار المسلمين الأوائل في حروبهم المتواصلة، على الرغم من ضَعفِهم العسكريّ الدّائم، وتفوّق عدوِّهم الهائل عدداً وعدّة.

نماذج خالدة:

لم يتخلَّ المسلمون يوماً عن بذل الجهد والأخذ بالأسباب المادّية، ثم التوكّل على الله بفهمه الحقيقي: إِيمانٌ وإِعداد. وفي جميع المواجهات والمعارك التي توفّـرَ فيها هذان العنصران، كان النّصر حليفَ الإسلامِ وأهله، دون النّظر إلى ما يملكون من العَتاد والتّعداد.

ففي معركة اليرموك، كان عدد جند الروم ٢٤٠ ألف جندي مدجَّجينَ بأحدثِ سلاحٍ في ذاك العصر، قائدهم إمبراطور الرُّوم (هرقل)، وعدد جند الإسلام ٤٠ ألفٍ مجاهد، قائدهم سيف الله (خالد بن الوليد) رَضِيَ الله عنه، حتى قال أحدُ المسلمين: «ما أكثرَ الرُّوم وأقلَّ المسلمين!»، فأجابه (خالدُ بنُ الوليد) رَضِيَ الله عنه إجابةَ المؤمنِ بالله، الواثقِ بنصره، العارف بالمعنى الحقيقي للقوة، فقال: «بل ما أقلَّ الرُّوم وأكثر المسلمين! إنما تَكثُرُ الجنودُ بالنّصر، وتَقِلُّ بالخذلان، لا بعَددِ الرّجال»، ودارت معركةٌ طاحنةٌ انتهت إلى هزيمةٍ منكرةٍ لجيش الكثرة، فقُتِلَ منهم أكثر من ١٢٠ ألف جندي، بينما قُتلَ من المسلمين بِضعةُ آلاف[١].

وفي معركة (أليس)، دارت حربٌ طاحنةٌ بين جيش الفُرْس وحلفائهم من نصارى العرب، فكان قوامهم أكثر من ١٥٠ ألف مقاتل، وبين جيش المسلمين وقوامه ثمانية عشر ألف مجاهد، وكان مقاتلو الفُرْس شديدي البأس، حتى قال (خالد) فيهم: «ما لقيتُ قوماً كقومٍ لقيتُهم من أهل الفُرْس، وما لقيتُ من أهلِ فارس قوماً كأهل (أليس)». لكنّ المعركةَ انكشفت عن هزيمةٍ نكراءَ لأعداء الله، حتى قُتل منهم فيها سبعون ألف كافر[٢].

---

١ ابن الأثير والطّبري.
٢ (فرسان النّهار من الصّحابة الأخيار)، د.سيّد حسين العفاني.

وفي معركة اليمامة من حروب الرِّدّة، تقابلَ (مُسيْلمة الكذّاب) ومعه أربعون ألف مقاتل، وخالد رَضِيَ اللهُ عنه بجيش فيه ثلاثة عشر ألف مؤمن، وانكشفت المعركة عن أربعة عشر ألف قتيلٍ مُرتَدّ، وألف ومائتي شهيدٍ مؤمن.

وهكذا توالت المواجهات والمعارك، وكان النّصر حليفَ المسلمين مادام الإيمان سائراً في رَكبهم، وفي اللحظة التي ضَعُفَ فيها إيمانُهم، وعاد اتّكالهم على قوّتهم، عاقبَهم الله فوكَلهم إلى معيار العدّة والعدد، ففي حُنَين، رأى المسلمون أنّ جيشَهم يملك من العدد ما يكفي لهزيمة أيِّ عدو، واغترّوا بقوّتهم، فابتلاهم الله بالهزيمة أوّلَ الأمر، حتى ثَبتَ رسولُ الله ﷺ في موقعه، فعاد المسلمون حوله وتحوّلَ سَيرُ المعركة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥].

نعم! لقد تكفّلَ الله بأمر الكثرة، بشرط تحلِّيْنا بالإيمان والصبر، ومنطق الرِّياضيّات والحسابات الرّبّانية وضّحه لنا ربُّ العزّة في كتابه العزيز فقال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦].

ولقد فهم المسلمون ذلك جليّاً، فجعلوا من الإيمان عدّةً دائمةً لمسيرتِهم، ولقد طلب (أبو بكر) رَضِيَ اللهُ عنه من قائد جيوشه (خالد بن الوليد) أن يتوجّه بجيشه بعد الانتهاء من قتال المرتدّين إلى العراق، واشترط عليه ألّا يأخذ معه أيَّ أحدٍ من المرتدّين الّذين تابوا، أو ممّن ساعدهم وناصرهم، على الرّغم من حاجة المسلمين في ذلك الوقت لكلِّ جندي، لأنه أدركَ أنّ نقاءَ

الجيش وسلامةَ صفّه وامتيازه بصدق الإيمان؛ خيرٌ لهم من كثرة العدد المليء بالشّوائب.

وهكذا فهم (صلاح الدِّين الأيّوبي) رَضِيَ الله عنه سببَ النّصر، فكان يقوم بجولةٍ ليليّةٍ في معسكره يتفقّد جندَه، فإذا مرَّ بخيمةٍ فيها جندٌ يقومون الليل ويتلون القرآن ويلهجون بالدعاء، سَعِدَ بهم وقال: «من هنا يأتي النّصر!»، وإذا رأى خيمةً فيها جُندٌ نيام، تألّـمَ لحالهم وقال: «من هنا تأتي الهزيمة!». وقبل أن تندلعَ معركة حِطّين بساعات، قام ليلَه ومرّغَ وجهَه بالتّراب داعياً ربَّه باكياً يقول: «اللهمّ انقطعت أسبابي الأرضيّة من نُصرةِ دينك، ولم يبقَ إلا الإِخلادُ إليك، والاعتصام بحَبلك».

فالعبرة إذن ليست بالكثرة ولا بالعدّة، بل بالإيمان الصادق، يقول ﷺ: «يُوشك الأُمم أنْ تداعى عليكم كما تداعى الأكَلةُ إلى قَصْعتِها». فقال قائل: ومِن قلّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنّكم غُثاء كغُثاءِ السَّيل، ولَينزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهن»، فقال قائل: وما الوهن يا رسولَ الله؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموت»[1].

ففي الوقت الذي بدأ فيه الوهن يملأ قلوب المسلمين، بدأت الهزائمُ تتوالى وتصبح من نصيبهم، وبدؤوا يفقدون الدّعمَ الربّانيَّ الّذي يجسر هوّةَ الحسابات المادّية، يقول الأستاذ الرّاشد: «وكما تبدأ تَراجعاتُ كلِّ حضارةٍ بالنَّخرِ لتُخليَ مكانَها إلى حضارةٍ منافسة، فإنّ الفتَنَ هي المقدّمةُ الّتي تجعلُ كلَّ دعوةٍ تُغزى في عُقرِ دارِها، فيَكلُ اللهُ الدّعاةَ إلى أنفسِهم، فيعود منطق الرّياضيات انتهاءً؛ ليس ثمّةَ عَونٌ ربّانيٌّ ينصر القليلَ على الكثير، بل الواحد لا يساوي إلّا الواحد،

---

١ رواه أحمد وأبو داوود، (صحيح الجامع الصغير).

وتضبط الصّراعَ الإحصاءاتُ ومعادلاتُ الحساب؛ ليس ثمّةَ جُهد تضاعفه البرَكة، ولا خطوة يُطوى لها الزّمن»[١].

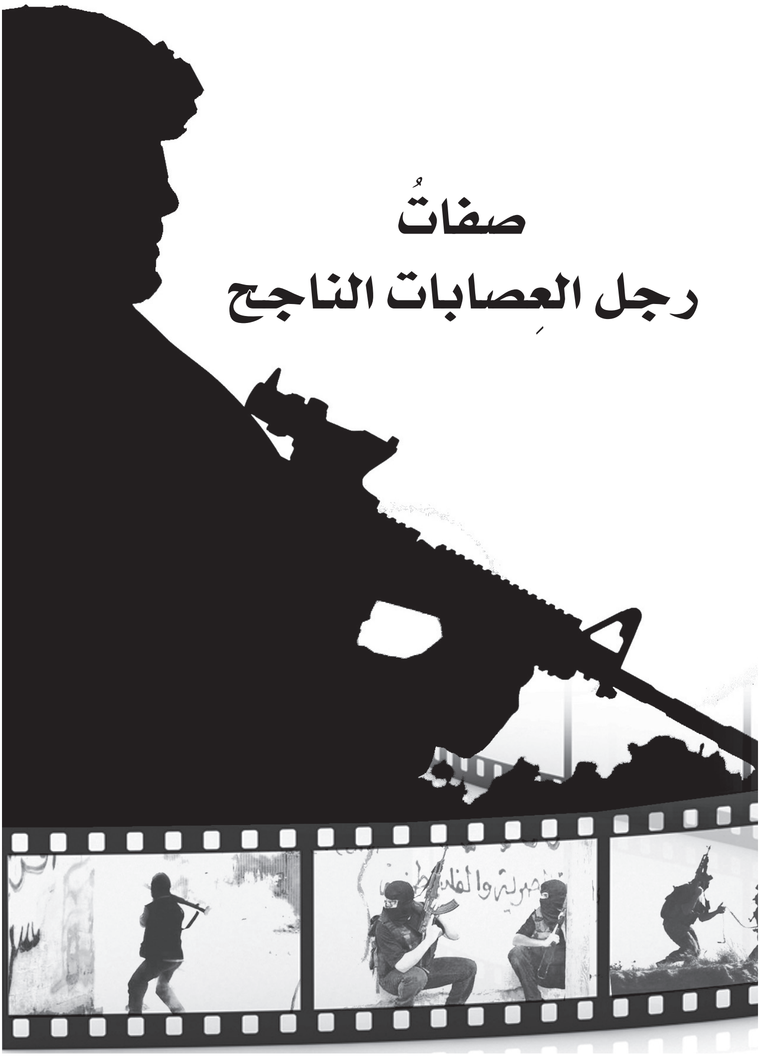
بهذه المعادلة يمكننا أن نفهمَ وندركَ كيف جرت معارك الإسلام، وما أثمرت عنه من انتصارات، كما يقول الأستاذ (ناجي صبحة): «هذا المنطق نعلم أنه ركنٌ هامٌّ من أركان التّفسير الإسلاميِّ كما ذكرَه القرآنُ الكريم»[٢].

إذاً؛ عندما أسقطَ المسلمون في جهادهم المكاسبَ المادّية، وقدّموا أرواحَهم رخيصةً في سبيل ربِّهم، وضحّوا بأموالهم وممتلكاتهم دون أن ينتظروا المقابل، أسقطَ الله الحسابات المادّية من أرض المعركة، فذلّـلَ لهم الصُّعوبات، وأزالَ من أمامهم العقَبات، فكان النّصرُ حليفَهم، على الرغم من قلّةِ عددهم وضعفِ إمكاناتهم.

* * *

١ (صناعة الحياة)، أ.محمد أحمد الرّاشد.
٢ (صفحات من التّاريخ الإسلامي)، أ.ناجي صبحة.

صفاتُ
رجل العِصابات الناجح



صفات رجل العصابات الناجح

يُعَدُّ العملُ الجهاديُّ والثّوريُّ من الأعمال الشاقّةِ على النّفس، المرهقةِ للجسد، الخَطِرَة على كل صعيد، ولذا قال عنه ربُّ العزّة في كتابه الكريم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وهذه الخطورة والمشقّة تستدعي نفساً مضحِّيةً، وقلباً حديديّاً، وإنساناً يحمل من الصّفات ما يجعله مؤهَّلاً للقيام بهذا العمل، قادراً على النجاح وإنجاز مهامِّه دون كَللٍ أو تقاعسٍ أو خَور.

وفي هذا الباب، نستعرض بعضاً من تلك الصفات التي يحتاجها المجاهد نفسُه:

– **مؤمن بربِّه، مخلص في عمله**، يحمل بين جوانحه إيماناً عميقاً، وروحانية مُرهَفة، والتزاماً بشرع الله، وبعداً عن المعاصي. لأنه إنِ التزمَ كان بعيداً عن السلبيّة في الممارسات، متجنِّباً للتباهي والتفاخر الذي يصيب الثّائر في مقتل، متفانياً في إنجاز عمله، باذلاً الجهد في إتقانه.

– **مؤمن بعدالة قضيّته**، وضرورة الدِّفاع عن أرضه وعِرضه ومسلوباته، يبذل كلَّيّته في سبيل ربِّه ودفاعاً عن قضيّته، فيعطي وقتَه لها. وهذا الإيمان يجعل المجاهدَ يقاوم بغير حساب، ويضحِّي دون انتظارٍ للنتائج والأرباح، يعطي دون

طلب، ولا يبالي بفداحة الثَّمن الذي يدفعه جرّاء عمله هذا[١]، كما أنّ هذا اليقينَ يوفّر له القناعةَ المطلقة بصدقيّة وأخلاقيّة هدفه، وسموّ وكرامة مهمّته؛ فلا يقبل التّشكيك، ولا يتأثّر بمحاولات التّأثير المضادّ، أو الإسقاط في شرك الخيانة.

- **يتحلّى بالأخلاق الكريمة الفاضلة**، ويعامل الناس باحترام، ويترك في نفوسهم أثَراً طيّباً يدفعهم إلى التمسّك بفكرته، والدفاع عنه، والوقوف معه، والتسابق لخدمته دون التذمّر من تبعات ذلك. فالأخلاق الفاضلة هي مفتاح النجاح مع الناس، و(الجاريلا) كما أسلفْنا تعتمد على الشعب في وجودها، وعليها أن تكسبَه لصفِّها ليكونَ نصيرَها والحامي لها.

- **السرِّية والكِتمان، فذلك ما يحفظ الحركةَ من الانهيار**، والثورةَ من الانكسار، والمعلومةَ من الانتشار والوقوع بيد العدو. وقد رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «استعينوا على قضاء حوائجِكم بالكِتمان»[٢]. فإن من أساسيّات العمل الأمنيّ والعسكري عموماً؛ ضمان أعلى قدر من السرِّية، ولا نعتقد أنّ سِمةً يحتاجها المجاهد بعد تقوى الله والتوكّل عليه أكثر من هذه، ولا ننسى أن التّفريطَ بالمعلومة وإفشاءَ المخفيِّ منها، يكلِّف العاملِينَ ثمناً باهظاً قد يكون أرواحَهم، أو على الأقل سنوات طويلة من الأَسْر، فما من عمليّةِ اغتيالٍ أو اعتقالٍ أو فشلِ مهمّةٍ جهاديّةٍ إلا وسبقَتها معلومةٌ فرّطت المقاومةُ بها.

- **متابعة ما يستجدّ على الصّعيد الأمني**، والتعرّف على أساليب العدو في المتابعة والاعتقال والاغتيال والإسقاط والتّحقيق، والاطّلاع على دراسات

---

١ يقول الإمام البنّا في مجموعة رسائله: «إنما تنجحُ الفكرةُ إذا قَويَ الإيمانُ بها، وتوفّر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووُجد الاستعداد الّذي يحمل على التضحَية والعملِ لِتحقيقها».

٢ رُوي من عدة طرق أكثرها ضعيف، غيرَ أنه صحيح من حيث التجربة. ويُنظر في تخريجه: (المقاصد الحسنة للسخاوي.

متخصِّصة في كلِّ عنوان. فالاطّلاعُ على أساليب العدو في الاغتيال والاعتقال؛ يقي المطارد من السّقوط فيها، والمعرفةُ بأساليب التّحقيق وكيفيّة انتزاع المعلومات من صدور الرجال؛ يساعد الأسير على الاحتفاظ بمعلومته التي تضرّه وتضرُّ حركتَه وإخوانَه. ونقول: إنه لا يكفي مجرّد الاطّلاع على مثل هذه الدراسات، بل الاستفاضة في دراستها والبحث فيها والاطّلاع على ما يستجدّ حولها باستمرار.

– **الإعداد البَـدَنيّ**، فرجَلُ العصابات مهتمٌّ بإعداد جسمه، وبنائه البناء السليم، فيتجنّب ما يؤذيه أو يجعله ضعيفاً خاملاً، كالتدخين مثلاً، ويعمل بتواصلٍ على تقوية جسمه وتمرينه ليكون مَرِنَ الحركة، قادراً على تحمّل الأعباء والمشاقّ، وفي ذلك يقول ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضّعيف، وفي كلٍّ خير»[١]. فكلّما كان الجسدُ قويّاً، كان قادراً على إنجاز مهامّه وتحمّل أعباء المقاومة، وكلما كانت بُنيته خاليةً من الإعاقات والأمراض، فإنه يكون قادراً على تحمّل ألم التحقيق الذي قد يتعرّض له أثناء أسره، وبالتالي يحفظ سرَّه وسرَّ حركته.

وكذلك فإنه كلّما تملّكَ المجاهدُ بُنيةً قويّةً وهمّـةً عَليّـة، فإنه يكون قادراً على الخروج من مآزق يقع فيها، ومخاطر يتعرّض لها، فكم من حدَثٍ كان المجاهد فيه على شفا الشّهادة أو الاعتقال، أخرجتْه منه خشونتُه وهمّته وقوّة بُنيتِه بعد لُطف الله، فكم مرةً كان الجنود على بُعد أمتار من القائد (نصر الدين عصيدة) يحاصرونه، لكن طولَ نفَسِه وقوّةَ تحمّله مكّنتْه من الخروج سالماً[٢]، وتكرّر

١ رواه مسلم.
٢ تمكنَ المجاهد (نصر الدين) من الإفلاتِ من بينِ يدي جيش الاحتلال بعد أن طوَّقته قوّاتٌ كبيرة، فاختبأ أسفل حزمة حَطب، واستمرّ على وضعيّته يوماً كاملاً حتى ابتعد الجيش عن المنطقة، فاستطاع الانسحاب بفضل الله. ونجا ثانيةً باختفائه داخل برميل صغير، وثالثةً باختبائه في حاووز ماء.

ذلك مع المجاهد الشهيد (إبراهيم سلامة) و(علي عاصي)، إضافةً إلى عشرات القصص مع مجاهدين آخرين.

ويلاحظ أنّ قوّةَ الجسم وسلامةَ البُنية تكون أكمل باختيار الأخ السويِّ أولاً، ثم العمل على إعداد هذا الجسم وتدريبه بما يلزم من دورات وألعاب قوى، ثم إخضاعه إلى امتحانات وتجارب عمليّة تضعه على المحكّ الحقيقي، وتسبر غَوره وقدراته وجاهزيّته لما تدرَّبَ عليه.

– **يتقن استخدام أنواع عديدة من السلاح،** بإتقان الرّمي بها وتفكيكها وتنظيفها، والطريقة الأمثل في استخدامها وتخزينها، ومع معرفته العامّة، لا بدَّ له من تخصُّصٍ بنوعٍ من السلاح، يواظب التدرّبَ عليه حتى يبلغَ مرحلةَ الخِبرة التي لا يكاد يخالطها خطأ.

إنّ إتقان التعامل مع السلاح؛ يجعل المقاوم يشعر بدرجةٍ أعلى من الاطمئنان، ويجعله مهيَّئاً لسرعة الاستجابة لأيِّ طارئٍ جديد، والخروج من أيِّ مأزق قد يقع فيه[١].

– **يتقن العديد من المهارات، وهو أمرٌ ذو أهمّيةٍ خاصّة،** فكلّما أتقنَ المقاتلُ مهاراتٍ إضافيةً؛ كان أقربَ إلى تحقيق درجة المقاتل المثاليّ، وبالإضافة إلى مهارة إتقان التعامل مع السلاح، هناك مهارات أخرى يحتاجها المجاهد، منها:

- السِّياقة بمهارةٍ وسُرعة، وعلى عدّة أنواع من المركبات.
- الإسعاف الأوليّ، ومعالجة الجرحى، وكيفيّة إخلائهم من أرض المعركة،

١ وقعَ المجاهد (سلطان العجلوني) في الأسْرِ لعدمِ معرفته كيفيّة استخدام السّلاح الرشّاش، فبعد أن أطلق النّارَ من مسدّسه نحو الجندي الصّهيوني وأرداه قتيلاً، أخذَ بندقيّة (M١٦) وحاول استخدامها، لكنه لم يتمكن من ذلك، فهجمَ عليه الجنود واعتقلوه دون أن يتمكنَ من إحداث ردّة فعل.

واستخدام الحُقَن والتنفّس الاصطناعيّ، ومعالجة الذّات إنْ لَزِمَ الأمر، فقد استطاع المجاهدون مِراراً النّجاةَ والانسحابَ من أرضِ المعركةِ لمعرفتِهم بهذا العلم، ومن ذلك ما كان في عملية اختطاف الجندي (يورن)[١].

– **بعض المهارات البَدَنيّة؛ مثل اقتحام المواقع**، واختراق الحدود، وتسلّق الجدران، وقصّ الأسلاك الشّائكة، وتجاوز حقول الألغام، والسّهَر المتواصل، والدقّة في المراقبة النهاريّة والليليّة، والقدرة على الرّصد والتّركيز لمدّة طويلة.

– **القدرة على استخدام بعض المساعدات؛** كالبوصلة، ومهارات استخدام (الحبل)، والمناظير الّليليّة والنّهاريّة، وأجهزة الاتصال الدّقيقة، والكمبيوتر والإنترنت، وكلّ ما من شأنه مساعدة المقاتل في إنفاذ مهامّه والقيام بواجباته.

– **المعرفة ببعض المهارات الخاصّة بالعمل السرِّي وحرب العصابات،** مثل وسائل الاتصالات (التّشفير والحِبر السرِّي، والمراسلات الخفيّة). ويلاحظ أن هذه المهارات وغيرها تحتاج بالإضافة إلى التدريب النّظَري، تدريباً عمليّاً ميدانيّاً، وإجراء تمرينات شِبه حقيقيّة، تصل بالمجاهد إلى درجةٍ عاليةٍ من الإتقان.

– **لديه من الوعي السّياسيِّ ما يجعله قادراً على اختيار المكان والزمان والآليّة المناسبة عند إنفاذ أيِّ مهمّةٍ قتاليّة،** فمن غير الّلائق أن يعملَ الثّائرُ بغير حساب، فيتعارض عمله مع المصلحة العامة، أو يتناقض مع ما تطرحه حركته، وخصوصاً أن التواصل بين أطراف العمل الثوري يكون صعباً في خضمِّ العمل العسكري، وخطوط الارتباط بالقيادة قد تكون متقطّعة، فالعاملون كثيراً ما يكونون مطاردين، وبالتالي فالمجموعات قد تُعزل عن قيادتها السياسيّة، فلا تجد ضابطَ

---

١ أُصيب المجاهد (تيسير سليمان) أثناء عملية خطف الجندي (يرون) برصاصةٍ في فَخذه، فاستخدم ما تعلّمه من إسعافٍ أولي في علاج نفسِه، ثم تابع مع إخوانه عمليّة الخطف بنجاح.

اتّصال، عندئذٍ نحتاج إلى الاجتهاد، ومن يملك وعياً سياسياً يستطيع تقدير صوابيّة العمل أو خطئه.

– **الحالة النفسيّة العالية، والتي يجب على المقاتل أن يتحلّى بها كلَّ حين**، فالعامل النّفسيُّ هو أحد أهمّ وسائل الحسم في (الجاريلا)، وكلما ارتفعت معنويات المقاتل؛ ازدادَ اندفاعاً وعطاءً وإصراراً على مواصلة الطريق مهما ارتفع الثمن.

نعم! إنّ على المقاتل أن يتحلّى بنفسيّةٍ قويّةٍ لا تهتزّ بالصّدمات، ولا تجبن مع المخاطر، ولا يصيبها الخَور مع الصّعوبات، فهي نفسٌ مليئةٌ بالإيمان واليقين الذي يحميها من كلِّ ذلك، وهي نفسيّةٌ ثائرةٌ مقاتلةٌ شَرِسَةٌ على عدوِّها، جريئةٌ في جهادِها، مستعدّةٌ للصمود حتى القطرة الأخيرة من دَمِها، وهي تملك من الرّحمة تجاه أبناء شعبها ما يجعلها تحنو عليهم، وتمتنع عن إيذائهم، تتمتّع برباطة الجأش التي تمكّنها من التصرّف بحكمةٍ في أحلك الظروف، فلا تضطرب أو تهلع، تحبُّ المغامرةَ دون تهوّر، فتتقدّم إلى حيث يوجد هدفها الذي يمكن ضربه، وتُحجم حين ترى أن التقدّمَ ضربٌ من الانتحار.

وهي نفسٌ لا تتأثّر بالحرب النفسية التي يشنّها العدوُّ ضدَّها، ولا تبالي بما يبثّه إِعلامه المسموم وألسنته الكاذبة، فهي دائمةُ الثِّقةِ بربِّها، والاطمئنانِ لقادتها التي تسيِّر أمورَها، فتلتزم الطاعةَ الـمُبصِرة، وهل من جنديٍّ بغير طاعة؟!

– **يمتلك عقليّةً خلّاقةً مُبتكرة، وذهنيّةً متيقّظةً متّقدة**، فيضع الحلول للمعضلات، ويبتعد عن التبعيّة والتّقليد، يحسب خطواته جيداً، ويدرس ويقيِّم ما سبق من أحداث ليوظِّفَ نتائجَها فيما هو آت.

لديه قدرة على استيعاب الجديد، وتطوير ما يملك من أساليب، فيفكّر بعقليّة

الخصم، ويضع نفسه مكان عدوِّه، ويحسب ما يمكن أن يفعلَه، وهذا يحتاج إلى سِعَةِ أُفق وإبحار في الخيال، إضافةً إلى اطّلاعٍ على ثقافة الخصم. هذا الأسلوب هو الذي يجعل رجل العصابات قادراً على التنبُّؤِ بما سيُقدِم عليه عدوُّه، وما هي الثّغرات التي يحاول النَّفاذَ عبرها؟ وبالتالي يَسُدّ هذه الثغرات، ويغلق أبواب الخطأ المحتمل الذي تُبنى عليه أسوأ الاحتمالات[1].

– **المعرفة الكاملة بتضاريس المنطقة التي تشمل حدودَ عمله**، وأماكنَ اختفائه وكرِّه وفرِّه، ومعرفة طبيعة أرض المعركة التي يخوضها، وكلّما كانت معرفته أكمل، كانت نتيجتها أفضل، وإن هذه المعرفة تحميه من الوقوع بيد عدوِّه، وتُعينه في إنفاذ عمليّاته ومهامّه بنجاح، وتتيح له التصرّف بشكل سليم حال حدوث أيِّ طارئ.

إضافةً إلى ذلك، فهو مطالَبٌ بمعرفةٍ نسبيةٍ بعموم بلاده ومناطقها، وما تحويه من سهولٍ وجبالٍ ووديانٍ ومدنٍ وقُرى، ومعسكراتِ العدوِّ ومستوطناتِه، ومناطق الخطَر التي يتواجد فيها، وأماكن وفرة المياه أو انعدامها، وكل ما من شأنه إرشاده إلى اختيار الموقع الأمثل لإقامته، والهدف الأمثل لمهاجمته، والطريق الأمثل لسلوكه، والملجأ الأحصن للالتجاء إليه.

– **إتقان لغة العدو**، حيث رُوِيَ: «مَن تعلَّمَ لغةَ قومٍ أَمِنَ مَكرَهم»(٢)، فمعرفةُ المجاهد للّغةِ العِبرية يخدمه في عدّة مجالات، فهو يفتح عليه باباً واسعاً لفهم طبيعة عدوِّه وعاداته وممارساته، ويكشف له الكثير من تحرّكاتِه والمعلومات

١ يقول المفكِّر (بيتر دركر): «نحن بحاجة إلى مدبِّرينَ ومجازفين؛ فالمدبِّرونَ يتولّون التّحليل المالي وشؤون العاملين التي تحتاجٍ إلى دراسة وتحليل، أما المجازِفينَ فهم أصحاب الخيَال الجامح الّذين لا تقيّدهم الحقائق، وينظرون إلى المستقبل نظرةٍ إبداعيّة».
٢ قولٌ صحيح وإن لم يثبت حديثاً نبوياً.

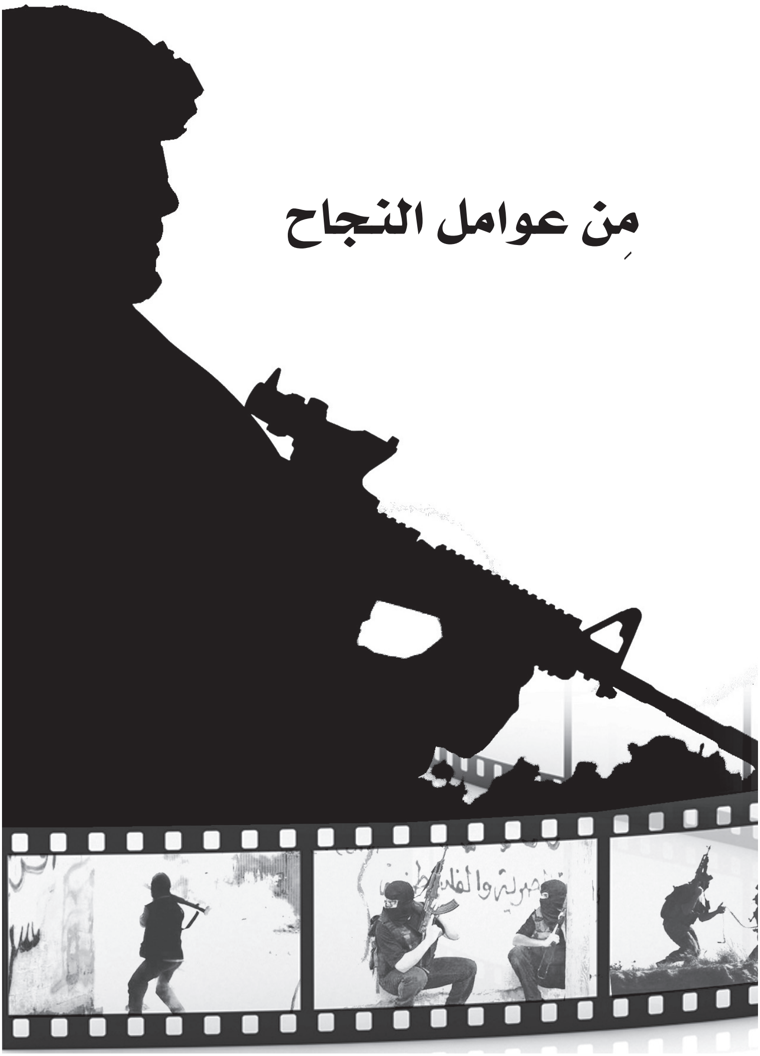
المفيدة عنه عبر إعلامه، ويعينه في التخفّي إن كان مطارداً، والتّمويه على نفسه والخروج من المآزق، ويساعده في تنفيذ بعض أعماله، وعلى رأسها عمليّات الخطف وبعض العمليّات الاستشهاديّة.

فكم من عمليةٍ جهاديةٍ كُتِبَ لها النجاح بفضل هذه السمة، وكم من عمليّةٍ فشلت و لم تحقِّقْ أهدافَها المرسومةَ أو جزءاً منها لعدم توفّرها، فقد كان المجاهد (محمد بشارات) يُعِدُّ نفسَه لعمليّةٍ كبيرة، إلا أنّ عدمَ معرفتِه باللغة العِبرية أوقعَه في مأزقٍ خطير، اضطرّه إلى الكشفِ عن حقيقة نفسه، وقتْلِ الجنديِّ الذي حاول محادثتَه، فلم يحقّقْ كامل هدفه. وكذا الشهيد البطل (فؤاد القواسمة)، كان متوجِّهاً لتفجير نفسه داخل مغتصبة صهيونيّة وهو متنكِّرٌ بزيٍّ متديِّنٍ يهودي، فاضطرَّ لتفجير نفسه على حاجزٍ عسكري، لأنه لم يتمكّن من الإجابة على الجنود الذين تحدّثوا معه بالعِبرية.

أخــيراً، فإنّ رجل العصابات المجاهد جنديٌّ في جيش الإسلام، وكلّما ملكَ صفاتٍ أكمل، كان أقرب إلى النجاح في مهمّته، والتّنكيل بعدوِّه.

وإنّ من الواضح لكلِّ ناظر؛ أن المقاتل الفلسطيني لا يأخذ حظّاً وافراً من الإعداد البدَنيِّ والذِّهنيِّ قبل انخراطه في العمل النِّضالي، الأمر الذي يقلّل من كفاءته، ويحدُّ من نجاحاته، ولهذا الخلل أسبابٌ عديدة، منها ما هو خارجٌ عن إرادة المقاومة، ومنها ما يمكن أن نصنّفه في دائرة القصور، وتجربة قطاع غزة تشير إلى أن المقاومة لو ملكت الفرصة والإمكانات لقدّمت الكثير.

مِن عوامل النجاح



من عوامل النجاح

لكي تحقِّقَ الخليّة المجاهدة والمجموعة المقاومة قدراً أكبر من النجاح، لا بدَّ لها من اتّباع سلسلةِ إجراءاتٍ والأخذِ بجملةِ اعتباراتٍ وملاحظات، تعالج ما سبقَ الحديث عنه من معوِّقات، وتُعين على تجنُّبِ ما ذكرناه من أخطاء وسقطات، وتستثمر ما فات من تجارب وخبرات، فتوظّفها توظيفاً سليماً، وتجني أطيب الثّمار.

وإنّ الأخذ بهذه الملاحظات، إضافةً إلى القواعد العامة لحرب العصابات، هو ما يؤدّي إلى تحقيق قدر أعلى من الإنجاز والنجاح بإذن الله، ومن هذه الملاحظات:

١ـ التوكّل على الله قبل الإعداد وأثناءه وبعده: والتضرّع إليه، والابتهال والالتجاء بالدعاء، وسؤاله التوفيق والسَّداد والنصر، فهو الميسِّر والمسهِّل، وهو المقدِّر للأمور كلِّها، خيرِها وشرِّها، فمن كان مع الله كان الله معه، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

لكن، لا بدَّ من الفصل والتّمييز بين التوكّل على الله، وبين التّواكل المذموم، فالتوكل شعور القلب واطمئنان النفس، واستقرار العقل، يصاحبه أخذٌ بالأسباب وعملٌ بالجوارح وبذلٌ للجهد، واستعدادٌ لكلِّ الاحتمالات، وسعيٌ

دؤوبٌ في سبيل توفير أسباب النجاح وتجنُّبِ عوامل الفشل، وهو عين ما أمرَ به دينُنا الحنيف، وسار عليه رسولنا الكريم ﷺ.

لقد أخذ رسول الله ﷺ بتجميع أسباب النصر، ومارس مبادئ الحرب، واجتهد في الحيطة والحذر والاستعداد، رغم أنه نبيٌّ مُرسلٌ يتنزّل عليه الوحي حفظاً وتوجيهاً وبشارة، وهذا البذل كان سبباً في نصره على أعدائه، ودرساً للعاملين من بعده. هكذا كان حاله ﷺ في هجرته، وهو دأبه في جميع غزواته وحروبه، ووصيّته لقادة جنده ومجاهدي كتائبه وسراياه التي جابت الجزيرة العربية طولاً وعرضاً.

٢- التخطيط المتواصل، والاهتمام بالتّحديد الاستراتيجي والتّكتيكي، وأدوات كلٍّ منها، وعدم ترك العمل يسير بعشوائيّةٍ تقود إلى المجهول.

والتخطيط يشمل المدى القصير؛ برسم الجزئيّات والمهمات الآنيّة، كما يشمل المدى البعيد، وما يجب أن يكون عليه الحال، فهو نظرةٌ إلى المستقبل، واهتمامٌ بلحظةِ مباشرةِ العمل.

إن الاطمئنان إلى دقّة التخطيط مدعاةٌ إلى الاستقرار الذي يبعث على الإبداع، كما أن العمل على بصيرةٍ يزيد من احتماليّة النجاح والاستمرار، فإذا كان التخطيط غير مكتمل؛ فالأَولى تأجيل العمل حتى يكون الموقف كامل الوضوح، والخطط مكتملة الإعداد.

٣- التّقييم الدائم لكلِّ مراحل العمل، الأمر الذي يضمن الاستفادة مما سبق، والوقوف عند مواطن الخلل لتجنّبها، والتعرّف على مكامن القوة للأخذ بها، والوصول إلى نتائج وخلاصات تحمي الخليّة وتحفظها، واكتساب خبرات ومهارات تزيد من نجاحها.

وهذا التقييم يشمل كلَّ عاملٍ في موقعه، فإن كان الأخ مسؤولاً أمام غيره، مكلَّفاً بإدارة خلايا ومجموعات؛ فهو أَوْلى الناس بانتهاج التّقييم والتزامه، لأن تقييمه ذو نتائج وآثار تَفوقُ الفرد العادي. وإن كان الأخ عضو خلية أو مسؤولها، فإنه مكلَّفٌ بدراسة وتقييم حال خليّته، ومحاولة التنبُّؤ بما سيكون عليه الحال، وما يستوجب فعله، وأن يرفع ما يستخلصه من نتائج وقراءة مستقبليّة إلى المستويات العُليا، علّهم يوظّفونها في خدمة المجموع.

لقد برز القصور جليّاً في المقاومة الفلسطينية عموماً بفصائلها وقواها في إجراء تقييمٍ دوريٍّ لواقعها، والقيام بتحليلٍ دائمٍ للمستجدّات والأحداث من حولها، وربطها بالتاريخ، متوازياً مع فهم الحالٌ ومعرفة الطرف الآخر، حتى يكون تحليلاً واقعياً يبعد عن الخيال، وإن هذه الجهود تقتضي إنتاج دراسات وإصدارات تشكّل أساساً لنهوض العمل المقاوم من كبوته، وتقدّمه في عمله، وأداء مهامّه وإنجازها.

٤ـ التواصل الدائم مع المحيط، وهو استكمالٌ للبند السابق، فالابتعاد عن الوسط الذي تحياه المقاومة، واتّخاذ القرارات من بُرجٍ عاجٍ؛ يؤدّي إلى اتّخاذ قراراتٍ ومواقفَ خاطئة، ويُضعف العلاقة بين المقاومة ومحيطها.

لا بدَّ لقيادة العمل المقاوم من أن تكون على تواصلٍ مع كافّة جنودِها، تسمع منهم وتحاورهم، توفِّر احتياجاتهم وتلبّي رغباتهم، وتجيب على تساؤلاتهم، ثم على المقاومة أن تكون على تماسٍّ مع الشارع تجسُّ نبضَه، وتسمع صوتَه، وتدعم صمودَه، وتعيش معه، فيشعر أنه جزءٌ منها وأنها جزءٌ منه، فيحميها وينصرها.

٥ـ استخدام مهارات وعلوم تساهم في نجاح العمل، كالّتي استخدمتْها حروب العصابات السابقة، كعلم التّشفير الذي يضمن تواصلاً آمناً بين أطراف العمل، وفنّ التنكّر والتخفّي الذي يوفّر للمجاهد قدرةً على الاختفاء بعيداً عن أعين العدو لمدة أطول، وفنون الاتصال والمراسلات، واستخدام الحبر السري والنقاط الميتة.

وكلما تمتّع أعضاء الخلية بمهارات إضافية تخدم هدفهم؛ ازدادت كفاءتُهم في أداء مهامّهم، وقدرتُهم على تجاوز العقبات التي تعترضهم، ومعالجة الأزمات التي يقعون فيها.

٦ـ «الرَّصْد نِصف العمل العسكري»: قاعدةٌ عسكريّةٌ شهيرة، وهي أساسٌ في نجاح العمل الجهادي المقاوم، أكّدَ على صحّتها أبطالنا ومجاهدونا بتجاربهم، فكلّما كان الرصد أكثر دقّةً، وتفاصيل الهدف المنْوي ضربه معلومةً؛ زادت احتماليّة النجاح، وقلّت إمكانيّة وقوع المفاجآت. فالمطلوب من المجاهدين تحصيل أكبر كمّ من المعلومات الموثوقة عن الهدف، شكلاً وكيفاً وحركةً وتوقيتاً، وحجم القوة التي يمتلكها، ومواطن الضعف التي تتوافر فيه، ومكامن القوّة لديه، والأسلوب الأمثل للتّعامل معه، والسلاح الأفضل لمواجهته والإجهاز عليه، وعدد المقاومين القادرين على أداء المهمة دون زيادةٍ مُفرطةٍ أو نقصانٍ مخلّ...

كلُّ ذلك يضع العمل في نصابه الصحيح، ويُريح الخليّةَ من خطر الوقوع فيما لا تُحمد عقباه[1]، أو الدخول في مغامرة غير محسوبة الأبعاد والنتائج، ويجعل المهمة أقرب للنجاح وتحصيل النتائج المرجوة.

---

١ في عملية (غاني تال)، كاد المجاهدون أن يقعوا في مقتل؛ بسبب معلومات ناقصة جاء بها الرّاصد، تشير إلى وجود جنديَّينِ في الجيبّ المستهدف، بينما كان يحوي ثلاثة جنود!

٧- **سرِّيّة العمل**: فحرب العصابات تواجه عدوّاً شَرِساً يبذل جهده ويسخّر إمكاناته وخبراته في سبيل ضربها والإجهاز عليها، سعيه الأكبر وهمّه الأول هو جمع المعلومات عن المقاومة وقادتها وجنودها، وقواعد انطلاقها وأماكن تواجدها وتسليحها، ونقاط قوّتها وضعفها، وأسلوب تفكيرها ومخطّطاتها، وكل كبيرة وصغيرة متعلّقة بها.. وكلما استطاع تحصيل كمٍّ أكبرَ من المعلومات؛ كانت قدرته على ضرب المقاومة أعلى، وسهامه نحوها أكثر إيلاماً وإثخاناً.

يقابل ذلك كله، حرص (الجاريلا) على إخفاء معلوماتها، وجعل العدو جاهلاً بحقيقتها وبالمعلومات التي يبحث عنها، فتصبح حربه وضرباته الموجَّهة إلى المقاومة ضرباً من العشوائيّة والتخبّط على غير هدى، فلا تثمر أذىً كبيراً للمقاومين. ومن هنا، دأَبَ الاحتلالُ على تقوية أجهزة استخباراته، وإمدادها بالكادر البشري، والإمكانات المادية، ووسائل التطوّر العلمي والتقني؛ حتى تؤدّي دورها على أكمل وجه.

إن من أولى أولويات العمل المقاوم: الحفاظ على سرِّية المعلومة، ولذا، فإن عملها بمجمله يدور حول الكتمان والأمن والسرِّية، وما التّشفير والحِبر السرِّي والتخفّي والتّموِيه والتنكُّر والنّقاط الميتة والملاجئ إلا أدوات لتحقيق أعلى قدر من السرِّية والأمن.

لقد أنشأت الولايات المتّحدة الأمريكية وكالةَ استخبارات (CIA) في أعقاب الضربة العسكرية المفاجئة التي وجّهتها اليابان للأسطول الأمريكي في الباسفيك، مطلع الأربعينات، فأدّت إلى تدميره بالكامل، فكان قرار إنشاء جهاز يحارب العدو بالمعلومات، ويحفظ دولته وشعبه بحفظ المعلومات[1].

١ أبجديّات التّصوّر الحرَكي للعمل الإسلامي)، أ.فتحي يكَن، نقلاً عن كتاب (الجاسوسيّة الأمريكيّة)، أندروتولي.

٨ـ الاستعداد الدائم، والبقاء على جاهزية، واليقظة لكل جديد، والتعامل معه بما يلزم، يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فالإعداد أصلٌ لا يمكن التنازل عنه بحال.

والاستعداد يعني أن تبقى المقاومة متيقّظةً لكلِّ ما يدور حولها من مؤامرات وهجمات وممارسات تنفّذها قوّات الاحتلال، وتهدف من خلالها إلى ضرب المقاومة، والنَّيل من وجودها.

والاستعداد يعني ألا يترك رجل العصابات سلاحَه، وألا يتخلى عن حرصه ويقظته وحذره، وعدم التصرّف دون أخذ المخاطر التي تحيط به من كل جانب بعين الاعتبار.

والاستعداد يعني استقراء الواقع، وتقدير ما يمكن أن يقوم به العدو، وإعداد الخطة الكفيلة بإفشاله وردّ كيده إلى نحره.

فليست العصابات جيشاً نظامياً يخوض معارك محدودة، محدَّدٌ زمانُها ومكانُها، فيستعدُّ لها في حينه، بل هي جبهةٌ مفتوحةٌ للقتال، وميدانٌ يحتمل العمل في كلِّ حين، يمكن أن تُفرض فيه المعركة والمواجهة على الثّائر دون أن يخطّطَ لها، فماذا ستكون ردّة فعله إن كان مسترخياً؟

٩ـ على قيادة العمل الثّوري أن تركّزَ على الحالة النفسيّة لمقاتليها، وتطمئنَّ دائماً إلى سلامتها وجاهزيتها، وتركّز على بنائها بشكلٍ سليم يوصلها إلى هدفها، وإن عليها أن تغرسَ فيهم جملةَ مفاهيم وأفكار، تزيد من قوة نفسيّتهم واستعدادهم، من ذلك:

– التركيز على قدسيّة الهدف ونقائه ومشروعيّته، وهو تحرير الإنسان والأرض، والذَّود عن الكرامة والعِرض، وصَون الحقوق والممتلكات، والتّأكيد على الأحقّية الدّينيّة والقانونيّة والإنسانيّة والتاريخيّة لهذا العمل، وأننا إنما نثور لتحصيل الحقّ.

– الاستعداد الدائم للتضحية، وهو تحصيلٌ حاصلٌ للبند السابق، ففي الوقت الذي يصل فيه المقاتل إلى القناعة المطلقة بأحقّيته لما يناضل من أجله، وبقدسيّة هدفه، فإنه يندفع بدون تردّد، ويصبح على استعداد لتقديم أغلى ما يملك في سبيل الوصول إلى هدفه. ففي حرب العصابات تشكّلُ التّضحيةُ رأسَ هرمٍ في ثقافة المناضل، فلا غِنى له عنها، ولا انتصار له بدونها[1].

– إيجاد الشعور الدائم بالثقة بالنصر لدى المقاتلين، فشتّانَ بين مقاتلٍ يائسٍ مُحبَط، مقتنعٍ بعدم قدرته على تحصيل هدفه، فهو خائرُ الهمّة، فاقدُ الجاهزيّة، منخفضُ الإمكانيّة، فاشلٌ في أداء مهامّه الجهاديّة، وبين جنديٍّ مطمئنٍّ إلى قُدرته وقدرة ثورته على تحقيق الانتصار والوصول إلى الهدف، واسترجاع الحقوق المسلوبة، فهو متّقدُ الهِمّة، كاملُ الجاهزيّة، مليءٌ بالحيويّة، ناجح في أداء المهام الموكلة إليه.

ومن بداهة القول، أنّ الإيمانَ بالله والتوكّلَ عليه، والثِّقةَ به والالتجاءَ إليه، ودوامَ الصِّلَةِ به، وذِكره والشّعورَ بمعيّته، خيرُ ما يمكن أن يشحذَ الهِمم، ويقوّي النفوس، ويقاوم اليأس والقنوط، ويدفع إلى الانطلاق، وهذا ما يميّز جنود المقاومة الإسلامية في كلِّ مكان.

---

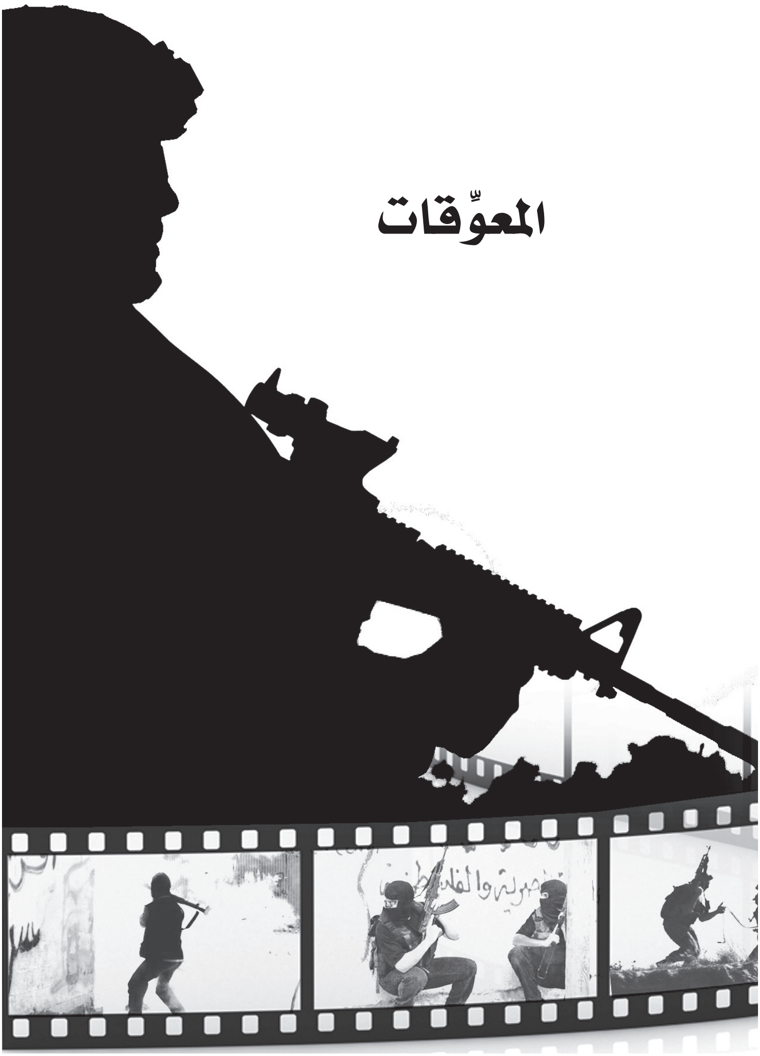
١ يقول الشيخ عز الدين القسّام: «ليس المهمّ أن ننتصر، إنما نريد إحياء الجهاد، وتربية جيل يرى الشّهادة في سبيل الله غايتَه!». من كتاب: (عز الدين القسام)، أ. محمد حسن شراب.

١٠ـ الاحتفاظ بسلاح استراتيجي أو عمليات نوعيّة لاستخدامها وقت الحاجة، بحيث تشكل ردْعاً للعدو من الإقدام على أعمال جنونية وقاسية؛ كالإقدام على ارتكاب المجازر أو اغتيال القيادات السياسيّة أو استخدام أساليب غير إنسانيّة في ضرب المقاومة، عندئذٍ تستخدم المقاومة سلاحَها، وتلقي بعض أوراقها، فتنفّذ العمليّة النوعيّة، أو تستخدم سلاحَها الاستراتيجيَّ في الوقت المناسب، فيكون مبرَّراً أمام العالم، رافعاً لهمّة الشعب، رادعاً للاحتلال من تكرار فعلته، مُظهراً جاهزيّةَ المقاومة واستعدادَها للتفاعل مع كلِّ جديد.

وقد ظهر الخلل جليّاً بعدم وجود هذا السلاح لدى حركة المقاومة الإسلامية حين أقدم الاحتلال على جريمتَي اغتيال الشيخ المؤسِّس (أحمد ياسين)، والدكتور القائد (عبد العزيز الرنتيسي)، بينما لم تستطع الحركة أن تقدّمَ ردّاً مناسباً لحجم الحدث، في حين كان الاحتلال يتوقّع ردّة فعلٍ أكبر من تلك التي قدّمتها الحركة.

* * *

المعوِّقات



المعوِّقات

واجهت المقاومة الفلسطينية سلسلةَ معوِّقاتٍ داخليةً وخارجيةً أعاقت تقدّمها، وقلّلت من نجاحاتها، وأضعفت إنجازاتها، وزادت من خسائرها، وأبطأت أداءها، وقصّرت عُمر خلاياها والعاملين في صفوفها. وهذه المعوقات منها ما يقع ضمن أخطاء داخليّة وعوامل متعلّقة بالمقاومة ذاتها وأدائها وتنظيمها وكفاءة أفرادها، ومنها ما هو خارجي مرتبط بالاحتلال وما يمارسه من حرب وضغوطات موجَّهة إلى الشعب ومقاومته ومقدّراته..

خارجياً:

وذلك ما يتمثّل في حرب الاحتلال على المقاومة، فالعلاقة بين الاحتلال والمقاومة تقوم على التّناقض والرّفض والمواجهة، ولهذه المواجهة أشكالٌ عديدة، فالاحتلال يستخدم كلَّ ما يملك من أساليب قَذِرةٍ ووسائل متنوّعة لإنهاء المقاومة، وإخضاع الشعب لسُلطته، وتدجينه وقمع أيِّ تمرّدٍ أو خروجٍ عن إرادته، وأساليبه في ذلك لا تنتهي، ومنها :

١ـ الضّربات اليومية، من اغتيالات واعتقالات وملاحقات وإبعاد وتشريد، وهي سياسةٌ دائمةٌ اتّبعها الاحتلال مع كلِّ من يقف في وجهه، حتى زاد عدد

شهداء فلسطين عن عشرات الألوف منذ بدء الاحتلال، وبلغ عدد الأسرى منذ عام (١٩٦٧م) ما يقارب (٧٠٠) ألف حالة اعتقال[١]، إضافةً إلى أعدادٍ هائلةٍ من الجرحى والإعاقات والمبعدين والمشرَّدين.

هذه الحملات أفقدت المقاومةَ أبرزَ قادتِها، وألمعَ نجومِها، وأخلصَ أبنائِها بين شهيدٍ وأسيرٍ وجريحٍ وطريد، وبنظرةٍ نُلقيها على فصائل المقاومة وأجنحتها العسكرية، نجد أنهم تعرّضوا بلا استثناء لهذه الأشكال من الضّربات...

فحركة حماس قدّمت الشهداء الشيخ المؤسِّس أحمد ياسين، والدّكتور عبد العزيز الرّنتيسي، وإبراهيم المقادمة، وإسماعيل أبو شنب، وجمال منصور، وجمال سليم، ويوسف السركجي، وصلاح دروزة، وصلاح شحادة، ويحيى عياش، ومحيي الدين الشريف، وعادل عوض الله، و محمود أبو هنود...

وحركة فتح قدّمت الشهداء ياسر عرفات، وخليل الوزير، وصلاح خلف، وسعد صايل، وأبو الهول، وكمال عدوان، وأبو يوسف النجار...

وقدّمت حركة الجهاد الإسلامي المؤسّس فتحي الشقاقي، وهاني عابد...

وقدّمت الجبهتان الشعبية والديمقراطية أبو علي مصطفى، وعمر قاسم، وغسّان كنفاني...

وقدّمَ الشّعبُ الفلسطينيُّ أضعافَ هؤلاء...

هؤلاء وغيرُهم غُـيِّبوا بالقتل، وأضعافُهم غُـيِّبَ بالأَسْر، ناهيك عن حشدٍ عظيمٍ من الجنود والفرسان وأبطال الميدان، الّذين خاضوا المواجهات، وقدّموا أرواحَهم ودماءَهم وأعمارَهم في سبيل ربِّهم ولتحقيق هدفِهم وتحرير أوطانِهم.

---

١ نشرة الحصاد ـ قناة الجزيرة، يوم ٢٥/٦/٢٠٠٧م.

والمتتبّع للحرب الشرسة التي يشنّها جيش الاحتلال؛ يدرك حجم الإمكانات الهائلة التي يرصدها لهذا الهدف، والأساليب القذرة التي يستخدمها لتحقيقه، والوحشيّة والهمجيّة التي ينتهجها إلى درجةٍ يصعب وصفُها عبر سطور.

لقد استخدم الاحتلال القتل بكلِّ صُوَره، فقَتلَ أثناء المواجهات، وقَتلَ في العمليّات العسكريّة، وقتلَ في أقبية التحقيق، وقتلَ اغتيالاً، وقتلَ بدمٍ بارد، وقتلَ المقاتلين، وقتلَ الشيوخ، وقتلَ النِّساء والأطفال، قتلَ بسببٍ وبغير سبب، قتلَ بِيَدِ عملائه، فلم يدع باباً للقتل إلّا طرَقَه، ولا سبيلاً للإجرام إلا سلَكَه..

استخدمَ سياسةَ تكسيرِ العِظام والتّنكيل بالمقاومين، وأجرى حملاتٍ منظَّمةً وأخرى عشوائيّـةً من الاعتقالات، وزجَّ بعشرات الآلاف في السجون، وأبعدَ عن الأرض بغير حساب... ولازالت تجربة إبعاد المجاهدين إلى مرج الزهور ماثلةً في الأذهان.

وهكذا كانت ممارساته بحقِّ الشعب ومقاومته في كلِّ حين، وهو ما شكّلَ العقبة الأولى والمعوِّقَ الأبرز أمام المقاومة، والحائلَ الأساس دون استقرارها والحفاظ على قوّتها وديمومة تقدّمها وتحقيق أهدافها وآمالها.

٢ـ **الاختراق والإسقاط**، ومحاولة تدمير الشعب والمقاومة بالإفساد ونشر الرّذيلة وإشاعة الانحلال، ومن ثمَّ ربط أكبر عدد من أفراد المجتمع بالاحتلال، وجَعلهم خائنِين لدينهم وأمتهم، متعاونِين مع عدوِّهم، متورِّطِين بإراقة دماء شعبهم، كارهِين للمقاومة ومحاربِينَ لرجالها.

وذلك أسلوبٌ مارسه الاستعمار في كلِّ أرضٍ دخلَها، ومع أيِّ مستعمرةٍ أنشأَها، وفي كلِّ حربٍ خاضها منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، وقد نمت

وبرزت هذه الظاهرة في عصرنا الحديث مع اندلاع الحروب العالمية، ثم الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السُّوفيتي.

ولقد شكّلت ظاهرة الخيانة مرضاً أرّقَ الثورات في كلِّ مكان، ومنها الثَّورة الفلسطينيّة، فسعت إلى مواجهتها ومقاومتها وزيادة ممانعة الشعب في وجهها، حاربتْها بالفِكر تارةً، وبالقوّة تارةً أخرى، لكنها بقيت ظاهرةً موجودةً لم تتمكّن تجربةٌ من القضاء عليها، وقد شكلت التّجربة الجزائريّة مثالاً قاسياً على هذه الحرب، حتى تواترت الرِّوايات التي تشير إلى أنّ الثّورة أعدمت أكثر من (٧٠٠) ألف شخص بتهمة العمالة، وهو رقمٌ ليس ببعيدٍ عما قتلَه الجيشُ الفرنسيُّ من الثّوار.

لقد سعى الاحتلال إلى إسقاط الشعب كلِّه بكافة قطاعاته وفئاته لسببَينِ رئيسَين:

الأول؛ هو الاختراق وجمع المعلومات التي تخدمه في حربه للشعب وقواه المقاومة، وضرب أيِّ محاولةٍ للثورةِ عليه أو مواجهته، وتبصّره بواقع المجتمع الفلسطيني، وما يناسبه من أساليب تهدف إلى تركيعه وجعله يتنازل عن حقوقه.

والثاني؛ هو تجنيد أكبر قدر من أبناء الشعب وجعله في صفِّ الاحتلال، حتى إذا ما دخل الشعب في انتفاضة أو شرع في مقاومة، وجد الكثيرون أنفسهم غير معنيِّينَ بهذه المقاومة، وغير مستعدِّينَ للمشاركة فيها، بل وحسَمَ بعضُهم نفسَه في الصفِّ الآخر منحازاً إليه.

واستخدم الاحتلال في سبيل هذين الهدفَينِ ما يملك من وسائل، كالترغيب

والترهيب، والجنس والمال، واستغلال الحاجات، حتى شكّلَ جيشاً من الخونة يخدمونه، ويساهمون مع قوّاته في قمع المقاومة وضرب رجالها.

لقد شكّلَ العملاء أداةً خطيرةً في ضرب المقاومة، والحدِّ من نجاحاتها، وإفشال مخطّطاتها، وقد أبدع العدوُّ في توظيف هذه الثلّة القذرة لتحقيق هذا الغرض.

ومن الأشكال الوظيفيّة التي سخّرَ الاحتلالُ أذنابَه لها؛ ما يسمَّى بالتنظيم الوهمي، فبعد أن قام العملاء بدورِهم في جمع المعلومات عن المجاهدين، ورصد أعمال المقاومة، ومعرفة المسؤولين عنها، وتقديم ذلك كلِّه هديةً لأسيادهم، بدأ الاحتلال يبحث عن أيِّ شخصٍ قد يشكّل مشروعَ مقاومةٍ أو شهادةٍ في المستقبل، وسعى للوصول إلى كلِّ من يملك الجاهزيّةَ والاستعدادَ للانخراط في العمل الجهاديِّ ولو بعد حين، فأدخل أسلوب (التّنظيم الوهمي).

ويقوم هذا التنظيم على بثِّ العملاء هنا وهناك، ويقوم هؤلاء العملاء بعرض العمل العسكريّ على عددٍ من الشباب الذين تشكُّ المخابراتُ الصّهيونيّةُ بأنهم على استعدادٍ للعمل، فإذا وافق الشابّ على العمل ظانّـاً أنّ العميلَ الذي يعرض عليه الاشتراك في المقاومة من المجاهدين؛ بدأ العميلُ باستدراجه وتوريطه، إلى أن يكون قرار المخابرات باغتياله أو اعتقاله وتغييبه في السجون لـمُدَدٍ طويلةٍ تُبعده عن ميدان العمل مخافةَ الانخراط فيه، وهذا ما عبّرَ عنه أحد قادة أجهزة الأمن الصّهيونية حين قال: «إننا نحاول اعتقال (الانتحاري) من سريره قبل أن يفكّرَ في مهمّته، حتى ننجحَ في منعه من الاشتراك في الأعمال الإرهابيّة».

٣ـ الحرب الاقتصادية، والتّضييق على الناس في أرزاقهم، وتجويع الشعب ليشعر بتكلفة المقاومة فيتخلّى عنها، فكان الحصارُ والتّضييقُ ومنعُ العمل وفرضُ

منع التجوّل، وكان التخريب والتدمير والإفساد، وكانت المصادرات للأراضي والممتلكات وسرقة الحقوق ونهب الخيرات، وكانت الضّرائب والغرامات، وبِلُغَةِ الأرقام، فإن خسائرَ الشعب الفلسطيني في انتفاضة الأقصى وحدها فاقت المليارات، منها؛ هَدْمُ (٤٥٠٠) منزل، واقتلاع (مليون ونصف) شجرة مثمرة، ومصادرة (٦٠٠) ألف دونم زراعي[١]، فما بالك بعشرات السنين التي احتُلّت فيها الأرض واغتُصبت الحقوق وسُرقت الممتلكات؟!

لقد شكّلَ الحصارُ الاقتصاديُّ الخانقُ المفروضُ على الشعب الفلسطيني عقب فوزِ حماس في الانتخابات التشريعية عام (٢٠٠٦م) وتسلُّمِها قيادة الحكومة أحدَ صُوَرِ هذه الحرب الّتي مارسَها الاحتلال ومَن وراءَه بحقِّ الشعب ومقاومته، ثم كان الحصار على قطاع غزة دون الضفة عقب أحداث تطهير المقرّات الأمنيّة في (حزيران/٢٠٠٧م)، ثم دَفْعُ رواتبِ الموظّفينَ الحكوميِّينَ من غير المنتسبِينَ أو المؤيِّدِينَ لحركة حماس شكلاً آخرَ للابتزاز والمساومة على الرزق مقابل التخلّي عن المقاومة وأنصارها، وأثناء ذلك كان تدميرُ وحرقُ وتخريبُ المؤسّسات والممتلكات التابعة للحركة وأبنائها كامتدادٍ لذات الحرب.

لقد استخدم الاحتلال الحرب الاقتصادية لحرمان المقاومة من سلاح المال، كما استخدمها لحمل الناس على الانفضاض من حول القوى المقاومة على اختلافها، فعلى سبيل المثال، شكّلَ هَدْمُ المنازل لمن يشارك في أعمال المقاومة ضاغطاً على المقاوِمِ وذويه ومعاقِباً لهم، ورادعاً لغيره أن يفكّرَ بالسير على نهجه، وكان العقابُ الجماعيُّ للأهالي والسكّان عقب كلِّ عمليّةٍ جهاديّةٍ بحظر التجوّل والهجوم على المنازل والممتلكات وتخريبها، في محاولةٍ لكشفِ الغطاءِ

١ () صحيفة القدس، العدد الصادر في ٥/٦/٢٠٠٧م.

عن المقاوِمينَ وتنفيرِ الناسِ من حولهم، ودفعِ المجتمعِ إلى الضَّجَرِ والسّخطِ من أعمال المقاومة، ومن ثم رفضها والوقوف في وجهها.

٤ـ الحرب الإعلامية: فقد أبدى الاحتلال أينما حلَّ اهتماماً خاصاً بالإعلام، وحاول استخدام هذا السلاح ـ الذي يملك منه أضعاف ما تملكه المقاومة ـ بطريقةٍ تخدمُ أهدافَه وتُبيّض صورتَه، وتبرِّرُ أفعالَه الإجراميّة بحقِّ الشعب، وفي ذات الوقت، تشهِّرُ بالمقاومة وتشوِّه صورتَها وتثير حولها الشكوك.

لقد شهدت وسائل الإعلام حرباً شَرِسَةً ومعاركَ ضاريةً بين المقاومة وعدوِّها، حاول كلُّ طرفٍ أن يكسبَ فيها جولاتٍ إعلاميّةً لصالحه، وأن يستقطبَ العالم نحوه، لينحازَ إلى موقفه، ويغلق المنافذَ في وجه خصمه، وشهدت العقودُ السابقةُ تفوّقاً إعلاميّاً لصالح الاحتلال، بسبب سيطرته على وسائل الإعلام الرئيسيّة عالميّاً بشكلٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشر، إلّا أنّ الإعلام شهد نهضةً إعلاميةً وحضوراً محلّياً وإقليمياً ودوليّاً، ساعده في ذلك الثورة الإعلاميّة والمعلوماتيّة والتّكنولوجيّة التي وفّرت منابرَ إعلاميّةً حرّةً حاولت المقاومةُ توظيفَها في خدمة أهدافها، إضافةً إلى امتلاك هذه القوى منابر خاصة بها، تنشر فِكرها، وتحمل رسالتَها إلى الناس، كما فعلت منظمة التحرير بإذاعتها (صوت العاصفة)، والجبهة الشعبيّة ـ القيادة العامة بإذاعتها (إذاعة الشَّعب)، ثم أطلقت حركة حماس (شبكة الأقصى الإعلامية) والتي تمثّلت في إذاعة راديو، ومحطّة محلّية، ومحطّة فضائيّة، وصفحة إنترنت.

وبمقابل ذلك، استخدم الاحتلالُ في حربه الإعلاميّة ضدّ المقاومة وسائل عديدة، فهو يملك وسائلَ الإعلام المعروفة (راديو وتلفزيون وصحف وإنترنت)، ولديه (لوبي) صهيوني في شتّى أصقاع الأرض ذو تأثيرٍ لا يخفى

على أحد، وبيده الكثير من المنابر العالميّة الأبرز. وإضافةً إلى ذلك، استخدم الاحتلال الوسائل التقليديّة المعروفة، فكان يصحب عمليّاتِه وتوغّلاتِه وحروبَه بدعايةٍ إعلاميةٍ عبر مئات ألوف المناشير التي يُمطر بها الناس، يحاول تضليلَهم من خلالها، كما فعل في جنوب لبنان، وفي غزة، و لم يألُ جهداً في توظيف ما يملك من طاقات وإمكانات وعقول في هذا المجال.

داخلياً:

وهو ما يتعلّق بالمقاومة وأدائها، وبعض القصور الذي اعتراها في بعض مراحلها، وهو ما يجب التركيز عليه لتجنّبه ومعالجته، ثم الانطلاق نحو الأمام. ومن هذه العوائق:

١ـ قلة الإمكانات وضعف التّمويل: فكثيراً ما تبدأ الخلايا المجاهدةُ عملَها دون أن تملكَ قطعةَ سلاحٍ واحدة، أو مصدرَ تمويلٍ ثابت يغطّي احتياجاتها، ويتكفّل بتكاليف أنشطتِها، مما يؤخّر عملها، ويدفع بعضَها نحو ممارساتٍ خاطئةٍ تؤدّي إلى نهايتها؛ كأن تبدأ بالبحث عن مصادر سلاح عشوائيّة غير آمنة، أو تستخدم السِّلاح الأبيض في سبيل الحصول على السلاح النّاري، فيؤدّي إلى اعتقال أفراد الخليّة أو استشهادهم، أو يبدؤون عملَهم بإمكانات بسيطة متواضعة، ويبقون على ذلك مدةً طويلةً لا تُعطي النتائج المرجوّة، مع ما يصاحب ذلك من خطرٍ كبير.

وعادةً ما تكون هذه الحالات في مرحلة ما قبل الاتّصال بالتّنظيم، ويكون فيها الاعتماد على الذّات، وقد شَهِدْنا مجموعاتٍ من المجاهِدينَ الأفاضل،

بدأت العمل ببيعِ حليٍّ زوجاتهم، أو عقارات لهم أو لأهلهم، أو اقتراض مبالغ تسدُّ شيئاً من حاجاتهم، وتوفّر لهم ما يبدؤون به جهادهم(١). ومن المعلوم أنّ العملَ العسكريَّ يحتاج إلى الدّعم الماليِّ بشكلٍ كبير، نظراً للتكلفة المرتفعة لمهامّه، والتي لا يقدر عليها الفرد العادي.

٢ـ ضعف الخبرة الأمنيّة: فكما أنّ الكثيرَ من المجموعات بدأت عملها بإمكانات مادّية بسيطة، فإن هناك عدداً أكبر من المجموعات بدأت عملها بخبراتٍ أمنيّة متواضعة، إذ أنّ أفرادَها حديثو عهدٍ بالعمل الجهاديّ، وليست لديهم تَجربةٌ اعتقاليّةٌ أو خبرةٌ بالمطاردة واحتياجاتها، أو لم يطّلعوا على تجارب سابقة ناجحة، و لم يطّلعوا على الدّراسات أو يتلقّوا التّوجيهات التي ترشدهم إلى كيفيّة العمل الأمنيِّ السليم الذي يضمن لهم عملاً جهادياً خالياً من الأخطاء والثّغرات، وقدرةً على التّمويهِ على العدو للاستمرار لمدةٍ أطول.

فالخبرةُ الأمنيّةُ تضمن الاطّلاعَ على وسائل التخفّي والتنكّر والتّمويه والتّضليل، وكلّ ما من شأنه أن يخدمَ في التملّص من حملات الاحتلال وملاحقاته.

والخبرة الأمنيّة تضمن للمجاهد صموداً في أقبية التحقيق إن كان مصيرُه الوقوعَ في أيدي قوات الاحتلال، فعدوّنا لا يترك أسلوباً ـ صَغُرَ أم كَبُرَ ـ إلا استخدمه سعياً لانتزاع الاعترافات من صدور الأحرار، سواء أكان جسديّا أو نفسيّا، ترغيباً أو ترهيباً، مباشراً أو غير مباشر، و لم يقفْ أداءُ عدوِّنا في هذا المجال عند حدود، بل اجتهد دوريّاً في تطويره تبعاً للحاجة. كلُّ ذلك يجعل من الاطلاع على تلك الأساليب ودراستها والوقوف عندها حصانةً تحفظ المجاهد

---

١ هكذا بدأ مجاهدو خليّة صوريف، وأبطال خليّة القدس، وهو ما فعله مجاهدو خليّة سلواد.

وإخوانه، وما يملكون من معلومات، وتمنع مسلسلَ كشفِها الذي يؤدّي إلى ضرب كافّة صفوف العاملين، وكشف أطراف العمل.

٣ـ قلة التّدريب وضعف القدرات: فكيف يتدرّب كفايتَه من لا يملك السلاح؟ وكيف سيتميّز بقدرته على الرّمي والإبداعِ في الأداء من لا يملك المال الذي يشتري به الذّخيرة؟

لقد شَهِدْنا مجموعاتٍ عديدةً كان أوّلُ تدريبٍ لعناصرها في أرض المعركة، حتى أنهم لم يطلقوا قبل ذلك طلقةً واحدة! كما حصل مع المجاهد (محمد دخان)، والمجاهد (أشرف الوادي) في عمليّتهما.

ولا ننسى كذلك ما سبّبه الجهل بكيفيّة استخدام السلاح والاحتفاظ به وتنظيفه من فشلٍ في المهمات، ووقوعٍ في المطبّات، وفقدانٍ للأرواح والرّجال، وضياعٍ للفُرَص، ولك أن تسألَ أيَّ مجموعةٍ عاملةٍ مجاهدة؛ كم مرةً أفشلَ فيها السّلاحُ عمليّتَهم؟ أو أوقعهم في أزماتٍ كادت تودي بهم؟!

هذا في السلاح النّاري، أما بخصوص صناعة المتفجّرات، فالأمر أكثر تعقيداً، فكم من مجاهدٍ فقدَ روحَه أو أطرافَه أو جزءاً من جسده لعدم إحسانِه التّعامل مع هذه المواد، وضعف معرفتِه بأُسُسِ التّصنيع، وصفات المادة التي يستخدمها، والآلية السّليمة للتّعامل معها... والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها حادث استشهاد الأخوين (حاتم القواسمة) و(جهاد دوفش)، اللّذَينِ تفجّر بهما مستودع متفجّرات يحوي موادّ مُعدَّة للتّصنيع، يفوق ثمنُها عشرات آلاف الدّولارات، ناهيك عن نُدرتِها، انفجرت بهما فدمّرت المكان، وارتقيا إلى الله شهداء.

ويدخل في ذات الباب ضعفُ الإمكانات التي توفّـرُ السّلامةَ والأمانَ للمجاهد العامل في تصنيع المواد المتفجّرة، حتى أنّ بعضَهم لا يملك الكمامات التي تقي من الأبخرة السامّة التي تَنتج عن التّفاعلات، وقد حدَّثَنا الشّهيدان (نسيم أبو الرُّوس) و(جاسر سمارو) أنهما كان يعملان في تصنيع مئات الكيلو غرامات دون أن يضَعا على وجوهِهما أيَّ قناع، أو يلبسا أيَّ قُفّاز، وذات يوم ونتيجةً لاستنشاق كمّيةٍ كبيرةٍ من الأبخرة السامّة؛ وقَعا مغشيّاً عليهما في مختبرهما الخالي من فَتْحات التّهوية، وكادا أن يفقدا حياتَيْهما لولا عنايةُ الله، وذلك بأن حضرَ من أنقذَهما.

٤ـ **عدم وجود تخصُّص في العمل**: فالإخوة العاملون في الخلايا مضطرّونَ إلى إنجاز كلِّ جزئيّات العمل من أَلِفها إلى يائها، المباشِرة وغير المباشِرة، الدّاعمة والتّنفيذية... فعليهم اختيار الموقع، ثم رصده، فالإعداد التامّ للمهمّة، ثم تنفيذها، وإيجاد الدّعم والتّمويل وما يلزم للتجهيز...

وفي التنفيذ هم مطالبون بإتقان كلِّ أشكال الهجمات، من إطلاقٍ وتفجيرٍ واختطاف، ومطالبون بإتقان إعداد المتفجّرات، والتّعامل مع شتّى أنواع السلاح...

إن هذا التّشتيتَ في الجهد، وعدم التخصُّص في الأداء؛ يؤثّران سلباً على جَودة وإتقان أداء أفراد الخلية، ويبعثران جهودَهم في التدريب على جميع أنواع السلاح، مما يعني توزيع الجهود دون التّركيز على أيِّ نوع، فيضيع الإبداع. وكلُّنا يعلم أن من أساسيّات العمل الإداريِّ الناجح؛ التخصُّصِيّة، التي تجعل من صاحبها مبدعاً في تخصّصه، متقناً له، محترفاً في أدائه، ملمّـاً في تفصيلاته.

٥ـ عدم وجود تفرُّغ في العمل: يعاني شعبنا الفلسطيني أوضاعاً اقتصاديّةً صعبةً فرضها الاحتلال الإسرائيلي جرّاء المقاومة التي تعصف به، والمجاهدون والمقاومون جزءٌ من هذا الشعب، بل هم قطاع الشباب الذي أُلقِيَ على كاهله إعالةُ أهلِه وذويه، فانخرطَ في ميدان العمل، وامتهنَ حِرَفاً وأشغالاً ملكت جُلَّ وقته واهتمامه وتفكيره، وجعلتْه أسيراً لها كلّياً أو جزئيّاً، فقلّت جاهزيّته واستعداده في أدائه للمهامِّ الجهاديّة والقتاليّة، وجعلته لا يملك من وقته ما يمكّنه من أداء مهامّه وفي وقتها السليم.

فهو ملتزمٌ بمهنته طوال نهاره، مُرهَقٌ في ليله مشغولٌ بأهله، فمتى يكون العمل؟ فإن كانت مهمّته تقتضي التّنفيذَ في النهار، اضطرَّ إلى تعطيل عمله في ذلك اليوم، فيفقد الرزقَ ويُلفِتُ النّظر، وقد وجدنا خلايا عديدة تعطّلت عمليّاتها مراراً، وتأجّلت بشكلٍ متواصل، لعدم قدرتهم على إيجاد الوقت المناسب لعملهم، بل واضطرَّ بعضُهم إلى تعطيل عمله، وقد اختارت خليّة (سلواد) العملَ الجهاديَّ يومَ الجمعة مرّاتٍ عديدة، لأنه اليوم الذي يعطّلون فيه مِهَنَهم.

ولا نعني بكلامنا هذا أن يقعدَ المجاهد عن عمله بشكلٍ دائم، فالعمل إضافةً إلى كونه مصدرَ رزق، فهو يوفّر الغطاءَ الأمنيَّ للمجاهد، لكنّ المطلوب أن لا يكون العمل مُعيقاً للعمل الجهادي، وأن توفِّـرَ الحركةُ للمجاهد المبلغَ الماليَّ البديل في حال اضطرَّ إلى تعطيل عمله. إضافةً إلى ضرورةِ أن يتفرّغَ عددٌ محدَّدٌ من الإخوة للعمل الجهادي، ويكون مصدر رزقهم من خلال الحركة بمعاشٍ شهريٍّ منتظم، هؤلاء مطلوبٌ منهم الإبداعُ والتفرّغُ والمثابرةُ ليكونوا دعامة العمل.

٦ـ أخطـاء: مع كل ما سبق من عوامل أعاقت العمل المقاوم، فإنّ الأخطاء الذاتيّة للمقاوِمين وللحركات الثوريّة المقاوِمة؛ شكّلت عاملاً آخر ساهم في تصدّع الكثير من البُنى والهيئات المقاوِمة، وسبباً في فشل عدد لا يُحصى من المحاولات الجهادية، بل هو السبب الأساس في وقوع الخلايا المجاهدة وعدم نجاحها في تنفيذ ما عُقِدَ العزم على إنجازه من مهامّ، وما العمليّات الناجحة إلّا مزيجٌ من التوفيق الإلهي أولاً وأخيراً، ثم القدرة على تجاوز المعوّقات وعلاجها، وعدم الوقوع في الأخطاء.

ومن الأخطاء التي نريد أن نسلّطَ الضوء عليها:

– **عدم الالتزام بالقواعد الأمنيّة التي تضمن سلامة العاملين**: حيث تتهاون العديد من الخلايا المجاهدة بإجراءاتها الأمنيّة الواجب اتّباعها لتحقيق أعلى قدر من السلامة، وضمان المحافظة على الذّات، وعدم الوقوع في قبضة أجهزة الاحتلال الأمنيّة والعسكريّة. وإنّ الإجراءات الأمنيّة التي تضمن للمجاهد حالةً من السرِّية تطيلُ عُمرَ جهاده متعدِّدة، تبدأ من تشكيل الخلية، ثم في الحصول على أدواتها ومستلزماتها ومصادر تمويلها، فالإعداد للمهمات الجهادية، ثم أثناء التنفيذ والعودة من المهمة.. وإنّ أيَّ خطأ قد يقع فيه المجاهد وجماعته في أيِّ مرحلة من هذه المراحل، سيشكّل ثغرةً يستغلّها الاحتلال للإيقاع بالخلية ورجالها.

– **العمل بردّات الفعل: من السِّمات الأبرز التي لازمت المقاومة الفلسطينية على مدار تاريخها**: الانفعاليّة، والعمل بردّات الفعل غير المحسوبة، والمتولِّدة جرّاءَ حدَث يهزُّ مشاعرَ المجتمع، فتعقبه هبّةٌ أو ثورةٌ شعبيّةٌ ما تلبث أن تفترَ ويخبوَ أُورُاها، كثورة النّبي موسى وثورة البراق قديماً، وثورة أحداث النفق عام

١٩٩٧م، وهو ذاتُه عينُ ما يحصل في العمليّات الجهاديّة التي استمرّت حيناً من الدهر مقتصرةً على محاولة الردِّ على عمليّات الاغتيال، أو الأحداث الكبيرة والمجازر البشعة التي يرتكبها الاحتلال.

وحتى لا يقع القارئ في سوء فهم، فإننا لا نعني أن لا تكون هناك ردّات فعل، ولا نتّهمها بالسلبيّة المطلَقة، بل هي أحياناً من الضّرورات بما تشكّله من رادعٍ للاحتلال، وصاعقٍ يُلهب قلوبَ الشعب فينتفضُ على جلّاده، ومُعبِّرٍ صادقٍ عن عاطفةٍ جيّاشةٍ وانفعالٍ وطنيٍّ وشرعيٍّ مع الأحداث... لكن الـمُشكِل فيه أن يكون العمل المقاوم مقتصراً على ردّات الفعل، فلا يعمد إلى المبادرة، ولا يضبط النفس وقت الحاجة، ولا يحدِّدُ هو الزّمانَ والمكانَ والكيفيّةَ المناسبةَ ليختار فيها ردّه وضربته.

لقد اضطرّت المقاومة إلى الردّ بضرباتٍ جهاديّةٍ لم تكن في تمام الجاهزيّة لها، فجاءت ردّات ضعيفة قاصرة، فاستنزفت طاقتَها بإرادتها، وهي كذلك انحرفت عن أهدافها التي رسمتْها لنفسها، فكثيرٌ من الخلايا التي أُنشِئت بهدف تنفيذ عمليات الخطف مثلاً، فاضطرّت مع رؤيةِ مجزرةٍ إلى تركِ مهمّتِها التي سعت إليها وتدرّبت على أسلوبها، ثم انطلقت لتنفيذ عمليّة إطلاق نار سقطت فيها بشِركٍ أو خطأ كان فيه نهايتُها.

ومن الأمثلة على ذلك خليّة (صوريف)، التي تخصَّصت بلونٍ من العمل، حتى جاءت الأوامر بضرورة الدخول في سلك التّفجير كردّة فعلٍ على ممارسات الاحتلال، فكانت عمليّتُها التّفجيريّةُ الأولى نهايةَ صفحاتِها الطّويلةِ المشرقة.

– **العشوائية، وضعف التخطيط التّكتيكي**: فالقاعدة التي عملت بها المقاومة الفلسطينية عموماً وفي غالب مراحلها، هي (اضرب متى كان ذلك ممكناً)، وفي

كلِّ لحظةٍ تسنح فيها الفرصة، دون النظر إلى الزمان، أو المكان، أو الكيفيّة، أو حتى النتائج المترتّبة على ذلك.

فكلما تمَّ إعداد عبوة؛ يبدأ العمل على زراعتها وتفجيرها، وكلما تجهّزَ استشهادي؛ يُصار إلى إرساله صوب هدفه الأقرب، وكلّما تمَّ رَصدُ هدفٍ صهيوني؛ يُباشَر إلى ضربه بدون حساب.

قد يتناسب ذلك مع مرحلةٍ دون غيرها، لكنه قطعاً لا يتناسب مع جميع المراحل، وإن العديد من الرّسائل القويّة والواضحة والصّريحة يمكن إرسالُها إلى العدو والعالم أجمع عبر اختيار الزمان والمكان وطبيعة الهدف وكيفيّة التنفيذ، وغير ذلك من التّفصيلات.. ويمكن لمثْلِ هذه الضّربات أن تحقّقَ أهدافاً تفوق ما تحقّقه الضربات العشوائية بكثير، فإذا أردْنا توجيهَ رسالةٍ إلى مشروع الاستيطان، فإننا نحتاج إلى توجيه عدد من الضربات إلى قُطعان المستوطنين، وإذا أردْنا ضربَ السِّياحة، فالمنتجعاتُ والسّواحل هي المكان المناسب لتوجيه الضربات، وإذا حرصنا على تثبيت مبدأ (توازن الرُّعب)، فلا بدَّ من الاحتفاظ بعمليّة نوعيّة جاهزة للتنفيذ عقب حادثة اغتيال لأحد القادة، أو إقدام العدو على ارتكاب مجزرة، وإذا أردْنا أن نلفتَ الأنظار صوبَ الأسرى وقضيّتهم، والضّغط على المستوى السياسي والعالمي للإفراج عنهم، فعمليّات الخطف هي الأمثل لتحقيق هذا الهدف، وهكذا...

لقد قدَّرَ الكثيرُ من العارفين؛ أنّ انتفاضةَ الأقصى لو ركّزت في عملها على الاستيطان والمستوطنات، وضَربِ خطوط مواصلاتها وسكّانها وحِراساتها ومركباتِها، لاستطاعت أن تُحدثَ تغييراً جذرياً في وضعها ووجودها، فقد رأينا الكثير من المستوطنات هجرَها أهلُها بمجرّدِ أن تعرّضوا للرّشقِ بالحجارة

لأيام طويلة، فكيف لو تمَّ تسليط الخلايا المسلَّحة عليهم وعلى كلِّ وسيلةِ اتصالٍ بينهم وبين محيطهم؟ وهكذا يمكن رسم أهداف مرحلية آمنة، وتوجيه العملِ لتحقيقها؛ عندها يكون الإنجاز كبيراً حقّاً.

- **الوقوع في ذات الأخطاء التي تكرَّرَ الوقوع بها:** فالناظر إلى المجموعات العسكرية والجهادية العاملة على الساحة، والباحث عن أسباب سقوطها بيد عدوِّها وفشلِها في إنجاز الكثير من أهدافِها، سيجد تجارب عديدة متشابهة متكرِّرة، وأخطاء يتجدّد الوقوع بها تكون سبباً لانتهاء عمر المجموعات، فكم من المجموعات كان سبب سقوطها هو استخدام الهاتف المحمول، وكم من المجاهدين قتلَهم لسانُهم، وكم من المطاردين استشهدوا بسبب عاطفتِهم وعدمِ قدرتِهم على ضبطها...

هذا في ميدان العمل، أما في ميدان الاعتقال، فما الذي يجعل أكثرَ من نصف الأسرى الذين يعترفون، يكون اعترافُهم عند العصافير، على الرغم من أنه أصبح أسلوباً مكشوفاً؟ ألا يوجد من يُحسِنُ دراستَه ويتكفّل بنشر ثقافته؟ ألا يوجد من يتعهّد الناس لفهمه واستيعابه والاطمئنان إلى عدم الوقوع به، أم أن الإشكال لا يتعلّق بالدراسة؟!!

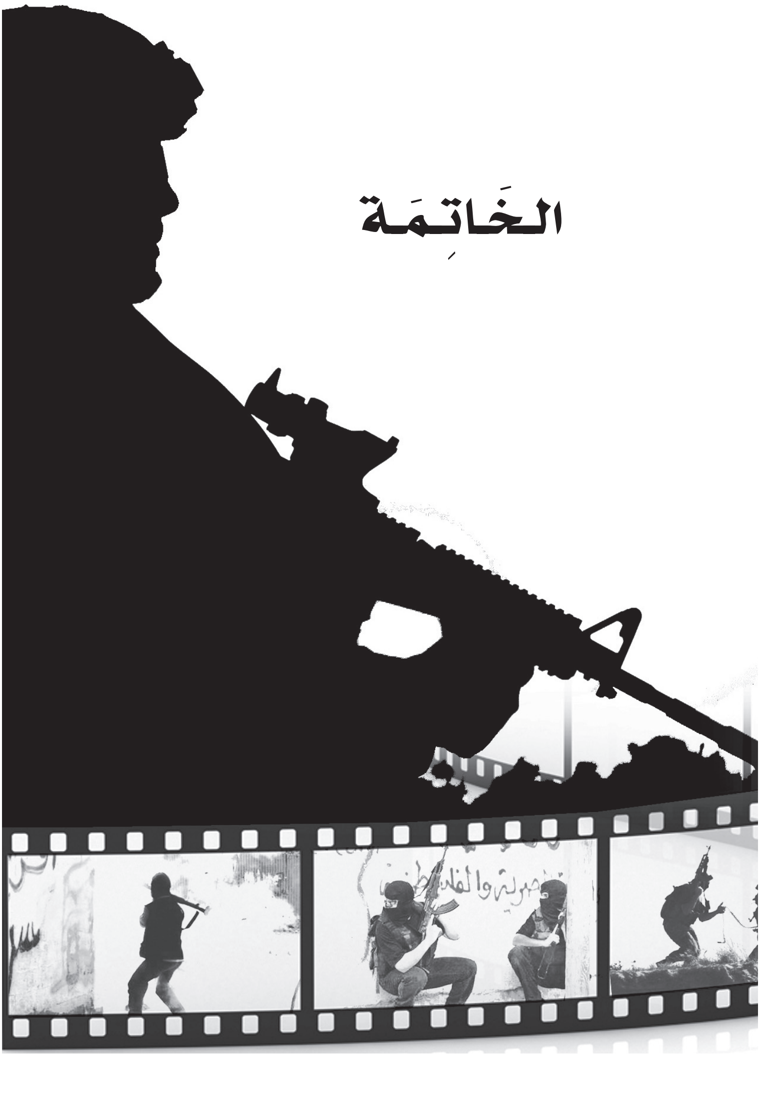
هذه النقطة تقودنا إلى القول بأن السِّمات السلبيّة للثورة الفلسطينية تفتقر إلى المفكِّرينَ المبدعين الّذين خصَّصوا جُهدَهم ووقتَهم لدراسة ظواهر المقاومة، وواكبوا أحداثَها، وصنّفوا مراحلَها، ودرسوا سلبيّاتِها، ووصفوا الحلولَ لها.. بحيث يستفيدون من تجارب أبنائها، ويضعون الأفكار والمبادئ والمناهج التي تناسبها...

هكذا كانت الثورات العالمية؛ هكذا كان (ماوتس تونغ) في الصين، و(كاسترو) و(تشي جيفارا) في كوبا، و(هوشي من) في فيتنام... نعم، لدينا من هو أعظم منهم تضحيةً وتفانياً وجهاداً، لدينا من قدّمَ مالَه وولدَه ونفسَه، ومن أعطى عمره لقضيّته، ولكن ذلك لا ينفي حاجتنا إلى أمثال أولئك المفكرين أبداً.

وقد روى لي أحدُ مجاهدينا أعضاء الخلايا أنّ أحد محقّقي الشّاباك قال له: «أنتم الفلسطينيّون تتقنون العمل العسكري، لكنكم فاشلون أمنيّـاً، وهذا ما يوقعكم بأيدينا». وفعلاً، لقد صدَقه هذا الكذوب!

* * *

الخَاتِمَة



الخاتمة

هي حربٌ دائمةٌ بين الاحتلال والشعب المقهور، مكانها كلُّ أرضٍ مغتصبةٍ وحقٍّ مسلوب، تنتهي دائماً إلى انتصار الحق وعودة الحقوق إلى أصحابها، وطرد المحتل عن أرضٍ سلبَها دون مشروعيّة.

حربٌ قد تطول عشرات السنوات، لكنها قد تنتهي بعدّة سنوات، وهذا عائدٌ إلى ظروفٍ موضوعيّةٍ وعوامل وأسباب، أهمّها قدرة الشعب وقواه المقاوِمة على إدارة مقاومته وتنظيم صفوفه، وتقويم أدائه، ومعالجة أخطائه، ومداومة الارتقاء والسير نحو النجاح.

إن ثورةً لا تُقيِّم تجاربَها لا يمكنها أن تعيش طويلاً، وإنّ مقاومةً لا توثِّقُ أعمالَها وبطولاتِ أبنائِها بانتصاراتِها وإخفاقاتِها لا يمكن أن تستفيدَ من تاريخها.

هي دعوةٌ لكلِّ مجاهدٍ ومقاوِمٍ وثائر، أن يبحثَ عن تجارب غيره فيتّعظ بها، وينتفع بنتاجها... وقد قيل: السَّعيدُ من اتّعظَ بغيره، والشَّقيُّ من اتّعظَ بنفسِه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع والمصادر

١ـ مختصر صحيح مسلم.

٢ـ الرحيق المختوم/ المباركفوري.

٣ـ المنهج الحركي للسيرة النبوية/ أ. منير الغضبان.

٤ـ فضائل الشّام/ الرّبعي.

٥ـ نور اليقين/ الخضري.

٦ـ رسائل الإمام الشهيد حسن البنّا.

٧ـ صفحات من التاريخ الإسلامي/ ناجي صبحة.

٨ـ صحيح الجامع الصغير/ الألباني.

الفهرس